المعارف العقدية

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد وآله الطاهرين. وبعد..

فإنّ من أهم الأبعاد في شخصية الإنسان البعد العقدي لما له من تأثير في مجالات حياته المختلفة، من هنا أولى إسلامنا الحنيف هذا البعد اهتماماً خاصاً باستعراضه في القرآن والحديث بالبيان والتفصيل لئلا يشاب هذا البعد بالغموض والتعقيد بل يصبح سهلاً رائقاً يتاح فيه للعالِم أن يصل إلى مبتغاه ويستطيع به متوسط الناس أن يعي المعنى بنحو ميسر وقد وردت الإشارة إلى ذلك في رواية عن إمامنا السجاد ، عندما سئل عن التوحيد، فقال: (إن الله عز وجل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى قل هو الله أحد والآيات من سورة الحديد إلى قوله : " وهو عليم بذات الصدور " فمن رام وراء ذلك فقد هلك)[1].

ولهذا ينبغي أن تكون المعارف الإلهية تطرح للناس على هذه الشاكلة يتاح لعامة الناس أن يعرفوا ما يحصل به الاطمئنان ويستطيع العالم منهم أن يصل إلى معارف ذات عمق كبير، وقد حاولت جاهداً أن أيسر المعارف العقدية بهذا النحو فألقيت دروساً ومحاضرات متعددة لاقت استحساناً لسهولتها ويسرها فجمعتها لتعم بها الفائدة.

والحمد لله رب العالمين.

الشيخ حسين العايش البراك

١٩ / ٦ / ١٤٢٥ هـ

الفصل الأول: المعارف الإلهية

المطلب الأول: معرفة الله تعالى

القسم الأول: الطرق الموصلة إلى معرفة الله تعالى.

---

[1] – الكافي للكليني ج١ ص٩١.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨) صدق الله العلي العظيم.

ضرورة معرفة الله تعالى

استدل العلماء على لزوم معرفة الله تعالى بدليلين:

الأول: وجوب شكر المنعم.

الثاني: وجوب دفع الضرر المحتمل عقلاً.

أولاً: وجوب شكر المنعم.

يتضح الأول من خلال إدراكنا أنّ الإنسان يعيش في الحياة الدنيا أنماطاً متعددة من النعم، ويرفل في النعيم دون أن يشعر به، بل يعيشه دون أن يتوجه إليه، وقد لا يلتفت إليه إلاّ إذا فقده، فمن منا لا يدرك الأهمية الفائقة للبصر الذي يبصر به ويرى به الأشياء، وهو من أعظم النعم على الإنسان، ومن منا لا يدرك الأهمية الكبيرة للسمع الذي يسمع به وأنّ ما يصل إليه من علم يتوقف عليه، ومن لا يدرك الأهمية الفائقة للأكسجين الذي نستنشقه، ولا الأهمية الكبيرة للماء والاستفادة المتعددة له، ومئات من النعم التي تحيط وجودنا دون أن نلتفت إلى كثير منها، بل أنّ البعض لا يلتفت إلى الواضحات من النعم إلاّ إذا افتقدها، إنّ هذه النعم التي لا تحصى داعية للمرء إلى معرفة الله تعالى، فهو المنعم، ولا يمكن شكره إلاّ بمعرفته، إذن هناك أمران رئيسيان يدعوان إلى المعرفة:

الأول: شكر المنعم الذي أنعم علينا بنعم تحيط بنا من كل جانب.

لابد أن نتعرف عليه ليتاح لنا شكره، وقد أوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨) بينت الآية أنّ الغاية من هذه النعم الوصول إلى شكر المنعم.

ثانياً: وجوب دفع الضرر المحتمل.

وكي يتضح ذلك نشير إلى أنّ هناك طرقاً متعددة في الحياة، كل منها يؤدي إلى نهاية، ولا تلتقي في مقاصدها ونهاياتها، والإنسان على مفترق منها، ويحتمل وجود ضرر من بقائه على ذلك المفترق، وكذلك

سلوك أي واحد من هذه الطرق دون اطمئنان، وهناك كثير من الدعاة لهذه الطرق، كل فريق يدعو إلى مساره، والحياة التي نعيشها بهذه المثابة، نحن على مفترق فيها، ولا أحد له خلود في الدنيا كما أنه لا أمان لها، والإنسان معرض لأخطار كثيرة في الحياة الدنيا، بعض الدعاة يدعو إلى الاستمتاع بملاذها دون التفكير في المصير الأخروي، وفيما سيؤول إليه، كما أنّ بعضهم يعاكسه ويشدد على نسيان لذات الحياة الدنيا وتوجيه العمر إلى الآخرة مدعٍ عدم الفائدة لِلَذّات هذه الدنيا، وهناك من يمثل الوسطية، وبين هذه الطرق طرق أخرى شتى، وقد أعطى النبي صلى الله عليه وآله هذا المثال لبعض صحابته عندما رسم خطوطاً كثيرة بأنامله، وقال إنّ كل طريق يؤدي إلى غاية، وهناك طريق واحد منها هو أفضلها، وهو ما جاء به الأنبياء والرسل عليهم السلام مبرهنين بأنّه أأمن الطرق للوصول إلى الله تعالى، أما بقية الطرق الأخرى فهي لا تؤدي إلى الأمان ولا تعطي الإنسان حصانة لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل قد يخسرهما الإنسان، وقد بين العلماء أنّ من لم يسلك هذا الطريق الذي جاء به الأنبياء والرسل يخاف على نفسه ويعيش قلقاً وحزناً وهماً لأنه لا أمان له، من هنا فإنّ العقل حاكم بوجوب دفع الضرر، وهنا أكثر من ضرر، ضرر دنيوي يعيشه من خلال آلام الحياة الدنيا، وما يعتريه من قلق وهموم وأحزان، وضرر أخروي يخاف منه على مستقبله الذي يؤول إليه، لأن مصيره غير آمن قد يودي به إلى الجحيم.

نتائج معرفة الحق

من خلال هذين الأمرين (وجوب شكر المنعم، ووجوب دفع الضرر الذي يحيط بالحياة الدنيوية والأخروية) يدرك الإنسان لابدية معرفة الحق تعالى.

الأول: حصول الأمن.

ليؤمن به ويسير على صراطه، فيأمن، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:٨٢) إنّ الله تعالى يعطي الأمن للذين آمنوا به تعالى إذا لم يكونوا ظالمين لأنفسهم ولا لغيرهم، أي لم يلبسوا إيمانهم بالظلم.

الثاني: الحصانة من ظلم الآخرين.

أوضحت الروايات أنّ الإيمان حصانة من الظلم، خصوصاً من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ذلك أنّ الإيمان يدعو إلى العدل، لذا كان همّ الأنبياء والرسل الكبير إيصال الناس إلى الإيمان، لأنّه يستلزم العدل والفضيلة والرشد، ويترتب على العدل والفضيلة والرشد التقدم في الحياتين الدنيوية والأخروية.

الثالث: أحداث التوازن النفسي.

أما من لم يؤمن واختار طرقاً عوجاء فإنه سيعتدي على نفسه حتى إذا كان يرفل في النعيم، لأن عيش الرفاه قد يؤدي به إلى القلق والانتحار، ولا يعرف كيف يتعامل مع نعم الله تعالى التي أعطاه إياها، وقد أشار الدارسون بأنّ السبب الرئيس للانتحار هو عدم وجود الإيمان، قائلين إنّ من أهم العوامل التي تعطي الإنسان حصانة من التعدي على نفسه وعلى الآخرين الإيمان، لأنه يحدث توازناً لمن آمن ويستطيع المتوازن أن يدير نفسه بجدارة، لا يظلمها ظلماً يؤدي إلى إهلاكها، ولا يعتدي على الغير، لذا فإن ما نراه ونعيشه من الظلم والجور والتعدي على الآخرين، ناتج من عدم الإيمان، قال صلى الله عليه وآله: ‹‹الإيمان قيد الفتك››[1] لا يفتك المؤمن بالآخرين، حتى إذا كان الآخر من الكفار، لأنّ الإيمان يمنعه، ومن خلال هذا العرض نعرف سر دعوة الأنبياء إلى الإيمان، لأنّ غير المؤمن لا موازين عنده، فيعتدي على نفسه أو على الآخرين، لعدم الضوابط لديه، بخلاف المؤمن، فإن إيمانه يقترن بضوابط وقيود.

وعليه فإنّ وجوب دفع الضرر، وضرورة شكر المنعم يدعوان المرء إلى معرفة الله تعالى، ومن أراد أن يتعرف على الله تعالى، فإنهما يدفعانه إلى ذلك، وهناك طرق أخرى دافعة إلى معرفة الله تعالى، غير أن أهمها الطريقان المذكوران.

مضار الغفلة عن معرفة الله تعالى

وننبه هنا إلى أنه قد لا يدرك من يعيش النعيم ما هو فيه، فلا ينظر إلى النعيم الذي يعيشه، بل قد لا يدرك الظلم الذي يقوم به في حق نفسه أو في حق الآخرين، وبالتالي لا يعي أنه لا يأمن في الحياة الدنيا ولا في الآخرة، لكونه يعيش الغفلة، كثير من الناس كذلك قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٤٤)، ومن يعيش الغفلة، لا يعي الطريقين، ومن كان كذلك لا بد من إيقاظه من السبات الذي يعيشه، بتنبيهه من الغفلة، لذا ألف بعض العلماء رسائل في تنبيه الغافلين إلى ضرورة المعرفة، لأنّ الغافل لا يدرك ضرورة المعرفة إلا بعد إيقاظه، ولابد من استخدام أساليب متعددة ومنبهات وجدانية لإثارة انتباهه إلى ضرورة المعرفة، وبعد أن يلتفت إلى الله تعالى عندئذٍ يضع قدميه على الصراط المستقيم ويستطيع أن يصل إليه تعالى.

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٤٤ ص٣٤٤.

خصائص المعرفة

الطرق الموصلة إلى الله تعالى أكثر أنفاس الخلائق، والمعرفة على قسمين: نظرية وعملية.

الأولى: الحاجة إلى المرشد في المعرفة.

والنظرية معارف إذا أوغل الإنسان فيها لإدراك بعضها وجده محيطاً لا ساحل له، بل أن كل مفردة من تلكم المعارف تدعوه إلى معارف أخرى، غير أن سلوك طريق المعرفة النظرية قد يتيه به، فيحتاج إلى مرشد مسدد يدله على الحق، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد:٧).

الثانية: التناسب بين المعرفة والمتلقي.

إن الهداية ضرورة توضح للإنسان طريق الصواب، الذي يؤدي به إلى المعرفة المناسبة مع شخصيته، والمعرفة أشبه بالجرعات، لا يعطى الإنسان كمّاً منها إلاّ بعد أن يلحظ وجود قابلية له على التلقي، إذ قد لا يتحمل فيخرج من دينه لعدم تناسب المعرفة مع قابليته، قال تعالى: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد:١٧)، إذن المعرفة التي يتلقاها المرء لابد أن تتناسب وإياه، وإذا لم يحصل على المعرفة المناسبة له، فقد يقع في إشكالية مع نفسه فيخرج عن الدين، أو يعتدي على نفسه أو الآخرين، لذا نرى أن من سلك الطريق إما أن يضع أقدامه على جادة الصواب فيصل إلى الغاية، وإما أن يستحب العمى على الهدى بتركه للحق، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (فصلت:١٧)، أي ليس كل من سلك الطريق وصل إلى النهاية، بل قد يخرج عن جادة الصواب إلى الضلالة، ولابد من موازين وملاحظة التناسب بين عمق المعرفة وقابلية المتلقي، لأن الجرعة الدوائية إذا زادت لم يؤد ذلك إلى الشفاء.

الثالثة: التدرج في المعرفة.

إن المعرفة التي توصلنا إلى جادة الصواب، لابد أن يُتدرج فيها للوصول إلى الدرجة العالية منها، غير أن الكثير من الناس لا يعي أنّ المعارف لابد أن تعطى على شكل جرعات، وتقدم كزاد بسيط في البداية، فالوصول إلى الله طريقه العلم والعبادة، ويراد بالعبادة السير في جادة الصواب والطريق المرسوم من قبل الله تعالى، ولا يعي غالب الناس أهمية التدرج والمران للوصول إلى طاعة الحق تعالى.

إن العبادة كالمعرفة، على العابد أن يأخذها جرعات، ولا يأخذ مقداراً لا يتحمله، لأن الزائد منها يؤدي إلى ترك الطريق المستقيم، من هنا فعلى من أراد إيصال الناس إلى الله تعالى أن يكون حكيماً، أما

إذا تجرد عن الحكمة مع نفسه أو مع أبنائه وبناته أو مع الناس الذين يريد لهم الهداية إلى الحق فقد لا يصل إلى الصواب.

القسم الثاني: الدليل العقلي على المعرفة.

مستند معرفة الله تعالى العقل

استعرضنا أهم الأدلة الباعثة لمعرفة الله تعالى، وهما: وجوب شكر المنعم، ولزوم دفع الضرر المحتمل.

ولابد أن تستند معرفة الله تعالى إلى العقل، بادئ ذي بدء لأنّ الأمور العقدية خصوصاً معرفته تعالى لابد أن تكون مستندة إلى العقل، فمن أراد أن يتعرف على الله عليه أن لا يستند إلى دليل نقلي في معرفته له تعالى في البداية، لأنّ المعرفة قاعدة أساسية يبنى عليها جميع الأمور العقدية، فلابد أن يكون مستندها العقل.

وقد زكن القرآن الكريم على ذلك في آيات عدة، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (النساء:٨٢)، ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس:٦٨)، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية:١٧)، فكل الآيات الداعية إلى العقل والنظر والتدبر تفصح عن لابدية الاستناد إلى الدليل العقلي بادئ ذي بدء، وضرورة بناء المعارف خصوصاً الركائز المعرفية الأولى عليه، وبعدئذ تؤخذ التفصيلات من الأدلة النقلية.

الأدلة النقلية مصادرة على المطلوب

أما الاستناد إلى النقل بداية فلا يجوز، وإذا استندت المعرفة إلى النقل فهي موهونة وغير صحيحة، قال العلماء: إنّ الاستناد في معرفة الله تعالى إلى النقل من الآيات القرآنية أو الحديث بأن يستدل على وجوده تعالى بقوله إني موجود، مصادرة على المطلوب، فلابد أن تكون الأدلة على الله تعالى عقلية واضحة موجبة للاطمئنان، وفيما بعد يستند إلى الأدلة النقلية لإيضاح وتفصيل بقية المعارف العقدية، أما في البداية فلا يستند إليها في إثبات معرفته تعالى، لكونها مصادرة على المطلوب ومستلزمة للدور، وعليه فإنّ البرهان النقلي لا يشكل دليلاً صحيحاً بادئ ذي بدء.

الروايات تؤكد على الدليل العقلي

أفصحت بعض الروايات عن هذا المعنى، قال إمامنا الكاظم عليه السلام: ‹‹يا هشام إن لله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسول والأنبياء والأئمة وأما الباطنة فالعقول››[1] هناك حجتان؛ إحداهما الرسل والأنبياء من قبل الله تعالى يخبرون أنهم سفراء الحق تعالى للخلق، ويقيمون المعاجز ويظهرون البراهين ويوضحون الدلائل كإبراهيم وموسى وعيسى والمصطفى صلى الله عليه وآله وبقية الرسل والأنبياء عليهم السلام، والآخر: ما نسميه الركيزة وهو العقل، ولابد أن يستند إليه الإنسان بداية، نعم؛ نحتاج الأدلة النقلية في منظومة المعارف العقدية لأنها من السعة بمكان والعقل محدود، لا يدرك التفصيلات فنحتاج إلى الأدلة النقلية غير أنّ ذلك بعد بناء القاعدة الصلبة التي هي أساس المعارف، وبعد ذلك فإنّ التوسعة يستند فيها إلى الأدلة النقلية الرافدة للعقل.

الانسجام بين الأدلة العقلية والنقلية

تتعلق أكثر المعارف البشرية بالجنبة المادية، وقسم محدود منها يتعلق بالجانب اللامرئي المسمى بالجانب الغيبي الذي لا مسرح للعقل فيه، بمعنى أنّ إدراك العقل في الجانب الغيبي قليل، كصفات الآخرة والتفصيلات الموجودة فيها إذْ لا يستطيع العقل أن يدلل عليها لأنّ الآخرة عالم غيبي، والعقل لا يدرك المعالم الغيبية لمحدوديته، لذا نحتاج الأدلة النقلية الصحيحة التي تتفق منسجمة مع البرهان العقلي، ولا تنافي بين الدليل العقلي الواضح البين والدليل النقلي، فما حكم به العقل الصحيح الصريح يحكم به النقل الصحيح الصريح للانسجام والتلاؤم بينهما، ولهذا أكد النقل على أهمية الإيمان بالغيب، لعدم إحاطة العقل بتلكم المعارف، قال تعالى: ﴿الم*ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة:١-٣) ومن أراد أن يكون متقٍ سائراً في صراط العبودية، عليه أن يؤمن بمعارف غيبية بعد أن يبني القاعدة الصلبة من خلال الدليل العقلي الموزون الصحيح، ومن ثم تكون الأدلة النقلية مؤيدة للدليل العقلي، وموضحة للمعارف الغيبية.

دور الدليل النقلي

إن المعارف الغيبية لا نستطيع أن نصل إليها بعقولنا، فتأتي المعارف النقلية لتزيل الإبهام والغموض الذي يلفها، وتشرح المبهمات عنها فتتجلى حقائقها، إذن فائدة الدليل النقلي أن يؤيد الدليل العقلي ويوضح كثيراً من المعارف الغيبية التي لا يمكن للعقل أن يصل إليها.

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٧٥ ص٣٠٠.

أثر اليقين في المعارف العقدية

وهنا ينبغي أن نلتفت إلى إجابة سؤالين في بحوثنا العقلية والنقلية للوصول إلى درجة من اليقين، ذلك أنّ اليقين له مراتب، وأفضل ما يسعى المرء إليه في الدنيا هو الوصول إلى درجة اليقين في المعارف العقدية، فإذا وصل إليها استطاع أن يكمل نفسه في الجوانب الأخرى لأنّ البناء العقدي هو الأهم، ومن وصل إلى درجة عالية من اليقين استطاع أن يتعامل مع الأمور بانسياب تام وأريحية كاملة، وقد شرحت الروايات هذا المعنى، جاء في بعضها أنّ ‹‹أفضل الإيمان حسن الإيقان›› و‹‹أفضل الدين اليقين››[1] لأنّ من وصل إلى درجة اليقين هانت عليه مصائب الدنيا، ولم يؤثر فيه ما يلم به من أحداث وما يطرأ عليه من كوارث لاستطاعته التعامل بانسيابية لعلمه بأنّ الله تعالى هو المدبر لهذا العالم، وأنّ فيه حكم يقصر العقل عن الإحاطة بها فيلجأ أموره إلى الله تعالى بعد بذل قصارى جهده، ويكل الأمور إليه تعالى، فهو القادر على تفريج الكرب ورفع ما يطرأ من الحوادث والأحزان، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق:٣).

مبدأ الوجود

يجب أن نحصل على اطمئنان في الإجابة على السؤالين التاليين:

الأول: من أين أتينا؟

والذي يمكن أن نعبر عنه بصيغ مختلفة كقولنا: من الذي أوجدنا؟

كثير من الناس يعيش مرحلة من الشك، حتى وإنْ كان من العلماء والأدباء الشعراء، فإيليا أبو ماضي عبّر عن ذلك شعراً، فقال:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت ولقد أبصرتُ قدامي طريقاً فمشيت

وسأبقى ماشياً إن شئتُ هذا أم أبيت كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري[2]

---

[1] – مستدرك الوسائل للنوري ج١١ ص١٩٩.

[2] – الطلاسم لابي ماضي.

وهذه الحالة من الشك والريب نتيجة لعدم اعتماد الدليل العقلي والبرهنة المتقنة وتشكيل قاعدة صلبة لبقية الأمور العقدية، وحري بالإنسان أن يبني الأمور العقدية على إجابة سؤال من أين أتينا؟ أي من الذي أوجدنا؟ فمن الضروري أن نعرف الإجابة على هذا السؤال بنحو يورث الاطمئنان، لأنّ الإنسان إذا لم يطمئن لن يعيش السعادة، وننبه هنا أنّ معرفة الله تعالى رغم أنها فطرية ووجدانية لكن فطرة الإنسان عليها ركام من الأتربة والغبار يصعب إزالتهما، نعم؛ عندما يصاب بالحوادث يتذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾(العنكبوت:٦٥) أي إذا ركب سفينة وكانت أمواج البحر عاتية فانكسرت السفينة وتغلبت عليها الأمواج عندئذ يعرف أنه لا ملجأ له إلاّ الله تعالى، وقد جاء هذا المعنى في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام عندما قال له رجل دلني على ربي، فأجابه بهذا الدليل الوجداني، قائلاً ((فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئا من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ قال: نعم، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشئ هو الله القادر على الانجاء حيث لا منجي ، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث))[1] لذا نرى الطغاة كفرعون الذي ادعى الربوبية عندما تعرض للغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(يونس:٩٠) فإذا تعرض الإنسان لأحداث كبيرة وصل إلى المعرفة الوجدانية، إلاّ أنّ عليه أن يصل إلى اليقين قبل أن يتعرض للحوادث وأن يعرف الإجابة الدقيقة على (من أين أتيت؟) قبل تعرضه للمكاره.

منتهى الوجود

الثاني: أين نذهب؟

فينبغي أن نعلم أنه ليس هناك من يخلد في هذه الحياة، وأنّ المرء يتعرض لحالات من الرفاه والنعيم والمسرة وحالات أخرى مغايرة من الحوادث والأكدار، وكلها تتلاشى منتهية ولا يبقى منها إلاّ الذكر، لذا قيل إنّ من أهم التنبيهات الحكمية للإنسان علمه بعدم استمرار الحال، لأنّه يخفف عليه ما يلم به من أحداث، وما يصاب به من ضراء وكرب لعلمه بأنّ ذلك له مدة تنتهي، والحياة كلها بهذه المثابة تنتهي منقضية، ولابد من العلم أين نذهب؟ والإجابة على هذا السؤال من الأهمية بمكان تورث الطمأنينة، لمعرفته بمآله تطمئن نفسه، ويعي معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾(البقرة:١٥٦) وقد جاء إيضاح ذلك

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٣ ص٤١.

من إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام لما سمع إنساناً يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون فقال عليه السلام: ‹‹قولنا إنا لله إقرار له منا بالملك وقولنا إنا إليه راجعون إقرار على أنفسنا بالهلك›› [1] أي سننتقل من هذه الدنيا إلى دار أخرى ليوفى كل امرئ حسابه.

القاعدة صلبة للمعارف العقدية

وإذا استطاع الإنسان أن يجيب على هذين السؤالين المتقدمين فقد وضع قدميه على أرض صلبة من الناحية العقدية، أما إذا لم يستطع أن يجيب عليهما بإجابة متقنة ودقيقة سيبقى تائهاً متذبذباً، وحري بالعاقل أن يؤكد المعارف العقدية في نفسه وأبنائه ومن يرعاه، وعلى الأستاذ أن يغرس في تلامذته ما يربطهم بالله تعالى ليحقق لهم الغنى، ذلك أنّ الإنسان لن يستغني إلاّ إذا ارتبط به تعالى، أما الغنى المالي والصحي وغيرهما فسرعان ما يزول لأنّ جميع ما في هذه الدنيا يؤول إلى الفناء والاضمحلال.

القسم الثالث: الدليل الفطري على معرفة الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠) صدق الله العلي العظيم.

الفطرة

استعرضنا بعض الأدلة التي تلزم الإنسان بمعرفة الله تعالى، وألمحنا إلى أهمية الدليلين اللذين أوضحناهما وأنهما قريبان من البداهة، ونردفهما بالدليل الفطري، وقبل استعراضنا له لابد من تبيان معنى الفطري.

الأمور الفطرية

الأمر الفطري مركوز في جبلة الإنسان وطبيعته، والإنسان أينما وُجد في شرق الأرض أو غربها يتصف به.

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٧٩ ص١٣١.

أي أنّ الدليل الفطري لازم للإنسان لا ينفك عنه كلزوم الحرارة للنار، وأنّ طبيعة الإنسان تقتضيه، كالإحسان، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾(الرحمن:٦٠)، والوفاء بالعهد والصدق وحسن العدل وقبح الظلم، فإن الإنسان بفطرته يستقبح الظلم، ويقدس العدل، والأمر الفطري موجود في طبيعة الإنسان يرى في أفراده بغض النظر عن مكانهم الجغرافي وانتمائهم الديني، لذا يحترم الإنسان بفطرته وطبيعته الأمور الفطرية، لأنها مركوزة في طبيعته، نعم؛ قد يغطى على هذه الطبيعة بشيء من الركام فالأم رغم أنّ حبها لأبنائها أمر فطري إلاّ أنك قد تجد أمًّا لا تحب أبنائها، والسبب هو انغماس الإنسان في أمور تنسيه نفسه، فيصبح مسخاً.

الانسلاخ من الفطرة

تحسن الأم إلى أبنائها بطبيعتها وقد تجد أمًّا تسيء إليهم فتعذبهم، والعدل من الأمور الفطرية إلاّ أنّ الإنسان قد يتحول إلى وحش كاسر فيظلم الناس كثيراً ويعمل على خلاف الفطرة.

معرفة الله تعالى أمر فطري

بعد اتضاح الأمور الفطرية فإنّ أهم الأدلة الدالة على وجود الله تعالى الدليل الفطري، أي أنّ معرفة الحق تعالى أمر فطري وأينما ذهبنا في أنحاء العالم نجد أنّ الإنسان يميل إلى الدين وعبادة الحق حتى إذا كان من المنكرين لوجود الله تعالى، فإنه عندما يزول الركام الذي ران على قلبه يعترف بوجود الحق وإنْ لم يصرح به كلاماً بل وإن أنكره لفظاً لكنه يستيقنه حقيقة، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(النمل:١٤) قد يجحد الإنسان شيئاً وهو على يقين به لكنه ينكره استكباراً، وهذا من الأمور المشاهدة في تعامل الناس بعضهم مع بعضهم الآخر، فهناك من يعرف الحق لكنه ينكره، بل أنّ هناك من يعكس الحق ويقلبه إلى باطل لكن قلب الحق إلى باطل لا يعني ذلك أنّه لا يقدس الحق بوجدانه ولا يراه فطرياً بعقله، غير أنّ طبيعته المعوجة عكست الحق كما يفعل بعض الشعراء، قال المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم[1]

---

[1]- ديوان المتنبي ص٥٧١.

أي أنّ طبيعة الإنسان هي الظلم، وإذا وجدت أحداً غير ظالم فلعلة لا يظلم أي أنه يظهر على خلاف حقيقته، إنّ ما قاله عكس الحقيقة، لأن العدل من شيم النفوس وإذا وجدت ظالماً فذلك لاعوجاج فطرته وعدم استقامته.

الرجوع إلى الفطرة

معرفة الله تعالى أمر فطري، وقد بحث العلماء في تأريخ الحضارات وتوصلوا إلى أنّ كل حضارات الإنسان تشير إلى أهمية الخضوع إلى معبود، وأنّ ذلك من الأمور الفطرية، وليس هناك مجتمع ينعدم فيه الحس الديني، وذلك دليل على أنّ الدين والإذعان إلى قوة مهيمنة من الأمور الفطرية، نعم؛ قد ينحرف الإنسان ويتوجه إلى غير الله تعالى فاطر السماوات والأرض وخالق الكون فيضع مكانه غيره لاعوجاج فطرته، غير أنّ الفطرة السليمة توجهه إلى الله تعالى، وإذا توجه إلى غير الله تعالى فذلك استكباراً وعلواً يجعله يدعي أنه الإله لكنه مع ذلك سرعان ما يرجع إلى فطرته إذا تعرض إلى حادث أليم، كفرعون عندما غرق ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس:٩٠) أظهر أنه ليس هو الإله، لأنه وجد أنه غير قادر على أن يدفع عن نفسه الضر أو أن يغير من حقائق هذا العالم لكونها ليست مربوطة بيد المستكبرين الطغاة، بل بالله تعالى.

الدليل الفطري على وجود الله تعالى

إذن الأمر الفطري مركوز في جبلة الإنسان داعٍ له إلى التعرف على الله تعالى، ومن رجع إلى نفسه ووجدانه سيرى ذلك بوضوح خصوصاً إذا مرت عليه كرب وآلام، والمرء من صغر سنه تمر عليه الأمراض والحوادث فيتوجه إلى القادر على إنجائه، ويزيل القدرات المصطنعة عن نفسه ويرجع إلى فطرته لكونه يرى الله تعالى هو القادر الكبير المتعال وأنّ غيره من الأمور المصطنعة لا ينجيه، فالمال لا ينجيه والجاه لا يخلصه والعشيرة لا تدفع عنه، وليس هناك إلاّ الله تعالى، ولعل ذلك هو أحد المعاني المستفادة من قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر:١٦) أي أنّ من ذهب إلى الآخرة ورأى رؤية متكاملة وجد أنّ الأمور التي اصطنعها ليست هي الحق ولا يمكن أن تكون بديلاً عن الله تعالى، بل أنّ الملك الحقيقي له تعالى، فيتعرف على الله تعالى بالدليل الفطري لأنّ فطرته تدعوه للتعلق بالله تعالى وحده لا شريك له، فيرى أنّ ما سواه زائف لا يمكن أن يتعلق به، لأنه اصطنعه كي يتكأ عليه ظناً أنه ينجيه ويستغني به وسرعان ما وجد أنّ ما اصطنعه لنفسه واتكأ عليه لا يغنيه وأنّ الغنى بيد الله تعالى.

خصائص الدليل الفطري:

أوضح القرآن الكريم الدليل الفطري بقوله تعالى: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠)، وله خصائص:

أولاً: أفضل الأدلة على معرفة الله تعالى.

الدليل الفطري دال على وجود الحق تعالى لمن التفت إلى معناه، لأنه سيجد أنّ غير الله تعالى لا يمكن أن يوجد الكون لا من شيء، وإذا أراد الإنسان أن يوجد شيئاً لا من شيء فلن يستطيع ذلك، ولابد أن يوجد شيئاً من مادة ومن خلال تغيير التركيبة يحدث شيئاً، أما إذا انعدمت المادة وليس لديه شيء فلا يستطيع أن يوجد شيئاً، لكن الله تعالى أوجد الكون لا من شيء، وليس هناك مع الله أو قبله شيء أوجد منه الله تعالى الأشياء، إنّ الله تعالى لم يأخذ شيئاً موجوداً معه فصير به الكون، لذا أفصح القرآن الكريم عن بداهة هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ (إبراهيم: ١٠)، أي لا شك فيه لأنه فاطر السماوات والأرض، والسماوات والأرضون والكون بما فيه أوجده تعالى لا من شيء، فلا مادة مع الله أوجد بها تعالى الأشياء.

إنّ الإنسان يستطيع أن يغير في التركيبة والصنع ويجمع مواداً ويغير في تركيبتها، غير أنّ ذلك يختلف عن صنع الله تعالى وإبداعه الذي أوجد الأشياء لا من شيء، ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠).

ثانياً: أقوى الأدلة.

من التفت إلى هذا المعنى فلن يضيع عن الله تعالى وسيتعرف عليه عبر أمرين:

الأول: الفطرة؛ فيستيقن بالحق تعالى.

الثاني: العلم بالقدرة اللامتناهية للحق تعالى؛ فيرى أنّه تعالى هو القادر وحده، وأنّ غيره لا قدرة له، وأن الكون بقوانينه ومعادلاته يرتبط بقدرته تعالى وليس هناك من يستطيع تغيير المعادلات الكونية، لذا استدل بها الأنبياء، فإبراهيم عليه السلام قال للنمرود إنّ الله يحيي ويميت، وأراد عليه السلام المعنى الحقيقي

للإحياء والإماتة وليس ما في ذهن النمرود، بل بمعنى معطي الحياة فاطر السماوات والأرض الذي أوجد الحياة لا من شيء، والقادر على إيقافها.

ثالثاً: أوضح دليل.

المعادلة الكونية بأجمعها وبشراشرها بيد الحق تعالى، ليس له شريك في الإعطاء والمنع، فإنْ شاء أعطى وإن شاء أخذ، غير أنّ النمرود لبّس في الدليل فقال أنا أحيي وأميت وجاء باثنين وأمر بقتل أحدهما وإبقاء الآخر، وليس هذا هو المعنى الحقيقي للإحياء والإماتة، بل تدليس على الناس خصوصاً على من لا يعرف الأدلة والبراهين ولا يستوعب الفكرة حقيقة، لذا من المهم إرجاع الناس إلى الفطرة.

رابعاً: أسهل دليل.

إن من أهم الأمور في التربية بنحو عام ترسيخ الدليل الفطري في أذهان الناشئين واليافعين وتعليمهم كيفية الوصول إلى معرفة الحق تعالى، لأنّ من وصل إلى ذلك فقد وصل إلى قمة المعرفة.

خامساً: لا إبهام فيه.

بيّن إبراهيم عليه السلام أنّ الله تعالى هو الذي يحيي ويميت أي يعطي الحياة ويسلبها، فقال النمرود أنا أحيي وأميت، فغير إبراهيم عليه السلام المثال إلى مظهر كوني، لا يمكن للنمرود أن يلبس فيه، فقال إنّ الله تعالى يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب، فبهت الذي كفر، وذلك لأنه غير قادر على تغيير هذه المعادلة، إذْ ليس هناك من يستطيع أن يجعل الليل نهاراً، لذا كانت الحجة من الوضوح بمكان، فلم يستطع أحد دحضها.

إنّ الدليل الفطري يوصل الإنسان إلى اليقين ويدحض التصورات الخاطئة، ويزيل ما يصطنعه الإنسان، فيرى من أراد الحق أنّ الله تعالى وحده لا شريك له، ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠).

كيفية الاستفادة من الدليل الفطري:

من أهم الأمور لمن أراد السير في الصراط المستقيم أن يتعرف على الدليل الفطري بادئ ذي بدء قبل أن يصاب بحادث أو مرض فيلتفت إلى ذلك، غير أنّ بعض الناس غافل لا يلتفت لأدران طرأت عليه فلم يتعرف على الدليل الفطري، وإذا أراد أن يتعرف على الله تعالى فإنّ عليه أن يتمسك بالسير على

الصراط المستقيم ليتاح له أن يتوجه إلى الحق، لأنّ من اعوجت فطرته فلن يصل إلى الله تعالى إلاّ بالابتلاء، فهو القادر على إرجاعه إلى الفطرة، أما إذا كان منحرفاً فيصعب عليه أن يتعرف على الله تعالى.

إنّ معرفة الله تعالى مشروطة بالسير على الصراط المستقيم، أي أنّ الدليل الفطري ينجذب إليه المستقيم ولن يعرفه من كان على فطرته ركام وأدران، ولن يستطيع أن يرى الدليل الفطري بوضوح، أما السوي فيرى الأشياء بوضوح ويتاح له أن يتعرف على الله تعالى بفطرته.

القسم الرابع: النظم وحساب الاحتمالات ومعرفة الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت:٥٣) صدق الله العلي العظيم.

تجذر الدليل الفطري في الإنسان

استعرضنا أهم الأدلة التي تلزمنا بمعرفة الله تعالى، وبينا أنّ الدليل الفطري يربط الإنسان ربطاً وثيقاً بالحق تعالى خصوصاً في الشدائد والكُرب إذا ألمت به، إذْ أنّ الأحداث تكبر فلا يجد المرء ملجئاً فيها إلاّ الله تعالى.

وهذا الدليل موجود في جبلة الإنسان، إذْ لا أحد من البشر تنعدم فيه الفطرة، نعم؛ قد تنطمس بالعلو والاستكبار فتشتد عليه الكرب لترجعه إلى الله، قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس:٩٠) إذن لا تموت الفطرة بنحو كلي بل يبقى الدليل الفطري جذوة مشتعلة يتذكره الإنسان إذا اشتدت به الأحداث وألمت به الكرب.

الإراءة الأنفسية

يوضح القرآن الكريم برهانين يلزمان الإنسان بضرورة التعلق بالله تعالى ومعرفته والتوجه إليه:

الأول: الدليل الفطري.

وسماه القرآن الكريم الإبصار في النفس، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢١) أي أنّ من التفت إلى نفسه أدرك حقيقة التعلق والارتباط بالله تعالى.

الإراءة الآفاقية

الثاني: الدليل الخارجي.

ويعبر عنه القرآن بالرؤية الآفاقية، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ (فصلت:٥٣) أي في الكون بأكمله، ذلك أنّ كل مفردة من مفرداته تدلل على وجود الله تعالى إذا أمعن المرء نظره فيها وتفكر في كيفية نظمها وارتباطها بالمفردات الأخرى، وكي يتضح هذا المعنى نشير إلى مقدمات:

الأولى: برهان النظم.

ومعناه أنّ الكون يسير على وفق أنظمة غاية في الدقة، فللشمس بعد خاص عن الأرض، بحيث لو اقتربت قليلاً منها لاحترقت الأرض، ولو ابتعدت عنها لتجمدت، ويستطيع الإنسان النظر إلى آلاف الأمور من مفردات الكون الدالة على هذا المعنى، قال الشاعر:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[1]

أي أنّ كل ما نراه في الكون يدلل على وجود الله تعالى وعلى وحدانيته.

استحالة الخلل في هذا النظم

ولعل الإنسان بتركيبه المعقد الذي يعجز من تفكر في نفسه عن معرفة كيفية تحقق هذا الوجود العظيم المتقن الإبداع الرائع القدرات التي يستطيع بها الإنسان أن يسخر الكون لخدمته، ليكون السيد المطاع والخليفة لله تعالى، ورغم أنّ الإنسان في منتهى قوته ضعيف أي أنّ الله تعالى جعله قوياً ضعيفاً وضعيفاً قوياً يتمتع بقدرات هائلة لكنه قد يفتقد شيئاً بسيطاً فيعود من قوته إلى الضعف، والعلماء وسائر الناس الذين جرت عليهم الحوادث بدى ضعفهم واضحاً، فقد تجد عبقرياً يصاب بحادث يفقد به ذاكرته، ولا يستطيع أن يتذكر ما صدر منه ولا أن يعي ما قام به من أعمال، لانفصاله عن ذلك حتى كأنه يراه

---

[1]- لابي العتاهية: انظر تاج العروس للزبيدي ج١٩ ص٦٢.

أول مرة لما ألم به من حادث، والأمور والأحداث تذكر الإنسان بدقة النظم التي يستحيل أن تكون من خلال الصدفة، فلابد أن يكون الموجد هو الذي أتقن النظم وأحكمه.

إنّ برهان النظم يدل دلالة خارجية على الله تعالى، ومن نظر إلى ذلك توصل إلى استحالة وجود نظام دقيق دون منظم، وإحكام دون حكيم أتقن الصنع، وعليه فإنّ من أوجد الكون يتصف بالحكمة لأنّ عدة من الأنظمة والقوانين التي هي في غاية الدقة والإعجاز كقانون الجاذبية وغيره من القوانين تبهر الإنسان إذا التفت إلى نظمها ودقتها، فيرى أنّ النظم أبدعه حكيم متعال، وإذا ضم إلى ذلك الدليل القائم على حساب الاحتمالات عرف من خلالهما لزوم معرفة الله تعالى وضرورة الارتباط به.

الثانية: الدليل القائم على حساب الاحتمالات.

برهان حساب الاحتمال دليل رياضي يستفيد العلماء منه في مجالات متعددة لإثبات قضايا أو الوصول إلى يقين جازم، ونريد أن نستفيد منه في هذه المفردة بضمه إلى برهان النظم ليتشكل دليل علمي متقن يلزم الإنسان بالارتباط بالله تعالى ومعرفته، وخلاصة الدليل القائم على حساب الاحتمالات كالتالي:

إنّ أي نظام يستحيل دون منظم، فإذا رأينا مسجداً، وقلنا لأحد بأنه وُجد بنفسه، وأنّ جميع ما فيه وجد صدفة سنرى أنّ من يسمع ذلك يصف القائل بالسذاجة وانعدام العقل، وإذا كان المسجد رغم بساطته يستحيل أن يوجد صدفة، ليكون بابه في موقع محدد وإنارته كذلك، وأجهزته في أماكنها المخصصة وكان ذلك لا ينسجم مع من له تأمل، ولا يقبله من يحترم نفسه، رغم أنّ المسجد لا يمثل إلاّ جزء بسيطاً من معادلات الكون الدقيقة ولا نسبة بينه وبين دماغ الإنسان المعقد الذي فيه آلاف من الأنظمة والدقائق، وإذا استحال وجود المسجد صدفة ولم يقبل ذلك العقل والعقلاء بل يصفون المتحدث به بأنه أقرب إلى المجانين فما بالك بالكون كله.

إنّ دماغ الإنسان وقانون الجاذبية والأنظمة الأخرى التي هي في غاية الدقة والإحكام إذا ضممنا إليها الدليل القائم على حساب الاحتمالات يتضح لدينا ضرورة ارتباط الكون بالله تعالى.

قانون حساب الاحتمالات:

أبسط صورة لحساب الاحتمالات هي المسجد كمثال، فإن فيه الكثير من الإتقان والنظم حيث يستحيل أن يوجد صدفة أو يسند إلى عوامل طبيعية كالهواء والرياح ودوران الأرض حول نفسها، فإنّ القول بذلك أشبه بالخرافة، وهو بعيد تمام البعد عن منطق العقل والعقلاء بل أنّ عمر الكون مهما أعطيناه

من مليارات السنين غير كافٍ لإيجاد مفردة من مفرداته، ذلك أنّ أي مفردة منه لا يمكن أن تكون صدفة فضلاً عن مخ الإنسان الذي هو في غاية الدقة والتعقيد، بل أنّ أبسط شيء في الكون يحتاج إلى مليارات من السنين ليتحقق، فنعلم جازمين أنّ الصدفة لا تكفي لإيجاد مفردة تتصف بالإتقان والإحكام، ولا يمكن أن تكون موجدة لذلك.

ولعل أسهل تقريب لحساب الاحتمالات هو أن نضع أرقاماً من واحد إلى مائة ونخلطهم دون تمييز لأي رقم من الأرقام، ثم نسحب من واحد إلى مائة بالترتيب، فإنّ ذلك رغم سهولته تصوراً غير أنه مستحيل خارجاً ويحتاج إلى ملايين من السنين كي يستطيع المرء أن يصل من الواحد إلى مائة صدفة بل قيل إنه لا يمكن ذلك، أي أنّ العقل يحيله، كيف إذا كان العدد من واحد إلى ألف، فإنّه يستحيل صدفة.

ضرورة وجود مبدع لهذا الكون

وإذا ضممنا الدليل القائم على حساب الاحتمالات إلى برهان النظم تشكل لدينا برهان غاية في الدقة والإحكام يدلل على ضرورة أن يكون ما نعيشه من إبداع أوجده مبدع لا نهاية لعلمه وقدرته، وأنّ ذاته لا تتناهى، وحقيقة وجوده غير متناهية، والأمثلة التي أوردناها في النظام المادي إذا استحال أن تتحقق صدفة، فما بالك بالكون اللامرئي الذي لا ندركه لأنّ ما ندركه جزء بسيط من عالم المادة، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥) إنّ الآفاق العلمية مهما اتسعت فهي محدودة، والإنسان إذا وعى بعض العلم رأى نفسه أنه لا يفهم حقائق الكون وعندئذٍ سيحترم عقله ويسلم بوجود مبدع للكون.

الإنسان بين الوعي واللاوعي

قد يغفل الإنسان عن ذلك إذا كان يعيش الرخاء المادي فلا يعي الحقائق إلاّ إذا تعرض لأحداث تذكره بالله تعالى، ذلك أنّ حالة الرخاء تجعله لا يفقه ما يدلل عليه العقل، وما يرشد إليه المنطق وما يوضحه البرهان، فيصاب في حالة الرخاء بالطغيان والسكر إلى الثمالة فلا يعي ما وراء عالم المادة، ولا يدرك كثيراً من المعادلات رغم كونها في منتهى الوضوح والبداهة فيعزب عن علمه الكثير، ولا يتذكر إلاّ إذا ألمت به الكرب وأحاطت به الأحداث.

الله تعالى المؤثر في الوجود

قرأت أنّ أحد الوزراء قال لموظفيه بأنّ لديه ألف دليل ودليل على عدم وجود الله، وكان أحد المؤمنين يريد أن ينصحه فأجل ذلك إلى الوقت المناسب لحكمته، إذْ أنه لا يستطيع أن يذكر الوزير لطغيان

المنصب، فمرت الأحداث فاتهم بقضية في الوزارة، ونزع عن منصبه وأودع السجن كما حصل في زماننا لبعض رؤساء الجمهوريات ورؤساء الدول، غيرت الأحداث مسار الأمور عليهم، فقد حصل للوزير ذلك، وقد تريث هذا الحكيم وأرجأ النصيحة كي يؤثر عليه السجن، فيذكره بالله تعالى بعد زوال سكر المنصب، ذلك أنّ عقل الإنسان قد يخامر بغير الشراب فلا يهتدي إلى الصواب، قال الحكيم: وبعدما اشتدت ظروف السجن عليه زرته لأذكره بالله تعالى، فوجدته يتمتم بكلمات من الشعر، كلها حكمة، تشير إلى أنّ الإنسان مهما طغى ليس هو إلاّ مفردة بسيطة من الكون يتأثر بعوامله، وعوامله مربوطة بقدرة الله تعالى وحكمته، والعالم وما يدور في فلكه يرتبط بالله تعالى، ومهما طغى صاحب المنصب فهو محدود بالقدرة، وهو جزء من هذا الكون الذي يتحرك على وفق الحكمة الإلهية والقدرة اللامتناهية لله تعالى، ولا يملك الإنسان لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً إلاّ بالله تعالى، قال الحكيم: لقد جئت إليه لأذكره بوجود الله تعالى، فلما سمعت شعره علمت بوصوله إلى معرفة ربه.

إنّ ما تقدم خلاصة مركزة توضح ضرورة معرفة الله تعالى من خلال المزج بين برهاني النظم ودليل حساب الاحتمالات.

القسم الخامس: دور الدليل النقلي في إثبات المعرفة.

قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى:١١)

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ*اللهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١-٤)

صدق الله العلي العظيم.

علاقة المعرفة بالبراهين العقلية

استعرضنا بعض الأدلة العامة التي تلزم بمعرفة الله تعالى، وبينا في أول البحث أنّ معرفته تعالى بادئ ذي بدء لابد أن تستند إلى الدليل العقلي، ولا يسوغ الاعتماد على الدليل النقلي في معرفة الله تعالى أو في إثبات وجوده بداية، أي أنّ القاعدة الأساسية للمعرفة لابد أن تتشكل من خلال براهين عقلية محكمة، وقد أوردنا بعض الأدلة الدالة على وجوده تعالى، وهي في غاية الإتقان والإحكام، تلزم الإنسان بمعرفة الله تعالى واليقين بوجوده.

معرفة صفات الذات

وبعد أن يتعرف الإنسان على الحق تعالى، لابد له أن يتعرف على صفاته إذ لا يكفي أن يتعرف عليه تعالى دون أن يعرف صفاته التي يتصف بها، وهذه مرحلة متممة للمرحلة الأولى، إذْ في الأولى نثبت وجود إله للكون أبدعه وأتقنه، وفي الثانية نتعرف على صفاته تعالى.

الحاجة للدليل النقلي لإثبات صفات الله تعالى

وفي هذه المرحلة نحتاج إلى الدليل النقلي، بمعنى أنّ العقل وحده لا يكفي للوصول إلى حقائق صفات الحق تعالى، ولابد من ضم الأدلة النقلية مع العقل، أي أن الإنسان يحتاج إلى هدايتين: هداية العقل وهداية الوحي، وقد جاءت الآيات القرآنية والروايات توضح لنا ذلك، وأنّ الحق تعالى يتصف بكذا ولا يتصف بكذا، أي أن هناك صفات ثابتة للذات وأخرى لا تتصف بها ذاته، وأنّ إثبات صفة للحق تعالى وتجريده عن أخرى لا يتم بالاستناد إلى قدرات العقل لكونه محدوداً، بل يحتاج العقل إلى إعانة الوحي، وهذا فرض لازم لا يستغني العقل بقدرته في الوصول إلى المعرفة الحقة لصفات الله تعالى، لذا نجد تخبطا كبيرا لأصحاب الأديان السماوية والفرق الإسلامية المختلفة، لأنّ بعضها اعتمدت على العقل وحده، وبعضها اعتمدت على النقل مع ما فيه من الغث والسمين، فلم تستطع أن تصل إلى المعرفة السليمة التي تنسجم مع ما جاء في آي القرآن الكريم.

ارتباط العقل بالنقل

وقبل أن نوضح المطلب نشير إلى أن النقل دلل على ضرورة ارتباط العقل بالنقل في هذه المرتبة الثانية، أي أن آي القرآن الكريم والروايات الواردة عن النبي ص والأئمة من أهل البيت عليهم السلام أوضحت هذا الأمر، مبينة أنه لا يستطيع أحد أن يتعرف على صفات الحق تعالى كما ينبغي إلاّ بالاستناد إلى ماء جاء به الوحي من آيات القرآن والأحاديث.

الصفات الإلهية

قسم العلماء الصفات بتقسيمات متعددة: منها انقسام الصفات التي يتصف بها الحق إلى صفات جمال وصفات جلال.

الصفات الجمالية والجلالية

ويقصد بالصفات الجمالية الصفات التي من الضروري أن تتصف ذات الحق تعالى بها، أما الصفات الجلالية فهي التي تتجرد الذات المقدسة عنها ضرورة.

العلم والقدرة والحياة صفات جمال، أي أنّ الله تعالى لابد أن يكون عالماً قادراً حياً، ولا يكفي أن يكون موجوداً دون أن يتصف بالعلم والقدرة والحياة.

وأما صفات الجلال فهي التي يتنزه عنها ولا يمكن أن يتصف بها، كالتركب في الذات المقدسة، أي أنّ ذاته لا يمكن أن تتركب من أجزاء، إذ أن ذلك يستدعي احتياج بعضها إلى بعضها الآخر، لأنّ كل مركب تحتاج أجزاؤه إلى بعضها الآخر.

لا تركب في صفاته

لا يمكن أن تكون الذات المقدسة تتصف بالعلم والقدرة والحياة وجميع صفات الكمال وهي مركبة.

التركب ينافي الكمال

التركب ينافي كمال الذات المتصفة بالغنى المطلق وعدم الاحتياج إلى الغير لأنّ غيره تعالى يحتاج إليه، أما هو فغني مطلق، تتنزه ذاته عن الاتصاف بالتركب وتتصف بالغنى المطلق والبساطة المطلقة، وصفات الجمال كلها ترجع إلى ذاته، وليس هناك تركب فيها، فعلمه لا يغاير الحياة، وحياته لا تغاير القدرة، وقدرته هي ذاته، وذاته وحياته وعلمه شيء واحد، أي أن جميع صفاته ترجع إلى ذاته تعالى.

الأحدية وبساطة الذات

أكد القرآن الكريم على نفي الصفات السلبية ورجوع الصفات الجمالية إلى الذات، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:١) تثبت الآية الوحدانية وتنفي التركب.

الغني المطلق

أما قوله تعالى: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص:٢) فيراد بالصمد الغني المطلق الذي يحتاج غيره إليه ولا يحتاج إلى غيره:

أولاً: كل شيء يحتاج إليه تعالى.

فُسر الصمد بالمصمود إليه، أي الذي يستند إليه غيره، فهو كالقيوم الذي تقوم الأشياء به، بمعنى أنه لا موجود عدا الله تعالى يستغني بذاته، وكل موجود غناه من الحق تعالى، وإذا سلبه الحق ما أعطاه عاد إلى العدم، فلا شيء غير الله تعالى مستغنٍ بذاته، وجميع ما لدى الرسل والأنبياء والأولياء من قدرات كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، لا يتصرف أحد منهم استقلالاً عنه سبحانه، حتى أكمل الخلق المصطفى صلى الله عليه وآله ما لديه من قدرات إنما هو من عند الله تعالى.

ثانياً: كل ما سواه فقير.

قال تعالى: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾(الإخلاص:٢) أي لا تركب في ذاته، بل هي بسيطة متصفة بالأحدية، ولا أجزاء لها كي يحتاج بعض أجزائها إلى بعضها الآخر، لأنّ المتجزئ المركب ممكن مخلوق والله تعالى غني يفتقر غيره إليه، بل أن الفقر هو حقيقة وجود غيره، لأنه ممكن، والممكن عين الفقر والحاجة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(فاطر:١٥) إنه تعالى يتصف بالغنى المطلق، فيحمد لأنه أعطى غيره، فهو محمود لغناه، وهو محمود لإنعامه وإعطائه وفضله.

ثالثاً: عدم وجود الكفء.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(الإخلاص:٤) تفصح الآية الكريمة أن غيره لا يكافئه، لأنه مخلوق أوجده الله تعالى فلا يضاده ولا يناده، فلا أحد من المخلوقات كفؤاً لله تعالى، لأنّ المكافئ نظير وند، لديه قدرات متساوية ومتعادلة مع من يكافئه، والحق تعالى ليس كذلك، لكونه غنى مطلق والموجودات الأخرى في وجودها واستمرارها تحتاج إلى الإنعام والإفاضة والإعطاء والمنحة والمنة، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾(النحل:٥٣).

التركب عين الاحتياج

هذا معنى دقيق بل في غاية الدقة فلا يكفي للمسلم أن يعترف بأنّ الله موجود ويراه مركباً، لأن ذلك ينافي التوحيد الخالص، لذا نرد على النصارى لقولهم إنّه ثالث ثلاثة أب وابن وروح قدس، والثلاثة واحد، إذ كيف تكون الثلاثة واحداً، مع أن ذلك يجعل المركب يحتاج بعضه إلى بعضه فيتنافى مع التوحيد الخالص الذي طرحه القرآن الكريم في ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(الإخلاص:٤) وفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَيْءٌ ﴾ (الشورى:١١)، إنه تعالى شيء موجود، ووجوده عين ذاته، وذاته مغايرة للأشياء الأخرى، ليس كمثله شيء، وليس له كفؤ ولا نظير.

لا تغاير بين صفات الذات

وقد أوضحت الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام هذه الحقيقة بجلاء.

قال إمامنا الصادق عليه السلام: ‹‹لم يزل الله جل وعز ربنا والعلم ذاته ولا معلوم››[1] أي أنه قبل القبل بلا قبل فلم يزل تعالى قبل الزمان لأنه أوجده، وقبل الخلق لأنه أوجدهم، وهو موجود عالم، والعلم ذاته، وليس مغايراً للذات المقدسة كي تكون ذاتاً وعلماً، فعلمه تعالى ‹‹ذاته ولا معلوم›› وسمعه ذاته إذ لا مسموع وبصره ذاته إذ لا مبصر، وقدرته ذاته إذ لا مقدور، ولا شيء من المخلوقات في مرتبة الذات كي تقع القدرة على المقدور، لأنّ الصفات عين الذات، وهي قبل الخلق.

عمق معرفة الله تعالى في روايات أهل البيت عليهم السلام

أوضح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه المعرفة في كلمات متعددة وخطب كثيرة في نهج البلاغة، ومن أراد أن ينهل المنهل العذب ويعي المعنى الدقيق للتوحيد فلا طريق له إلاّ بالأخذ بحكم العقل المستضيء بنور الوحي من آيات القرآن وروايات النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، ولا يستطيع أحد أن يصل إلى عمق هذه المعرفة دون أن يأخذ بما جاء عن أهل البيت عليهم السلام، قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: ‹‹وَكَمالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ، لِشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ اَنَّها غَيْرُ الْمَوْصوفِ، وَشَهادَةِ كُلِ مَوْصوفٍ اَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ››[2] أي أن من أراد أن يكون من المخلصين – الإخلاص هو الوصول إلى الدرجة العالية في الارتباط بالله تعالى، ويترتب عليه إخلاص الأعمال لله وحده – قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف:١١٠) أي لن يتحقق الإخلاص لأحد إلا أن يصل إلى العمق المعرفي للتوحيد، ولا يكفي أن يثبت وجود الله تعالى دون توحيده، إن معرفة التوحيد والإخلاص لا يتحققان إلاّ بالأخذ بالومضات النورانية والإيضاحات المستقاة من معدن الوحي وينابيع الرسالة، من

١- ميزان الحكمة للريشهري ج٣ ص ١٩٢٦.

٢ - نهج البلاغة (خطب الإمام علي (ع)) ج١ ص١٥.

المصطفى صلى الله عليه وآله و الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فـ«كَمالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ، لِشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ اَنَّها غَيْرُ الْمَوْصوفِ، وَشَهادَةِ كُلِ مَوْصوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ» أي أن التعدد معناه التركب، أما إذا رجعت الصفات إلى الذات، فليس ثمة تركب بل حقيقة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:١١)، إن صفاته ليست كغيره، لأنها عين ذاته، وهو معنى الأحدية، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:١)، إنّ العالم وهو ما عدا الله أوجده تعالى إبداعاً، وليس ولادة كما يلد الإنسان والحيوان، ولهذا المعنى ارتباط بالتوحيد الخالص، أكدت عليه الآيات والروايات، والمؤمن الموحد عليه أن يصل إلى عمق معرفي بأنّ الذات المقدسة واحدة لا تركب فيها ولا احتياج، تتصف بالغنى المطلق، وأن جميع صفات الكمال ترجع إلى الذات المقدسة، فلا تعدد في ذاته، بل هي عين صفاته الكمالية والجمالية، صفاته عين ذاته، وذاته عين صفاته، ليس له شبيه ولا كفؤ.

المطلب الثاني: دور الإيمان بالله في حياتنا

القسم الأول: الإيمان ركيزة الرقابة الذاتية

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾(الرعد). صدق الله العلي العظيم.

الإيمان بالله في حياتنا.

الإيمان بالله أهم ركيزة تقي الإنسان من الوقوع في براثن أمواج الحياة المتلاطمة التي تجلب الأمراض النفسية كالاكتئاب والقلق وانفصام الشخصية، كما أنّه يجعل الإنسان شجرة باسقة يانعة الثمار تُؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها، فهو كنز لا يفنى، وكلما اشتد بالإنسان لظى الحياة ووقع في مصيبة، فإنّ أفضل ما يتخلص به هو الرجوع إلى الله تعالى والإيمان به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾(الأعراف)، ولا نريد هنا استعراض تأثير الإيمان بالله على انتشال الإنسان من الأمراض النفسية لأنّ تلك جنبة ذات أهمية بالغة وتحتاج إلى بحث مستقل.

الرقابة الإيمانية في ذات الإنسان.

ما يهمنا أن نركز عليه هو الأثر الكبير للإيمان بالله تعالى في تكامل الإنسان في البُعد الفردي والاجتماعي:

الأول: البُعد الإيماني في تكامل الفرد.

من أهم أُسس التكامل الرقابة، فإنّ الإنسان الذي يستشعر الرقابة الدائمة والمستمرة يُنتج لأنه يعي أنّ أعماله مرصودة فيحاول جاداً أن يتلافى النقص والخطأ في أعماله، ويحقق له الإيمان بالله تعالى ذلك.

تفيد الروايات أنّ من أُشـرب في عالم المادة وتوغل في الارتباط بها وظن أنه لا يسـتطيع أن ينتشل نفسه من المعصية فإنّ بإمكانه أن يتشعر الإيمان بالله ويُنقذ نفسه، قال الإمام الحسين عليه السلام عندما جاءه شـخص، فقال له: أنا رجل عاصٍ ولا أصـبر عن المعصـية فعظني بموعظة، فأجابه عليه السلام بإجابات رائعة غاية في الأهمية: {... اطلب موضـعاً لا يراك الله وأذنب ما شـئت، ..}[1]، قد يتعجب الكثير من إجابة الإمام الحسـين عليه السلام، إذ ليس هناك مكان لا يرى الله تعالى العاصـي فيه، فإنّ الله تعالى يرى الإنسـان مهما استتر، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾(الحديد:٤)، ويعلم ما يصـدر منه، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾(الأنعام)، فلا مهرب للإنسـان من اطلاع الباري تعالى، فهو العالم بالخفايا وما اسـتتر في الضـمائر، وهذه الرقابة مُعطىً من معطيات الإيمان، التي ركّز عليها القرآن الكريم بإثارة جوانب لها أهمية خاصة في البعد التربوي والتكامل الذاتي للإنسان كفرد وفي البعد التربوي في تكامل الأسرة والمجتمع.

الثاني: البُعد الإيماني في التكامل الاجتماعي.

أما في البعد الاجتماعي فإنّ المحافظة على مجتمعٍ يعيش الطهارة والعفاف يرتبط بمبدأ الرقابة، لأنّ المجتمع الذي لا يرى الله تعالى حاضـراً وناظراً يصـدر منه كثير من السـوء، لكنه عندما يلتفت أنّ الحق تعالى عالم بما يصـدر منه ورقيب عليه ينزجر وينتهي عن ذلك، وقد تحول بعض العصاة إلى مؤمنٍ تقيٍ بسماعه لآية، ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾(الحديد:١٦)، عندما التفت أنّ الإيمان يستلزم الشعور برقابة الله تعالى التي تستلزم الخضوع لعظمته، والالتفات إلى سطوته وهيبته.

أهمية الرقابة المنطلقة من الإيمان بالله.

لا يسـتطيع الإنسـان أن يقي نفسـه من الأمراض الفاتكة، والحوادث المفجعة، وهبْ أنه استطاع ذلك فلا يمكنه دفع الموت عنه وإن طال عمره، فإنّ الموت بانتظاره، وبعد الموت لا يستطيع

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج٤ ص ٣٥٩.

أن يُخلصــه أحدٌ من عذاب الآخرة إلا ما شــاء الله، وكل هذا يرتبط بمبدأ الإيمان بالله تعالى، وهو ما أبانته آي القرآن المتعددة، التي تـــــذكِّر الإنســـان بمبدأ الإيمان بالله تعالى والارتباط به، ولا نريد اســـتعراض ذلك بكل أبعاده، بل نروم التركيز على الرقابة الذاتية المنطلقة من الإيمان بالله، فإنّ الإنسان إذا التفت إلى ذاته وجد أنّ ما صدر منه من سوء أو معصية يتنافى مع إيمانه بالله تعالى، قال النبي ﷺ:{ لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسـرق السـارق وهو مؤمن}[1]، والعكس من ذلك فما يصدر منه من خير يحتاج إلى ترسيخه ليرفع به مستوى الإيمان بالله تعالى.

تكامل الإنسان في الإيمان بالله.

ليس الإيمان بالله تعالى وقاية تقي الإنســـان عن الوقوع في الرذيلة واقتراف الجانحة والذنب فحســـب، بل يفيد الإنســـان في الرقي التكاملي فيلتفت إلى حيثيات أخرى في العمل تســـتدعي أن يجعله متكاملاً، وهذا ما أشـار إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾(يوسف)، فقد يُشـاب العمل بشـوائب، لكنّ الإيمان بالله تعالى يُلفت المؤمن إلى أنّ تكامله الإيماني يحتاج إلى تقويم بين الفينة والأخرى، وملاحظة كيفية انطباق مقتضـــيات الإيمان على عمله الذي صـدر منه، وهو ما ينعكس إيجابياً على الإنسـان في تربيته لنفسـه وأسـرته من ناحية، وفي تعامله مع جيرانه والمجتمع الذي يعيش معه من ناحية أخرى.

الإيمان عامل النهوض من العثرات.

إنّ مبدأ الإيمان بالله تعالى من خلال الرقابة، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾(الحديد: ٤) يفيدنا في تكاملنا المطرد والوقاية لأنفسـنا لئلا نقع في زلات يصـعب الخروج منها، بل حتى إذا وُقِعَ فيها أُتيح اجتيازها ببركة الإيمان بالله تعالى.

وقاية النفس والأسرة بالإيمان.

إذا التفت المؤمن إلى أنّ الله تعالى قادر على كل شـــيء، فهو قادر على تلافي زلاته وإقالة عثرته ورفعه عن السَقِطَة التي سقط فيها عندئذ يصبح إيمانه بلسماً، ولابد هنا من التركيز في الجانب التربوي على مسـألة التكامل الذاتي للإنسـان في نفسـه وأسـرته لأنه مسؤول عنهما، قال تعالى: ﴿

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص ١٩٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾(التحريم:٦)، أي أنّ الوقاية ليست للنفس فحسب، بل للأهل والأقربين.

الرقابة الذاتية للإيمان تعالج الشك

يقع بعض الناس في شطط فلا يدري كيف يتعامل مع أسرته؟ بل يسوده الشك في تعامله وإياهم، وهو مرض قاتل، لا يستطيع التخلص منه إلا بترسيخ الإيمان في وجود أولاده، مما يترتب عليه زوال الشك لدى الأب في علاقة الأبناء مع الآخرين من الأصدقاء، وفي صلاحهم وأخلاقهم، والإيمان رافع لهذه الشكوك.

حدود الرقابة تجاه الأبناء.

على الأب أن لا يجعل نفسه رقيباً على حركات الأبناء ليعيش الشك، فيصبح متوجهاً دائماً إلى ما يصدر منهم، فإنّ ذلك ينزع الثقة عن أنفسهم، ومع ذلك فلن يتعرف على ضمائرهم، لذا، عليه إعطاء شيء من الحرية لأبنائه، ليصبح عامل الاطمئنان بالارتباط بالحق تعالى قوياً في ذواتهم، وينعكس إيجاباً على سلوكهم وعلاقاتهم.

حدود رقابة الوالدين.

على الأب والأم أن يغرسا مبادئ الإيمان والرقابة بالنحو المعتدل لا بما يثير الريبة والشك، فإنّ ذلك بدل أن يصبح عاملاً مساعداً في تكامل الأولاد يتحول معولاً هداماً، وإذا رأى الابن أباه يشك فيه، فلن ينطلق بثقةٍ في نفسه ليتكامل، بل يعيش التخلف ويرجع إلى الوراء متقهقراً.

إنّ من أهم المعطيات في التكامل الإيمان، الذي يذكّر برقابة الله تعالى، ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾(غافر)، ويتركز هذا في أنفسنا وأولادنا من خلال التذكير المتكرر بأنّ الله تعالى رقيب، يرصد كل حركة، وتأييده بحكمة أو قصة ترسخ الفكرة، وهذا المُعطى القيمي الإيماني عندما يترسخ يصل الإنسان إلى الخير كله، ولهذا المعنى أهمية لمن يريد الزواج، فقد ركزت الروايات على هذا المُعطى الإيماني والأخلاقي، في اختيار ذات الدين باعتبارها الخير كله، بينما فقد الدين يجعل الإنسان بمنأى عن الخير، وقُربٍ من السوء، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الرعد)، أي أنّ العاقبة للمؤمن، الذي صـــدر منه الخير والعمل الصالح، وفق الموازين الشرعية.

القسم الثاني: الإيمان عقيدة وسلوك

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾(البقرة). صدق الله العلي العظيم.

الإيمان النظري.

هو الاعتقاد بوجود إله للكون يُديره ويُدبره، هو الخالق الرازق، المحيي المميت الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

الإيمان العملي.

هو مرحلة أخرى تترتب على اعتقاد الإنســـان بالله تعالى نظرياً، بقيام المؤمن بما أوجبه الله تعالى عليه من تكاليف، لرؤية أنّ خلق الكون لهدف وغاية هي إيصال الإنسان إلى السعادة، التي لا تتأتى بنحو أكمل إلاّ بمســـاره في طريق الله تعالى، وقد اســـتعرض القرآن الكريم هذه الحيثية، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾(المؤمنون).

المُعطى الإيماني للولاية.

لقد أوجد الله تعالى الإنســان في هذا العالم لغايةٍ، وهو يعلم أنه سـيغادر هذا الكون المادي، ويصـير إلى الله تعالى ليس وحده وإنما الكون بما فيه سـيرجع إليه تعالى، ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾(الشـورى)، ويعلم الباري تعالى ما يوصـل الإنسـان إلى السـعادة، وما يوصـله إلى الشـقاء، ولن تتحقق سـعادته إلاّ عبْر ما يُريده الله تعالى من

خلال أداء التكاليف، ومن سار في طريق الله تعالى وصل إلى السعادة وإنْ ضلّ الطريق وتخطى ما يريده الله تعالى عاش الشقاء في الحياة الدنيا والعذاب في الآخرة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾(البقرة). يعتقد المؤمن بولاية الله تعالى عليه ويعمل ما يريده تعالى، إذ الإيمان عقيدة في دخيلة الإنسان وبرامج عمل تترتب على ضوء المُعطى الإيماني.

الإيمان الفطري.

إنّ أكثر الناس يؤمن فطرياً، وقد لا تجد أحداً لا يؤمن بالله بفطرته، غير أنّ بعض الناس يخالف فطرته، ويدعي أنّ الكون ليس له خالق، وإن آمن به في ذاته، ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا ﴾(النمل: ١٤)، والإيمان الفطري بالله تعالى ناشئ من إدراك أنّ الموجود له علة، إذْ لا يمكن أن يكون الشيء وُجِدَ من دون موجد، فلا إبداع دون مبدع، وهذا يلازم كل إنسان، غير أنّ ما تُرَكز عليه آي القرآن الكريم والروايات ليس هذا المعنى من الإيمان، إذ أنه حاصل لكل أحد.

آثار الإيمان العملي.

إنّ الإيمان العملي المترتب على الإيمان النظري يبرمج الإنسان في الصراط المستقيم، وهذا ما أكده المُشرع بقراءة الفاتحة في الصلاة، ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾(الفاتحة)، هناك مغضوب عليه، وهناك ضال لم يهتدِ إلى الصراط المستقيم، وهناك من سار على جادة الهداية وشكر الخالق، وقد عبّر العلماء عن ذلك بقاعدة عقلية، ذُكرت في بحوثهم العقدية، وخلاصتها (أنّ العقل يحكم بشكر المنعم) والإيمان العملي نتيجة لوجوب شكر المنعم، أي أنّ المؤمن هو من يشكر الله تعالى، ويسير وفق ما يريده، ويعمل بما أوجبه الله تعالى عليه.

التطبيق العملي لقاعدة شكر المنعم.

إنّ كثيراً من الأشياء المستفاد منها في حياتنا العملية نعلم أنّ لها موجد، كالكهرباء والحاسب الآلي وغيرهما، لأنّها تحتوي على إتقان ودقة ولها آثار مختلفة حققت تقدماً للإنسان، ولا يمكن أن تكون وُجدت صدفة بل بجهود كبيرة للعلماء، غير أنّ من يلتفت إلى شكر المبدعين، الذين أسهموا في إيجادها قلة من الناس مع أنّ هؤلاء المبدعين يستحقون الثناء والتقدير من لدن الجميع، ويحكم العقل بذلك، والثناء والتقدير للمبدعين هو ما يسميه العلماء بشكر المنعم، وهو جليٌ في بعض مصاديقه كالوالدين غير أنّ كل شيء يستفيده الإنسان في حياته عليه أن يُثني على من أسهم فيه، وأعظم استفادة للإنسان تتحقق من كل ما في الكون، الذي سخره الله تعالى له، فالله هو المنعم الحقيقي، ولا يقاس إنعامه بإنعام مخلوق من المخلوقات، فالوالدان وما يُقدِّمانه للولد وإن استحقا الشكر الجزيل والثناء الدائم إلا أنّ الشكر والثناء لله تعالى أعظم وأكبر، لأنه الموجد من العدم والموصل للكمال والخير.

أثر المعرفة العملية.

تستلزم المعرفة العملية من الإنسان أن يعمل لله تعالى لحكومة عقله بوجوب شكر المنعم والثناء على المبدع العظيم الذي أوجد الكون. والاعتقاد بأنّ الله تعالى خالق للكون دون أن يترتب عليه أثرٌ في مقام العمل جحود وكفران إزاء المنعم تعالى.

المعرفة العملية في القرآن.

أبان القرآن المعطى العملي للإنسان كي يسير في طريق الهداية، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦ ﴾(البقرة).

حدود المعرفة العملية في القرآن.

تحدثت الآية عن برامج عمل تشمل البشرية جمعاء، ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾، أي أنّ الإيمان برنامج يسير فيه النبي ﷺ والأنبياء والرسل وجميع الصالحين، الذين صدقوا بما جاء به النبي ﷺ، ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾، ولا فرق بين ما جاء به الرسل من برامج عمل لتحقيق السعادة للإنسان وإيصاله إلى الكمال.

برامج موصلة إلى السعادة.

في الحياة طرق متعددة وبرامج عمل مختلفة، بيد أنّ أفضلها ما يؤدي إلى السعادة ويُوصل إلى الخير، وهو طريق الباري تعالى، ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾(الذاريات)، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ ﴾، بيان أنّ السمع والطاعة إذعان في مقام العمل، أما قوله تعالى: ﴿ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾، فهو إيمان بعالم الآخرة والمصير إليه تعالى، فلا يستطيع أحد أن يهرب منه، إذ الإنسان قد يمنع المرض عن نفسه، لكنه لا يستطيع أن يمنع الهرم والشيخوخة والموت.

نتائج الإيمان العملي.

من لا يعيش الإيمان العملي يعيش الحيرة، التي توصله إلى الأمراض النفسية، أما من عاشه فيعيش الطمأنينة والانشراح لعلمه أنّ مصيره إلى الخير، وكلما طال به العمر فهو في طاعة الله تعالى، وإذا حصل ما لا ترتاح إليه نفسه استطاع أن يتغلب عليه باللجوء إلى الله تعالى، فهو يعلم أنّ ما يصيبه من خير أو شر بتقدير وقضاء من الله تعالى امتحاناً له.

الاختبار الإلهي ارتقاء نحو الكمال.

يُعرِّض الله تعالى الإنسان للاختبارات ليرفع من مستواه، ﴿ الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ ﴾(العنكبوت)، هذه الاختبارات تُوصل إلى الله تعالى، ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ

غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ثم بيَّن الباري تعالى أنّ التكاليف حسب قدرة الإنسان وسعته، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ – من الخير– ﴿ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ – من السوء والجريرة والذنوب، أما سؤال العباد عدم المؤاخذة– ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ ، فهو إظهار للفقر والعجز وطلب باستمرار الرحمة والخير منه تعالى، وختمت الآية الطلب أن لا يُكلفنا الله تعالى ما لا طاقة لنا به، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾ .

الصراع بين الحق والباطل.

يُؤتى بالتكاليف والأعمال كبرامج عمل في حالة اليسر –﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾، والدعاء بالنصر بيان للصراع بين الحق والباطل، وأنّ هناك من يُناهض الإيمان ويريد وَأْدَه تحت ذرائع لا يرضى بها الله تعالى، والمؤمن في صراع مع نفسه ومع الآخرين، إذ البرنامج الإلهي يختلف عن البرامج الأخرى، والإلهي المكلف به مسؤول بمقتضى إيمانه، أن يسير في طريق الرسل والأنبياء والصالحين الذين قدَّموا أنفسهم في سبيل الله تعالى لإسعاد الإنسانية، أما من لا يسير في هذا الطريق ولا يؤمن بذلك، فمصيره مع الذين كفروا.

القسم الثالث: الثمار العملية للإيمان على الفرد.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾(يونس). صدق الله العلي العظيم.

بيّنا بعض فوائد الإيمان فيما تقدَّم، وترتُب ثمار متعددة عليه:

الأولى: الرقابة الذاتية.

وهي من أهم ثمار الإيمان، فإنّ المؤمن يراقب الله دائماً وأبداً ويراه حاضـــراً وناظراً على أعماله.

الثانية: الاستقرار والثبات.

من ثمار الإيمان الاستقرار والثبات، فالمؤمن ثابت الجنان، مطمئن القلب، لا يتزلزل، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، والثبات والاستقرار ينشئان من معرفته بالله تعالى التي أوضـحناها سـلفاً، فإنّ المعرفة العملية لله تعالى تجعل المؤمن مطمئن النفس لأنه يرى الله تعالى حكيماً في أفعاله، رحيماً بعباده، عادلاً كريماً في حسابه.

الثالثة: الكدح والتوكل على الله.

يترتب على الإيمان أن يكون المؤمن كادحاً في عمله؛ متوكلاً على الله تعالى، فالعمل الدؤوب والكدح الدائم والتوكل على الله تعالى يحقق الخير والصلاح للمؤمن، قال المصطفى ﷺ: { عجبا للمؤمن إن الله عز وجل لا يقضي له قضاء إلا كان له خيرا }[1]، أي إنْ أصابته البأساء والضراء كانت خيراً له، وإنْ أصابه الرخاء والسعة عاد بالخير إليه، إذن من ثمار الإيمان الاستقرار والثبات والعمل الدائم والتوكل على الله تعالى.

القوة في التوكل على الله.

المؤمن قوي، بل هو أقوى الناس بتوكله على الله تعالى، وقد أشـارت الروايات إلى أنّ من يتوكل على الله أقوى الناس، قال النبي ﷺ: {من سـره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله}[2].

التوكل الخاطئ.

---

[1]- بحار الأنوار للمجلسي ج٦٧ ص١٨٤.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج٤ ص٣٦٥٩.

هناك من لا يعمل، ويدّعي التوكل على الله تعالى، والمؤمن ليس كذلك، بل يأخذ بالأسباب ويكل الأمور إلى الله تعالى، وما يتحقق على ضوء الإيمان يرجع إلى صلاح الإنسان وخيره، إما في عالم الدنيا وإما في عالم الآخرة، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام:{أصل قوة القلب التوكل على الله تعالى}.

الرابعة: الصبر والاستقامة.

من ثمار الإيمان الصبر والاستقامة، فالمؤمن صبور في أدائه للتكاليف وفي تركه للمعاصي وفي مجابهة الحوادث والملمات التي تعتريه في الحياة الدنيا، إذِ الإنسان ليس بمنأى عن الحوادث، وبعضها يصيبه من حيث لا يحتسب في ماله وولده وصديقه وأحب الناس إليه، ويتألم غير المؤمن بذلك، أما المؤمن فيعلم أنّ قوانين الكون تجري بدقة وحكمة متناهيتين وما يحدث في الكون لصالح المؤمن المتوكل على الله تعالى، والعاقبة للمتقين، فيتحمل المؤمن بصبره واستقامته المكاره، لأنّ الله تعالى جعل عالم المادة امتحاناً له، ولا يمكن لأحد ألاّ يُمتحن في هذا العالم.

درجات الصبر.

تبين الروايات أنّ الامتحان الذي يُصاب به الإنسان على قدر إيمانه وكماله، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للأنبياء والأولياء، {قد اختبرهم الله بالمخمصة}[1]، المخمصة شدة الجوع، {وابتلاهم بالمجهدة}، أي بالجهاد في سبيل الله ومجابهة الصعاب في الحياة الدنيا، {وامتحنهم بالمخاوف}، فيخرجون من خوف ويدخلون في آخر، ولولا علمهم بأنّ الله تعالى يحيط بهم ويدرك ما يُلم بهم من مجهدة ومصائب لصعب عليهم تحمل ذلك، كما أنّ المؤمن بتوكله على الله تعالى يصبح طاهراً نقياً، يتحمل ما يُصيبه من ألم وأذى وهو في راحة وهدوء، فمصير الحياة الدنيا لديه واضح، العاقبة والفلاح للمتقين، بل أنّ من يُؤمن بالله تعالى وبمنهج المصطفى صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام يتفائل ــ كلما تقدَّم في عمله وصبر ــ لأنّ الظفر والمآل سيكون له، فالقيادة الربانية لإمامنا المهدي عليه السلام ستحقق للإنسانية الخير والرفاه والعدالة وستنتشل الإنسانية من المآسي والظلم والطغيان.

الصبر على البلاء.

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج٤ ص٢٨٥٢، قال الامام علي عليه السلام:في صفة الأنبياء عليهم السلام والأولياء -: (قد اختبرهم الله بالمخمصة ، وابتلاهم بالمجهدة ، وامتحنهم بالمخاوف).

الآلام التي تصيب المؤمن في سبيل الله تعالى ترفع درجته ويترتب عليها الأجر العظيم، فلا يحزن، وإنْ حزن سُرعَان ما ينجلي عنه، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾(آل عمران)، ومن سمات المؤمن الكدح والتوكل على الله تعالى، ثم الظفر والعاقبة الطيبة، فالموت وهو أعظم مصيبة ليس نهاية مطاف، بل بداية خيرٍ، أما من لا يُؤمن فيعيش الأَلم والعذاب والقلق الدائم.

الموت تكاملٌ للإنسان.

إنّ الموت لغير المؤمن كآبة وحزن، بينما يلاقيه المؤمن مستبشراً، لأنه يرى الدنيا دار امتحان، فإذا اجتازها فقد فاز، وأنّ الله تعالى أوجده ونقله من عَالم إلى عَالم، ليصل إلى مجاورته تعالى في جنات الخلود، بل أنّ الموت قمة الرقي للمؤمن، فلا شيء يوجب له الألم، إذْ هو في رحلة نجاحٍ وفي مسار رُقيٍ، قال الشاعر الحكيم مولوي في بيان كيفية رؤية المؤمن لهذه التنقلات من عوالم الغيب إلى عالم المادة ثم الرجوع إلى عالم الغيب، بأنّ ذلك كالبذرة التي نودعها في الأرض، ثم نأخذ ثمرتها لتُطحن ثم تخبز ثم تُؤكل فيتولد منها الإنسان الذي يعمر الأرض ويحقق الكمال:

أودعوا في الأرض حبة حصدوا منها سنابل

طحنوها في المطاحن خبزوا منها المآكل

كرروا الطحن بأسنان حدادٍ وفواصل

حصلت منها ثمار الروح بل كل الفضائل

اللذة في الموت عند المؤمن.

إنّ أشد الآلام وأعظم المآسي التي يلاقيها من لا يؤمن بالله تعالى في الموت، أما المؤمن فيستلذه في سبيل الله، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام : { ووالله، لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه}[1]، وذلك ليقينه وثباته القلبي الناشئ من الإيمان والمعرفة العملية.

---

[1]- نهج البلاغة-خطب الإمام علي عليه السلام- ج١ ص٤١.

القسم الرابع: ملامح الجانب العملي للإيمان.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾(الحجرات:١٤). صدق الله العلي العظيم.

الفرق بين الإيمان وبين الإسلام.

استعرضنا بعض الثمرات المترتبة على الإيمان وأوضحنا أنّه عقيدة وعمل، وأنّ الجانب العملي للإيمان أُولي عناية كبيرة في الروايات الواردة عن النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، والآية الآنفة الذكر تبين الفارق الأساس بين الإيمان والإسلام، وقد أُوضِح ذلك في الروايات، قال إمامنا الصادق عليه السلام: { دين الله اسمه الإسلام، وهو دين الله قبل أن تكونوا حيث كنتم وبعد أن تكونوا، فمن أقر بدين الله فهو مسلم ومن عمل بما أمر الله عز وجل فهو مؤمن }[1]، يُوضح الإمام أنّ الإسلام يساوق الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي الإيمان بوجود خالق للكون مع الإيمان برسالة النبي ﷺ، (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله).

الإيمان عقيدة تنطلق من القلب.

ثم قال عليه السلام: {ومن عمل بما أمر الله عز وجل فهو مؤمن}، أي أنّ الإيمان يتمركز على العمل، والمؤمن عامل بما افترضه الله عليه، فالجانب العملي في شخصية المؤمن له عناية كبيرة، قال النبي ﷺ: {ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن الإيمان ما خُلص في القلب وصدّقه الأعمال}[2]، قوله ﷺ: {ليس بالتحلي}، أي لا يكفي أن يقوم الإنسان بأعمال المؤمنين متحلياً بها دون أن تكون منبثقة من عقيدة خالصة في قلبه، {ولا بالتمني}، فالتمني وحده لا يُصيّر الإنسان مؤمناً، إذ الإيمان ما خلص في القلب مستقراً، وثبت في الجِنَان، وصدَّق ذلك الأعمال الصادرة منه، والمؤمن لا يصدر منه السوء، بل هو مصدر الخير، قال المصطفى ﷺ: {الإيمان نصفان، فنصف في الصبر ونصف في الشكر}[3].

آثار الإيمان عملياً.

وهنا جنبتان عمليتان يرتبهما المصطفى ﷺ على الإيمان:

١- ميزان الحكمة للريشهري ج١ص١٩٠.

٢- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩١.

٣- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩١.

الأولى: الصبر.

قد أشرنا سابقاً إلى الصبر لتعرض الإنسان لنكبات الحياة الدنيا مع التكاليف الإلهية ولا يستطيع أن يصمد أمام الحوادث إلاّ بالصبر، فهو نصف الإيمان، والمؤمن له صمود ومقاومة لتحمل المشاق إلى آخر رمق من الحياة.

الثانية: الشكر.

النصف الثاني للإيمان هو الشكر، وهذه إلفاتة جميلة منه ص، فإنّ المؤمن يرى جميع ما يحدث له يستحق الثناء والشكر لله تعالى، فهو شكور، رطب لسانه بذكره تعالى، وقد ورد في الروايات أنّ أول من يدخل الجنة الحامدون، الشاكرون، أي أنّ الذي يسبق الآخرين بدخول الجنة هو من كان في حالة من رؤية الكمال لله تعالى وأنّ ما يتحقق في الدنيا يرجع في مآله لصالح الإنسان، {ونصف في الشكر}، أما غير المؤمن، الذي لم يستقر الإيمان في قلبه، فهو في جزع وسأم، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: {الإيمان صبر في البلاء، وشكر في الرخاء}[1]، أي أنّ المؤمن في المصيبة في أعلى درجات الحزم والعزم، {صبر في البلاء}، أما غير المؤمن فالبلايا تخرجه عن طوره.

إنّ المؤمن أعظم من الجبل، باعتبار أنّ الجبل يأخذ منه المعول، والمؤمن الصابر لا يؤخذ من إيمانه، بل يزاد ثباتاً ورسوخاً، {صبر في البلاء وشكر في الرخاء}.

خصال إيمانية.

قال النبي عليه السلام: {ثلاث من الإيمان: الإنفاق في الإقتار وبذل السلام للعالم والإنصاف من نفسك}[2]، تبين الرواية ثلاث خصال منبثقة من الإيمان، وهي جوانب عملية جد هامة:

الأولى: الإنفاق في الإقتار.

قد ينفق الإنسان في الرخاء عند توافر المال لديه، غير أنّ المؤمن ينفق في إقتاره وفاقته، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾(الإنسان)، قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩١.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٢.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾(الإنسان:٨)، ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ لا يراد من الحب هنا حبهم لله، فهو أمر ثابت لهم لا ينفك عن شخصياتهم، وإنما يراد به حب الطعام، وهو معنىً كنائي، بمعنى حاجتهم إليه إلا أنهم يُقدِّمون الآخرين إيثاراً، وهذه درجة كمال نفسي.

الثانية: بذل السلام.

قال ﷺ:{وبذل السلام للعالم}، من سمات المؤمن أنه يسهم في السلم الاجتماعي، ليس للمسلمين فحسب، بل للعالم، فينشر المحبة والوئام بين الناس بغض النظر عن انتمائهم الديني، ذلك لأنّه يجسد الكمال الإلهي من خلال اتصافه بصفات الحق تعالى، ومن أسمائه سبحانه السلام، وهو مظهر اللطف والمحبة والسلامة لعباده، وهكذا المؤمن يريد الخير وينشر السلام في ربوع العالم، وقد يرى بعضٌ أنّ معنى السلام يراد به إفشاء السلام، وهو من سمات المؤمن.

معنى السلام.

فيتوهم أنّ {السلام} يراد به {السلام عليكم}، أي، البدء بالسلام على الغير، غير أنّ النص حتى إذا حُمِل على هذا المعنى فله لازم، إذ التسليم على الغير دعاء له بالسلامة، والدعاء إذا لم يُصدقه العمل لا ينبأ عن إخلاص الداعي، وإنما عن نفاقه، فحمل معنى الحديث على بذل السلام للعالم إما بمعنى الإسهام في إرساء دعائم السلام أو سبق الآخرين بالتسليم عليهم داعياً الله تعالى أن يسلمهم ويحفظهم، والدعاء إذا لم يقترن بالعمل قلَّ أثره.

الثالثة: الإنصاف من النفس.

قال ﷺ: {والإنصاف من نفسك}، تؤكد الروايات على الإنصاف من النفس، خصوصاً في المراء والجدل مع الآخر، عندما تحاول التغلب عليه إذا كانت الظروف مواتية لك وضده، وأنّ الفضيلة أن تكون منصفاً، والنبي ﷺ يبين أنّ من صفات المؤمن؛ الإنصاف من النفس، وقال

ﷺ : {لا يُؤمن عبد حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير}[1]، ولا يقصر الحديث هنا على حب المسلمين أو المؤمنين، بل يتمنى الخير والكمال لكل إنسان، فصفة المؤمن هي ارتباطه بالحق، يرى عدله وعظمته، ويريد الخير لنفسه والآخرين.

حقيقة الإيمان.

قال النبي ﷺ : {ثلاث خصال من كن فيه استكمل خصال الإيمان}[2]، يختزل ﷺ خصال الإيمان في ثلاث:

الأولى: الرضا من غير إثم.

قال ﷺ:{إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل}، خلافاً لبعض الناس، والرضا هنا حالة من الانشراح والسرور والطمأنينة، وبعض الناس إذا وصل إلى هذه الحالة لا يلتفت إلى قدرة الله تعالى عليه وإحاطته به، فيتجاوز القانون الإلهي ليقع في الإثم.

الثانية: الغضب للحق.

قال ﷺ:{وإذا غضب لم يخرجه الغضب من الحق}، وهذه سِمَة أُخرى، فكما أنّ بعض الناس يُخرجه الرضا إلى الإثم، فإنّ بعضهم يُؤثر فيه الغضب ويخرجه من القانون، فلا يعمل بالحق، ويريد الانتقام من الغير، وهذا ميزان من موازين الإيمان، فالمؤمن إذا غضب لا يتجاوز القانون، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾(آل عمران)، فهذه خصال المؤمنين المحسنين.

الثالثة: العفو عند المقدرة.

قال ﷺ: {وإذا قَدر لم يتعاطَ ما ليس له}، من يُظلم ويُساء إليه ثم تتحول الظروف لصالحه فلن يتعاطى ما ليس له، وهذا ميزان آخر من موازين شخصية المؤمن، فإذا قدر على من ظلمه لم يتجاوز حقه، بل، قد يحقق ما هو أكمل وأعظم بالعفو عند المقدرة، والطريق الآخر لغير المؤمن، فإنه إذا قدِر تمادى في الظلم والطغيان والتعدي على الآخر.

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٢.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٦.

خصال تُكمل الإيمان.

قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: {ثلاث من كن فيه كمل إيمانه، العقل والحلم والعلم}[1]، بينت الرواية ثلاثاً من خصال الإيمان نشرحها على التوالي:

الأولى: العقل.

من يسير في ضوء ميزان العقل يدعوه إلى الرشد والخير، وهذه من الخصال العملية التي أُكّد عليها في الروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام، فلا يُعرف المؤمن بمجرد التحلي ولا التمني، وإنما يُعرف من خلال توافر هذه الخصال في شخصيته.

الثانية: الحلم.

قال عليه السلام: {والحلم}، من الطبيعي أن يغضب الإنسان، إلاّ أنّ عليه أن يسيطر على غضبه بحلمه.

الثالثة: العلم.

قال عليه السلام: {والعلم}، يتعلم المؤمن ما يفيده في كل أمر من الأمور، ليصل إلى أعلى درجات الهدى والسؤدد، وقد أشار الإمام عليه السلام في بعض كلمه أنّ كل خطوة يخطوها المرء تحتاج إلى علم، ومن سمات المؤمن التفكير في عواقب الأمور، فكل عمل يصدر منه يتعرف على الجوانب والحيثيات المحيطة به، فإذا عَلِم عمل، والإمام عليه السلام يجعل العلم خصلةً من الخصال التي تُدلل على إيمان المؤمن، فهو يأخذ بالعلم لتكمل نفسه به، فيصل إلى الرقي والقرب من الله تعالى.

القسم الخامس: خصائص الإيمان

قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾(الحجرات:١٤) صدق الله العلي العظيم.

الإيمان العملي في نصوص أهل البيت عليهم السلام

١- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٦.

أولت الروايات الواردة عن النبي ﷺ وأهل البيت ع الإيمان العملي مزيداً من العناية للتأكيد على الجنبة العملية في الإيمان.

خصائص الإيمان

فبينت سمات وخصائصاً للمؤمن، إذا توافرت ثبت إيمان المؤمن وإن انتفت أو توافرت أضدادها خرج الإيمان من قلبه.

الأولى: الورع

وهو تجنب الشبهات لئلا يقع في الحرام فيحتاط لنفسه ولا يقترب من الشبهات لأنّها طريق يقرب إلى الحرام، وقد ورد عن النبي ﷺ في فضائل أعمال شهر رمضان، عندما سأله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن أفضل الأعمال قال ﷺ: ((الورع عن محارم الله))[1]، لأنّ الكثير من الأعمال لها تأثيرها الكبير غير أنّ أعظم تأثيرٍ هو في مراقبة الله تعالى المعبر عنه بالورع وبه يُقبل العمل وإنْ كان قليلاً بل يكون أثره كبيراً، فقد جاءت روايات في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٢٧) توضح هذا المعنى، وتقول: وكيف يقلُ عمل يُتقبل؟ أي أنّ عمل المؤمن وإنْ كان قليلاً لكنه مبارك وله آثار طيبة، لورعه وبعده عن المعاصي، قال الإمام الصادق عليه السلام عندما سُئل عن ما يثبت الإيمان: ((الذي يثبته فيه الورع، والذي يخرجه منه الطمع))[2] فالطمع يجر الإنسان ويوقعه في الشبهات المؤدية إلى الحرام.

الثانية: مطابقة الأقوال للأفعال.

تتفق أقوال المؤمن مع أفعاله، وأفعاله مع أقواله، وعكسه المنافق إذْ يضمر خلاف ما يبطن، ويبطن خلاف ما يُظهر، بينما المؤمن تتفق سريرته مع علانيته، قال الصادق عليه السلام: ((من كان فعله لقوله موافقاً تثبت له الشهادة في النجاة)) أي أنّ من كانت الأفعال الصادرة عنه تتفق مع أقواله فاعلم بنجاته ورسوخ الإيمان في ذاته، ثم قال عليه السلام: ((وإنْ لم يكن فعله لقوله موافقاً فإنما ذلك مستودع))[3] أي أنّ الإيمان لا يثبت في قلبه وإنما عارية، وقد استعرض العلماء في الأبحاث الأخلاقية انقسام الإيمان

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج٢ ص١١١٧.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٠.

[3]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٠.

إلى مستقر ومستودع، والمستودع عارية لدى الإنسان، يفعل به أفعال المؤمنين لكنه لا يستقر في القلب، بل يخرج المرء من الدنيا غير مؤمن، والإمام عليه السلام يبين أنّ اختلاف الفعل مع القول واختلاف القول مع الفعل يجعل الإيمان عارية أشبه بالوديعة التي يعلم بتحولها عنه.

علامات استقرار الإيمان

أبان أمير المؤمنين عليه السلام علامات الإيمان المستقر في قلب المؤمن:

الأولى: الالتزام بمنهج أهل البيت عليهم السلام.

التزام الجادة الواضحة وهي طريق أهل البيت عليهم السلام الذي أشار إليه حديث الثقلين ((إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض))[1]، فالسير على طريق أهل البيت عليهم السلام يجعل الإيمان مستقراً.

الثانية عدم الميل إلى الطرق الأخرى.

إنّ لزوم الجادة الواضحة له علامة هي أن لا يخرج المؤمن إلى عوج ولا يكون له ميل إلى سبل أخرى تختلف عن منهج أهل البيت عليهم السلام فلا يؤثر عليه شيء لإزالته عن منهجهم عليهم السلام ومعنى ذلك أن يسير على وفق ما يريده الأئمة من أهل البيت عليهم السلام قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لكميل، ((يا كميل إنما تستحق أن تكون مستقراً)) أي في إيمانك ((إذا لزمت الجادة الواضحة التي لا تخرجك إلى عوج ولا تزيلك عن منهج ما حملناك عليه و ما هديناك إليه))[2].

الثالثة: ممارسة الأعمال الخيرية.

يدعي بعض الناس أنّ الإيمان في القلب فقط ولا دخل له بالعمل، المهم أنّ القلب يؤمن بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذا إيمان نظري يجعل الإنسان غير مستقر في إيمانه، وقد لا يختم له بالحسنى، ويزول ذلك الإيمان النظري عند سكرات الموت، فيموت مشركاً أو كافراً بالله تعالى، والإمام الصادق عليه السلام يبين أهمية العمل عندما يصدر من المؤمن، وأنّ الأعمال الصادرة من المؤمن إذا اتفقت مع ما يريده الله تعالى والرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثبت الإيمان، قال عليه السلام: ((لا يثبت الإيمان إلاّ بالعمل)) أي أنّ الإيمان النظري يبقى متزلزلاً قد يزول، والذي يجعله مستقراً الأعمال الخيرة كالصدقة، والصلاة، والصوم، والزكاة،

---

[1]- وسائل الشيعة للحر العاملي ج٢٧ ص٣٤.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٠.

والخمس وما أوجبه الشـــارع، ((لا يثبت الإيمان إلاّ بالعمل)). ثم قال عليه السلام: ((والعمل منه))[1] أي من الإيمان فهو جزء لا ينفصـــل عنه، أي أن الإيمان ليس بالعلم وحده بل أنّ المؤمن يحس بطعم الإيمان ويتذوق ذلك، ويُعرف بالصدق في أقواله، والأعمال الصالحة والإتباع للجادة الواضحة.

كيف ندرك طعم الإيمان في ذواتنا

إنّ تذوق طعم الإيمان وإدراك ذلك في الذات له علامات إذا تحققت أُدرك طعم الإيمان

إرساء عقيدة التوحيد

قال المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم: ((ثلاث من فعلهن فقد طُعم طَعم الإيمان)) الأولى ((من عبد الله وحده وأنه لا إله إلاّ الله)) أي عَلِم أنّ الكون يرتبط بالإله الحق وحده لا شـريك له، فإرسـاء عقيدة التوحيد من أهم المبادئ التي يتكأ عليها الإيمان.

موافقة الأفعال لعقيدة التوحيد

ومع التوحيد العمل الصـالح والأفعال التي تصـدق الإيمان، قال ص: ((وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسـه)) أي يعلم أنّ المؤثر في الوجود هو الله وحده لا شـريك له ويجعل أعماله خالصـة لوجهه الكريم، ثم ينفق في ســـبيل الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾(الأنعام) إلاّ أنّ ذلك لا يكفي بل عليه أن لا يجد حرجاً في إعطاء ما وجب عليه من مال.

ليس هذا فحســب بل ((وزكى نفســه))[2] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾(الأعلى) فمنهاجه في العمل الطهر لنفسه والارتقاء بها في قرب الله تعالى.

ترك الكذب

الكذب داء يُفســـد العمل الصـــالح ويميث الإيمان قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام ((لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب هزله وجده))[3] من علامات المؤمن الصـدق فلا يكذب هازلاً ولا جادّاً،

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٠.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠١.

[3]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠١.

نعم؛ قد يحتاج إلى التورية كما فعل الخليل عليه السلام ﴿ قَالُوٓاْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾(الأنبياء:٥٩) ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾(الأنبياء:٦٣) علّق إبراهيم عليه السلام فعل كبيرهم على نطقهم أي على ما لم يصدر، لأنهم لا ينطقون وهي إجابة إسكاتية، فلم يكذب – حاشاه عليه السلام – وهو أبو الأنبياء أن يصدر منه كذب، ولكنها تورية لإسكات الخصم بتعليق الفعل على أمرٍ لم يتحقق ومعنى ذلك أنّ الفعل منتفٍ ﴿ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾، الكبير هو الذي كسّر الأصنام إنْ كانوا ينطقون، والإجابة بالنفي، ولابد للمؤمن أن يلحظ كلامه ليرى اتفاقه مع الصدق، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾(التوبة:١١٩).

كل ما في الدنيا بتقدير

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه)) يتذوق المؤمن طعم الإيمان ويعيش البهجة إذا علم أنّ كل شيء بقدر، وأنّ ما يصيبه لن يخطئه، وما أخطأه لن يصيبه لأنّ الله تعالى منحه الأشياء التي تصيبه في الدنيا بتقدير، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾(القمر)، ومن تصور أنه لو فعل كذا لما كان كذا، فقد يكون قوله صحيحاً لأنّ الأسباب تتغير، ويمكن للإنسان أن يغير مسار حياته وهناك سلسلة من العلل تؤثر في الوصول إلى النتيجة التي وُصل إليها غير أنّ ما أنت عليه هو المقدر عليك بإرادتك وهو معنى قوله عليه السلام: ((حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه)) هذه علامة من العلامات التي توجب للإنسان تذوق طعم الإيمان، وبذلك يعيش الرضا النفسي، أما إذا رأى أنّ ما أصابه كان بالإمكان أن يخطئه فهو لم يسند الأسباب في نهاية المطاف إلى الله تعالى، ولم يجعل العلل المؤثرة مستندة إلى الباري تعالى، وحينئذ يعيش الألم والحسرة ويصعب عليه الخروج منهما، أما المؤمن فيعيش التسليم والرضا وهو ما عبر عنه الحديث ((أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه)) ثم أردف الإمام ع: ((وأنّ الضار النافع هو الله عز وجل)) والخلق من الأحياء والأموات، لا أحد منهم يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وحتى الأنبياء والرسل محمد وإبراهيم وموسى وعيسى والأوصياء عليهم السلام الذين أعطاهم الله رتباً وجعلهم يتصرفون بقدرات مُنحت لهم منه تعالى فإنّ تصرفهم بهذه الرتب بإذنه تعالى

وهو الضـــار النافع وحده، ويبين الإمام عليه السلام بقوله: ((وأنّ الضـــار والنافع هو الله))[1] أنّ المؤمن المعتقد بذلك يعيش السرور والسعادة.

التفطن بما يرتبط بالدين

قوله ع: ((لا يذوق المرء من حقيقة الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصـــال)) الأولى ((الفقه في الدين)) لا يراد بالفقه في الحديث فهم الأحكام الشرعية فحسب، بل يراد به الأعم من ذلك والمعنى هنا الفطنة في الدين، وأن المؤمن يفهم الأمور المتعلقة بدينه ويحرص على الجانب الأخروي في شخصيته.

طموح المؤمن في آخرته

يتمتع المؤمن بعقل يكسب به الخلود ويصب جهده على ذلك لأنّ الخلود هو الأعظم عنده أما غير المؤمن فإنه يجعل كل ما لديه لصالح معاشه الدنيوي فحسب.

الصبر على المصائب

((لا يذوق المرء حقيقة الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصـــال، الفقه في الدين، والصـــبر على المصائب)) لا يستطيع أحد أن يقي نفسه من المصائب ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾(البلد)، غير أن المؤمن عرضة للبلاء أكثر من غيره، ليتكامل معنوياً بالفقه في الدين والصبر على المصائب.

حسن إدارة أمور الحياة

((وحسن التقدير في المعيشة))[2] الإدارة الجيدة لأمور الحياة خصوصاً الجانب الاقتصادي صفة من صفات المؤمن غير أنّ بعضاً لا يلتفت إلى الجنبة الاقتصادية في حياته مع أنّ ذلك خلاف الإيمان إذْ من علامات المؤمن الإدارة الممتازة لأمور حياته لئلا يكون كلاًّ على غيره بل يوظف ما يســـتطيعه ليعيش الاستقلال في شخصيته والعزة والكرامة في نفسه.

المظاهر الدنيوية وتأثيرها على الإيمان

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠١.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠١.

الشهوات والميل إلى الدنيا يحجبان الإنسان عن تذوق الإيمان، قال النبي ﷺ: ((من كان أكثر همه نيل الشـــهوات نُزع من قلبه حلاوة الإيمان))[1]، أي من توجه لزخرف الحياة الدنيا لن يتذوق حلاوة الإيمان لأنّ المؤمن وإن اهتمّ بالحياة الدنيا فإنه في الحدود المعقولة، وجلّ همه يرتبط بعالم الآخرة ونيل الحظوة والســـعادة عند الله تعالى، لأنّ مآله بل مآل الجميع إليه تعالى ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾(القمر) ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ ﴾(الفجر) – فلم يقل القرآن (ادخلي في العباد) بل قال ﴿ فِى عِبَـٰدِى ﴾ نســـبهم إلى نفســـه، وقال ﴿ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾(الفجر) إنها درجة عالية أُشير إليها في الروايات قد لا تفقه إلاّ عندما يؤتى بالحديث عن النبي ﷺ أو المعصوم عليه السلام.

إنّ مـا تقـدم جـاء في آيٍ متعـددة؛ قـال تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾(النور:٢١) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾(الحجرات:١١) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾(المنافقون:٩).

القسم السادس: سمات الرفعة نحو الكمال

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾(الأنفال). صدق الله العلي العظيم.

زيادة استكمال الإيمان.

يزداد الإيمان وينقص وتُؤثر فيه الأعمال، وقد أبانت الروايات خِصـــالاً متعددة ينبغي أن يُلتفت إليها لأهميتها في استكمال حقيقة الإيمان، قال إمامنا الباقر عليه السلام : {ثلاث خصال من كن فيه استكمل خصال الإيمان: الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا غضب لم يخرجه

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠١.

الغضـــب من الحق، وإذا قدر لم يتعاطَ ما ليس له}[1]، أبان الإمام عليه السلام خصـــالاً لها أهمية فائقة في استكمال الإيمان وازدياده، نوضحها على التوالي:

الأولى: التوازن في الرضا.

قوله عليه السلام:{إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل}، من خصال المؤمن أنه إذا رضي لم يُدخله الرضا النفساني في الإثم والباطل، الرضا حالة من الانشراح النفسي والسرور والبهجة، وبعض الناس إذا وصـل إليها يتناسـى مسـؤوليته أمام الله تعالى، فيُبيح لنفسـه ما حُرِم، غير أنّ المؤمن يعي مسؤوليته أمامه تعالى، ويتذكر العقاب الشديد الذي أعده الله تعالى للعصاة فلا يقترف الإثم ولا يلج الباطل.

الثانية: الغضب في الحق.

قوله عليه السلام:{وإذا غضب لم يخرجه الغضب من الحق}، الغضب نار موقدة، إذا اشتعلت في الإنسان تُحرقه، وقد تُحرِق المغضوب عليه من قبله، لذا أوضح الإمام عليه السلام أنّ المؤمن يغضب كسائر الناس لكن الفارق الأسـاس أنّ غضـبه لا يخرجه من الحق، بل يبقى سـائراً على الصـراط المسـتقيم لإدراكه مسؤوليته أمام الله تعالى.

الثالثة: العفو عند القدرة.

قوله عليه السلام:{وإذا قدر لم يتعاطَ ما ليس له}، هذه سمة هامة، وذلك أنّ الظروف قد تنقلب لتكون في صـالح المؤمن على خصـمه، إلا أنه وبالرغم من مؤاتاة الظروف له لا يسـتفيد منها في ظلم الغير والتعدي عليه، لذا قال الإمام عليه السلام : {وإذا قدر لم يتعاطَ ما ليس له}.

خصال من الإيمان.

قال النبي صلى الله عليه وآله : {ثلاث من كن فيه يســتكمل إيمانه، رجل لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يرائي بشـــيء من عمله، وإذا عُرض عليه أمران، أحدهما للدنيا، والآخر للآخرة اختار الآخرة على الدنيا}[2]، أبان النبي صلى الله عليه وآله خصالاً متعددة:

١- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٦.

٢- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٦.

الأولى: تقديم رضا الله.

يقوم المؤمن بمسؤولياته بغض النظر عما يقوله الناس فيه، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن عُوتِب، فهو مع الحق، حتى لو كان على خلاف مصلحته، ويرى نفسه مسؤولاً أمام الله تعالى، ولإيمانه لا يخاف في الله لوم اللائمين.

الثانية: الإخلاص في العمل.

يأتي المؤمن بعمله خالصاً لله تعالى، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾(البينة:٥)، أي أنه يأتي بالأعمال لله تعالى، ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾(الإنسان:٩).

الثالثة: ترجيح العمل الأخروي.

إذا عُرِض على المؤمن أمران، يعلم أنّ أحدهما يرتبط بالآخرة، والثاني بالدنيا، رجح ما يُرضي الله تعالى ويوصل إلى الآخرة على ما يرفع مستواه في الحياة الدنيا، لأنه لا ينظر إلى الدنيا إلاّ إذا كانت وسيلة توصله إلى الآخرة.

زيادة الإيمان بحسن الخلق.

وأفاد النبي ﷺ عندما سُئل حول زيادة الإيمان وكماله، فقال له رجل: يا رسول الله أحب أن يكمل إيماني، فقال ﷺ: {حسِّن خُلقك يكمل إيمانك}[1]، فمن أراد زيادة الإيمان لا بد له من دماثة الخُلُق مع الناس، والتعامل بمرونة ووئام.

صفات كمال للإيمان.

قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: {ثلاث منكن فيه كمل إيمانه: العقل والحلم والعلم}[2]، تفصح الرواية عن ثلاث صفات يكمل بها الإيمان:

الأولى: العقل.

١- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٦.

٢- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٦.

المؤمن عاقل، والمراد من العقل كما ورد عن الإمام الصـــادق عليه السلام، {ما عُبد به الرحمن واكتســـب به الجنان}، وليس الدهاء وخداع الآخرين بســـرقة أموالهم واختلاســـها، أو ظلمهم من العقل، بل أنّ ذلك هو الشـيطنة النكراء المذمومة في الروايات، لذا، عندما سُـئل الإمام الصـادق عليه السلام عن دهاء معاوية، قال عليه السلام:{ تلك النكراء، تلك الشيطنة، هي شبيهة بالعقل، وليست من العقل}[1]، إذ العقل يأمر أن يكون المؤمن في مســـار القانون الإلهي، وسمة المؤمن أن يتبع ومضـــات عقله وإرشـاداته ويسـير وراءه، أما غير المؤمن فقد يؤلمه ضـميره من المعصـية وبخس حقوق الآخرين، لكنه لا يبالي حتى يموت ضميره، فيستلذ الظلم، والتعدي على حقوق الآخرين.

الثانية: الحلم عند الإساءة.

المراد من الحلم أنّ المؤمن عندما يتعرض لمواقف فيها إسـاءة لشـخصـيته أو لما يؤمن به من مقدسات يغضب، لكنه لا يؤدي به الغضب إلى الهاوية والهلاك، بل يسيطر على غضبه انطلاقاً من قـولـه تـعـالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(آل عمران: ١٣٤).

الثالثة: السير على المعطيات العلمية.

يأخذ المؤمن بكل ما فيه علم لتكامل شـخصـيته في عالمي الدنيا والآخرة، ويسير على ضوء معطيات علمية دقيقة تؤدي به إلى النجاح، ولا يتبع الظن، وهذا ما أكدت عليه الآيات القرآنية التي نهت الإنسان أن يقف ما ليس له به علم، بل عليه أن يسير متبعاً معطيات العلم.

خصال الرقي الإيماني.

تحدث النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن خصـــال لها أبلغ الأثر في الرقي الإيماني للإنســـان، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :{لا يكون المؤمن مؤمناً ولا يسـتكمل الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصـال: اقتباس العلم، والصـبر على المصائب، وترفق في المعاش}[2]، ذكر صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث خصال:

---

[1]- في ميزان الحكمة للريشهري ج٣ ص٢٠٤٦: قال الإمام الصادق عليه السلام في العقل: (ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان ، قال : قلت : فالذي كان في معاوية ؟ فقال : تلك النكراء ، تلك الشيطنة ، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل).

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٧.

الأولى: اقتباس العلم.

يتعلم المؤمن ليسير على وفق العلم، و{اقتباس العلم} يراد به التعلم.

الثانية: الصبر على المصائب.

يعلم المؤمن أنّ الحياة ملأى بامتحانات عسيرة ومصائب متعددة، فيصبر، لأنه يعي أنّ المصائب في صالحه، فهي تنضجه معنوياً وترفع مستوى إيمانه، بينما غير المؤمن إذا نزلت به المصيبة قد تفقده صوابه.

الثالثة: الرفق في المعاش.

المرونة في كسب الحلال سمة من سمات المؤمن، غير أنّ البعض عندما تحصل مشكلة بينه وبين رئيسه أو أحد زملائه يترك العمل، ويتضجر لذلك، وينسى أنّ المرونة الفائقة والترفق في المعاش والقدرة على التحمل إلى أن تتحقق مآربه في كسب العيش سمة المؤمن.

سمات رفعة الإيمان.

هناك سمات جميلة في الوصول إلى استكمال الإيمان وعلو درجته وردت في الروايات فعن الإمام الجواد عليه السلام : {لن يستكمل العبد حقيقة الإيمان حتى يُؤْثِر دينه على شهوته، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه}[1]، المؤمن أمام خيارين إما أن يُؤثر الدين وما يكون في صالح عالم الغيب والآخرة، فيضيء إيمانه، وإما أن يضعف إيمانه وينقص باتباع الشهوات.

خصال السمو الإيماني.

قال النبي صلى الله عليه وآله في ازدياد الإيمان واستكمال حقيقته :{لا يكمل عبد الإيمان بالله حتى يكون فيه خمس خصال: التوكل على الله، والتفويض إلى الله، والتسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله، والصبر على بلاء الله، إنه من أحب في الله، وأبغض في الله، ومنع لله، فقد استكمل حقيقة الإيمانْ}، ذكر النبي صلى الله عليه وآله خمس خصال للسمو الإيماني:

الأولى: الاتكال على الله.

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٧.

مهما جدَّ المؤمن كادحاً يعلم أنّ نهاية المطاف بيد الله تعالى، فيتوكل عليه ويكل الأمر له، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران:١٥٩)، ومن توكل على الله تعالى وعمل جاداً، فقد سار في الطريق القويم، أما غير المؤمن فقد يعمل لكنه إذا لم تتحقق النتائج لعمله يصاب باليأس، بينما المؤمن حتى وإنْ لم تتحقق ثمار عمله حالاً، لكنه يعلم أنّ الله تعالى سيحقق له ثماراً طيبة من حيث لا يشعر، ومن جوانب لا يعيها، وذلك لتوكله على الله تعالى وارتباطه به.

الثانية: التفويض إلى الله.

قال تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(غافر:٤٤)، التوكل غير التفويض، إذ أنّ التوكل إيكال الأمر إلى الله تعالى، بينما التفويض جعل كل أموره آتية منه وراجعة إليه، وذلك أنه لا يعلم الحِكم المترتبة على كل أموره، فيفوض ذلك إلى الله، كما في المصائب، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَ�ٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾(البقرة).

الثالثة:التسليم لله.

إنّ المؤمن يعمل ويتعب ويُسلم أموره لله تعالى، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾(الأحزاب).

الرابعة: الرضا بقضاء الله.

قد تحقق الأعمال التي يقوم بها المؤمن بعض ثمارها اليوم، وبعضها غداً، وبعضها بعد عدة من السنين، ولا يعي الإنسان سلسلة التأثير في الأمور الكونية، لأن الترابط بين أجزاء الكون والحكم والمصالح لا يعلم بها إلاّ الله تعالى، ولا يسع المؤمن إلا الرضا بقضاء الله.

الخامسة: الصبر على البلاء.

إنّ الله تعالى يبتلي الإنسان، وقانون البلاء يعم الجميع حتى الأنبياء والرسل، فالنبي موسى عليه السلام مات في التيه، والابتلاء لبني إسرائيل، وهذه إشكالية كبيرة لا يصل إلى عمقها إلاّ المؤمن الذي سلّم أمره إليه تعالى ورضي بقضائه، وصبر على بلائه، لأنّ النتائج المترتبة على الابتلاءات قد

لا تكون في عصره ولا الذي يليه بل بعد العشرات أو المئات من السنين باعتبار ارتباط أجزاء الكون ببعضها.

ارتباط الحب والبغض بالإيمان.

ثم قال ﷺ: {إنه من أحب في الله وأبغض في الله وأعطى لله ومنع لله استكمل الإيمان}[1]، لابد أن تكون العواطف الصادرة من المؤمن لله تعالى، يحب ويبغض له تعالى، ويعطي ويمنع لله، ورد أنّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام: {هل عملت لي عملاً قط؟ قال: صليت لك وصمت وتصدقت وذكرت لك، قال الله تعالى: أما الصلاة فلك برهان، والصوم جُنة، والصدقة ظل، والذكر نور، فأي عمل عملت لي؟ قال موسى عليه السلام: دلني على العمل الذي هو لك، قال تعالى: يا موسى هل واليت لي ولياً، وهل عاديت لي عدواً قط؟، فعَلِمَ موسى أنّ أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله}[2]، وهذا ما أكده النبي ﷺ في كون الحب والبغض والإعطاء والمنع لله تعالى أمور يُستكمَل به حقائق الإيمان.

القسم السابع: البعد الاجتماعي للسمات الإيمانية

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾(الأنفال). صدق الله العلي العظيم.

المؤمن عضو فاعل في الواقع الاجتماعي، و قد بينت آي القرآن الكريم الآثار الإيجابية المترتبة على الإيمان.

منها: الإنفاق في سبيل الله.

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٩٧.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٥١٤.

بيّن الحق تعالى في الآية الآنفة الدور الإيجابي للمؤمن في رقي الواقع الاجتماعي، بالإنفاق في سبيل الله تعالى، يُسهم في رقي مجتمعه، ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، أي أن حُسن ذاته ينعكس على الواقع الاجتماعي بإنفاقه في سبيل الله تعالى.

ومنها: خصال رقي الواقع الاجتماعي.

أبان النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام خصائص وسمات المؤمن التي تُسهم في رقي الواقع الاجتماعي، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام : {المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدراً، وأذل شيء نفساً، يكره الرفعة ويشنأ السمعة، طويل غمه، بعيد همه، كثير صمته، مشغول وقته، شكور، صبور، مغمور بفكرته، ضنين بخلته، سهل الخليقة، لين العريكة، نفسه أصلب من الصلد، وهو أذل من العبد}[1]، وهذه خصائص تنعكس على الواقع الاجتماعي نستعرضها على التوالي:

الأول: التبسم وبشاشة الوجه.

قوله عليه السلام:{بشره في وجهه}، أي أن المؤمن منبسط السريرة، حسن المحيا، يلقى أخاه بوجه طلق، دائم التبسم مع حمله الهموم الكبيرة، غير أنّ له القدرة على جعل همومه وأحزانه في قلبه.

الثاني:القدرة على تحمل المعاناة.

قوله عليه السلام:{وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدراً}، يتعامل المؤمن مع الآخرين بسعة صدر، لقدرته الفائقة في تحمل المعاناة، وتلك سمة الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾(طه)، طلب موسى عليه السلام سعة الصدر، وذلك أنّ الناس يتعاملون بطرق مختلفة، وعلى المؤمن تحمل الآخرين بتصوراتهم له، وانطباعاتهم عنه، إذْ أن هناك قراءات متعددة للشخصية، وبعضها خاطئة، ولأن الطيف متعدداً والقراءات متنوعة للشخصية، فلابد من سعة الصدر، باعتبار أنّ تصور الغير لا يُضير ما دام المؤمن مع الله تعالى، وقد أكد الأئمة عليهم السلام على قبول الغير مهما كان تصوره، ما دام مع الله تعالى، فإنه سيرفع مستواه، ويتاح له أن يدرك صحة التصرفات، لذا، قال الإمام عليه السلام :{أوسع شيء صدراً}،

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٦.

وقد امتن الله تعالى بذلك على المصطفى ﷺ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ (الشرح)، أي أنها سمة لا تحصل لكل أحد، لأن بعض الناس لا يقبل إلاّ نفسه ومن يفكر بطريقته، أما غيره ومن يختلف وإياه فيراه سيئاً.

الثالث: التواضع.

قوله (ع): {وأذل شيء نفساً}، لا يرى المؤمن لنفسه وجوداً، ويرى النعم ترجع إلى فضل الله عليه، ولا ينظر ذاته، ولا يهمه إلا أداء التكليف، ونظرته إلى غيره إيجابية، وهو وإن رأى أنه الأفضل لا يُبدِ ذلك في واقعه العملي، ولا يرتب أثراً على رفعة ذاته، بل يرى نفسه عبداً بين يدي الله تعالى، وهذا ما طبقه المصطفى ﷺ في تعامله مع غيره، وقد تعجب كثير من تواضعه الجم ﷺ.

إنّ المؤمن يكره الرفعة ويشنأ السمعة، ولا يهمه إطراء الآخرين لما يقوم به بقدر ما يهمه الإخلاص لله تعالى.

الرابع: كراهية الرفعة.

قوله (ع): {يكره الرفعة}، إنّ كراهية الترفع على الآخرين سمة أبانها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾(القصص:٨٣)، أي أنّ المؤمن لا إرادة قلبية للعلو والترفع لديه، بل يريد القرب من الله تعالى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(الحجرات:١٣)، وإذا مُدح تألم في نفسه، قائلاً: {اللهم اجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون}[1].

الخامس: طويل الغم.

قوله (ع): {طويل غمه}، لكونه يحمل المبادئ العظيمة فيحزن ويتألم في داخله إذا لم تطبق تلكم المبادئ، ويحمل الهمة العالية لتصبح مبادئه واقعاً.

١- في بحار الأنوار للمجلسي ج٧٤ ص٦٥-٦٦: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:: (يا علي إذا اثني عليك في وجهك فقل : " اللهم اجعلني خيرا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون).

السادس: الصمت الكثير في أوقاته.

قوله (ع): {كثير صمته، مشغول وقته }، من يفكر في الوصول إلى المآرب والأهداف التي حددها لنفسه وللمجتمع يكثر صمته، ويشغل وقته، فليس لديه فراغ، بل يسعى للوصول إلى مآربه.

السابع: دائم الشكر والصبر.

قوله عليه السلام: {شكور صبور}، الحمد والثناء على الله تعالى بنحو دائم، والصبر على الشدائد صفتان للمؤمن الناجح، وما أعظمهما من صفتين، ومن لم يكن صابراً نفر منه أقرب الناس إليه، وابتعد عنه أنفع الناس له، أما الصابر فهو إيجابي في تعامله، يتحمل غيره مهما كان، وقد أكدت الروايات على أهمية الصبر، وبينت أقسامه، كالصبر على الطاعة، وعن المعصية، والصبر على الآلام والمكاره لما لذلك من الفائدة.

الثامن: التفكير العميق.

قوله (ع): {مغمور بفكرته}، العمق في الفكر دليل النضج الذي يترتب عليه الأفكار البناءة والمفيدة له ولمجتمعه ودينه، فلا ينطلق إلى العمل بسذاجة بل بع روية وإيجالة فكر واستشارة للغير لتكون أعماله ترجع بالفائدة.

التاسع: حريص على إيمانه.

قوله (ع): {ضنين بخلته}، سمة رائعة يراد بها أحد معنيين، وقد يراد بها كلاهما:

الأول: أنّ من وصل إلى درجة من الإيمان لا يُفَرِّط فيها، ذلك أنّ البناء من الصعوبة بمكان، أما الهدم فسهلٌ، فقد يصل المرء إلى درجة عالية من الإيمان، لكنه في لحظة واحدة يهدم ما بناه في سنين، لذا، يحتاج الإنسان أن يكون ضنيناً على ما توصل إليه من سجايا.

الثاني: أنّ من كان لديه أصدقاء وأحباء لا يفرط بهم وإنْ صدر منهم ما لا ترتاح إليه نفسه، بل يبقى على تواصل معهم.

العاشر: المرونة في التعامل.

قوله (ع): {سهل الخليقة}، مرونة المؤمن خصلة هامة أكد عليها القرآن والروايات، وهي بارزة في أتباع أهل البيت عليهم السلام، مترسخة في شخصياتهم، يُعرفون بها من خلال التعامل، فلا فضاضة ولا غلظة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:١٥٩)، لين العريكة، ودماثة في الخُلق، وليس ذلك ناشئاً من ضعف في الشخصية، بل للقدرات الكبيرة والاتكاء على أسس راسخة، فلا يؤثر الباطل فيهم.

الحادي عشر: قوي الإيمان.

قوله (ع): {نفسه أصلب من الصلد}، المؤمن أقوى من الصخور الصماء الملساء، وقد أبانت الروايات ذلك، قال الإمام الباقر عليه السلام : {المؤمن أصلب من الجبل ، الجبل يستقل منه ، والمؤمن لا يستقل من دينه شئ}[1]، أي أنّ الجبل تؤثر فيه المعاول فيؤخذ منه، والمؤمن لا شيء يأخذ من إيمانه.

الثاني عشر: تواضع النفس.

قوله (ع): {وهو أذل من العبد}، نظر بعض الناس المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: أراك تأكل أكل العبيد، وتجلس جلسة العبيد، فالتفت إليه صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: {أي عبد أعبد مني؟!}[2]، هو صلى الله عليه وآله وسلم أعظم شخصية في العبودية لله تعالى والقرب منه، وهذا ميزان، لا يمكن التعرف عليه إلاّ بملامسة الواقع الوجداني، وتعطينا الروايات خصائص دقيقة للتعرف على منزلة العبد عند الله تعالى، وأنّ من أراد أن يتعرف على منزلته عند الله فلينظر إلى منزلة الله تعالى عنده، وكيف يتعامل مع الله ورسوله وأوليائه، لأنّ المنزلة والتعامل هما الميزان الذي يكون عليه العبد عند الباري تعالى وأوليائه.

خصال في الانسجام الاجتماعي.

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٩.

[2]- في ميزان الحكمة للريشهري ج٤ ص٣٢٢٦: قال الإمام الصادق عليه السلام: (مرت امرأة بذية برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يأكل وهو جالس على الحضيض ، فقالت : يا محمد ! والله إنك لتأكل أكل العبد ، وتجلس جلوسه ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ويحك وأي عبد أعبد مني ؟ قالت : فناولني لقمة من طعامك ، فناولها ، فقالت : لا والله إلا التي في فيك ، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وآله اللقمة من فمه فناولها).

أبان الإمام الصادق عليه السلام انعكاس هذه الخصائص على الواقع الاجتماعي، فقال: {المؤمن حسن المعونة، خفيف المؤونة، جيد التدبير لمعيشته، لا يُلسع من جحر مرتين}[1]، بيّن الإمام عليه السلام أربع خصال تُؤثر في الواقع الاجتماعي:

الأولى: التعاون الاجتماعي.

يساعد المؤمن غيره عند الحاجة، أما غير المؤمن فيتذلل لغيره عند احتياجه، وإذا استغنى فهو أبعد ما يكون عمّن تذلل له، بينما المؤمن هو أقرب الناس لمن احتاج إليه، يساعده بما يتمكن، ولا يدخر وسعاً في ذلك، فهو حسن المعونة.

الثانية: خفة المؤونة.

قوله (ع): {خفيف المؤونة}، لا يثقل على الآخرين، وإذا طلب من غيره، ولم يُستجب له عذره، ولم يُسئ الظن به.

الثالثة: حسن الإدارة.

قوله (ع): {جيد التدبير لنفسه}، للمؤمن إدارة راقية لحياته، فيدير نفسه اقتصادياً، وينظم وقته وعياله، ويدبر الواقع المعاش بنحو يرقى به إيمانه ويتفاعل إيجابياً مع غيره.

الرابعة:الاستفادة من التجارب.

قوله (ع): {لا يلسع من جحر مرتين}، من سمات المؤمن اهتمامه بالتجربة، وإذا أصيب في تعامله بانتكاسة، أخذ الحيطة والحذر في ذلك، كي لا يقع مرة أخرى، فلا يُلسع من جُحرٍ مرتين، إذ لديه التفكير الدقيق والتجارب المستفادة والوعي وسعة الإدراك، بخلاف البسيط من الناس، الذي لا يعتبر بالتجارب، وليس لديه ثبات في شخصيته.

إنّ ثبات الشخصية يمكن الإنسان من تحصين فكره، فلا يتأثر بالإعلام المضاد، ليأخذه يميناً وشمالاً، بل يتخذ لنفسه برامج، تُؤدي به إلى أرقى درجات الرفعة والسمو.

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٦.

القسم السابع: الإيمان والأمن الاجتماعي.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾(الأنفال). صدق الله العلي العظيم.

خصال ترتقي بالفرد والمجتمع:

الأولى: النصح والمشورة.

يُسهم المؤمن في رُقي الواقع الاجتماعي، وهذا ما أبانته الروايات، قال النبي ﷺ: {المؤمن أخو المؤمن لا يدع نصيحته على كل حال}[1]، النصح جنبة هامة، والمؤمن يُقدِم النصح على كل حال، ذلك أنّه تذكير لمن غفل، واستمرار للتواصي بالحق، ولا ينبغي للمؤمن أن لا ينصح أخاه، بل عليه أن يُؤكد النصيحة، وقد أكدت الروايات المتعددة أهمية النصح للجميع بيد أنّه للمؤمن آكد، لذا فإنّ المؤمن يمحض أخاه النصيحة، حتى إذا لم يأته مستنصحاً يُبادره ابتداءً، ويُقدم له المشورة الناضجة والنصيحة المسهمة في تطويره، لأنّ المؤمن لا يُكلف غيره عناءً، فيعنى بنفسه ويُنضج شخصيته، إنه في تنمية مستدامة.

الثانية: الأمانة.

أكد إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام على الأمانة، فقال: {المؤمن أمين على نفسه}، يراد بالأمانة هنا عدم التفريط في المكتسبات وعدم التواني في الحفاظ على السجايا، فلا يدع المؤمن نفسه تغلبه على الباطل وتدعوه إلى السوء، {مغالب لهواه وحسه}[2].

الثالثة: النفع للآخرين.

قال المصطفى ﷺ في إجمال ما تقدم: {المؤمن منفعة}، أي، كله نفع، فهو خير في كل جنبة من حياته، أينما رُؤي يُرى الخير، {المؤمن منفعة إنْ ماشيته نفعك}، أي، إنْ سرت معه في

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٦.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٧.

طريق حصلت النفع، {وإنْ شاورته نفعك}، مشورته فيها الخير والبركة، ومن شاركه في عمل تجاري رأى النفع، يؤثر إيمانه نفعاً لغيره، أما غير المؤمن، فالتعامل معه عناء وألم مستمران لا يتاح للمتعامل معه أخذ حقه بسهولة، بل يتعدى على حق غيره، قال النبي ﷺ: {إنْ ماشيته نفعك وإنْ شاورته نفعك وإنْ شاركته نفعك، وكل شيء من أمره منفعة}[1]، إجمال لجميع الحيثيات في كلمة واحدة، أي أنّ المؤمن نافع لذاته ولأهله ولمجتمعه.

انعكاس الإيمان على الأمن الاجتماعي

الأمن والسلم الاجتماعي أمران في غاية الأهمية وهما انعكاسان للإيمان، ويرتبط بهما الرقي والتطور للمجتمع في جميع المجالات، وقد أكدت الروايات ذلك، قال النبي ﷺ: {المؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم}[2]، من سمات المؤمن الرئيسة عدم التعدي على الآخرين في أموالهم.

إنّ إشكالية الحقوق المالية من أعظم الإشكاليات في كل المجتمعات، وذلك لضعف الإيمان، وعدم الالتفات إلى أهمية المال، {المؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم}، من يدّعي الإيمان ويتعدى على الغير فهو بعيد عنه بُعد المشرق عن المغرب، إنّ المؤمن يُسهم في الأمن والسلم الاجتماعي، أما من يعيث في الأرض فساداً ويُرهب الناس ـــ كبعض من يدّعي الانتماء إلى الإسلام ويقتل الناس ـــ فليس بمؤمن، وقد حارب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذين يحملون الفكر المتطرف، ويتعدون على الآخرين، ويعتقدون أنّ فكرهم الصواب المطلق، وأنّ غيرهم الخطأ المطلق، تؤكد مدرسة أهل البيت عليهم السلام ذات الأصالة والعمق الجنبة السلمية للواقع الاجتماعي، مما ينعكس على الناس في حياتهم، فيأمنون على أموالهم ودمائهم.

السعي في قضاء الحوائج.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام :{المؤمن إذا سُئل أسعف، وإذا سأل خفف}[3]، يبادر المؤمن للنجدة إذا احتاج إليه الآخرون، ولا يتهرب عن المسؤولية، {إذا سُئل أسعف}، وإذا سأل أو احتاج إلى غيره خفف، أي أنه وبالرغم من حاجته لكنه يكتفي بالمعونة القليلة، ليس بعالة على غيره، بل

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٧.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٧.

[3]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٧.

يسعى للتخفيف عنه، وكلما ازداد المؤمن إيماناً ازداد إسعاده لغيره، وكلما قلَّ الإيمان ازداد المجتمع سوءاً وتعاسة، وذلك لعدم وعي مقتضيات الإيمان التي تجعل الآخرين يعيشون الاطمئنان والسعادة.

مسؤولية المؤمن تجاه أسرته.

يسهم المؤمن في عفاف المجتمع وطهارته، وهذه جنبة هامة، إذ أن كثيراً من الناس يتظاهر بمظهر المؤمنين في الخارج، لكنه لا يعي مسؤوليته، ولا يهتم بمن هو مسؤول عنه من بناته ونسائه، وليس لديه غيرة، وقد أكدت الروايات المتعددة على اتصاف المؤمن بالغيرة والطهارة والعفاف لبناته وزوجه، إن الدنس ينشأ من ترك المسؤولية، وعدم سؤال الأب مع من تمشي البنت والزوجة.

أسلوب تربوي في التعامل.

للسؤال بلباقة ولطف التأثير الكبير، خلافاً للتشكيك في كل شيء، ولا يراد بالسؤال ذلك، بل اللباقة واللطف وإظهار الحنان والمودة وغرس العزة والكرامة في البنت والزوجة، رُوي أن العزيزة لا تمكن غير بعلها منها[1] لأنها تعيش العزة والكرامة، أما غير المؤمن فلا يهتم بمسؤوليته تجاه بناته وزوجه، وهناك قصص يندى لها الجبين، لعدم الاهتمام بالأسرة في هذا الجانب، وانعدام المسؤولية بنحو كلي، ولابد أن ننبه على المراقبة الدائمة من رب الأسرة، لوجود أغذية مصنّعة تأتي من دول عدة، تحتوي على مواد محرمة في الشريعة الإسلامية.

إنّ تناول المأكولات المشابة بدهن الخنزير تؤثر على غيرة الأبناء، مما يُسهم إسهاماً سلبياً في تفسخ الخُلُق، وانتفاء العفاف، وظهور المرأة في حفلات الأعراس بمظهر غير لائق وغير محتشم، مما يترتب عليه عواقب غير محمودة، ناتجة من قلة الغيرة ونقص الإيمان.

إنّ المؤمن يطهر ذاته من حيث المأكل والمشرب وينعكس ذلك إيجاباً على غيرته، فيخاف الله ويغار، والله تعالى أشد غيرة منه، النزاهة والطُهر والعفاف أمور مؤثرة إيجاباً، والسوء والرذيلة يؤثران سلباً في رقي المجتمع وتكامله.

المرونة والتعامل الإيجابي.

---

[1]- في وسائل الشيعة للحر العاملي ج٢٠ ص٢٩: عن جابر بن عبد الله قال: (سمعته يقول : كنا عند النبي صلى الله عليه وآله فقال : إن خير نسائكم الولود الودود العفيفة العزيزة في أهلها ، الذليلة مع بعلها ، المتبرجة مع زوجها الحصان على غيره ، التي تسمع قوله وتطيع أمره ، وإذا خلا بها بذلت له ما يريد منها ، ولم تبذل كتبذل الرجل).

للروايات عناية بالمرونة والتعامل الإيجابي خصـــوصـــاً إذا ذُكِّر المؤمن ووُعِظَ، فلا يتكبر في قبول الحق، بل ينصاع له، ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾(لقمان)، يتواضـــع المؤمن لقبول الحق وإن جاء من غير مؤمن، فيقبل التذكرة من ألد الأعداء لديه، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:{ المؤمن إذا وُعِظَ ازدجر}، أما غيره فيكابر في قبول الحق ويسأل الواعظ: من أنت لتعظني ؟! ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾(البقرة:٢٠٦)، المؤمن إيجابي بتقوى الله تعالى، وعندما يُنبه بخطأ يرتاح لمن نبهه، ويراه مرآة له، {وإذا حُذِّر حذر} العواقب السـيئة وأخذ الحيطة لنفسـه، {وإذا عُبِّر اعتبر}، عندما يسـمع الشـواهد والقصـص من الواقع يحذر ويتأثر، {وإذا ظُلم غفر}[1]، يغفر لمن أســاء إليه، ويعفو عمن ظلمه، خلافاً لبعض الناس، الذين يُذكِّرون غيرهم بما صـدر منه دائماً، إنّ للمؤمن اهتمامات بشـؤون أُخر أعظم وأكبر من حفظ إساءة غيره، فهو في تطوير شخصيته، لا يُذكِّر من أساء إليه، بل يعفو صافحاً، {وإذا ظُلِم غفر}.

مكارم من الأخلاق النبوية.

مكارم الأخلاق أن تُحسـن لمن أسـاء إليك، وتعفو عمن ظلمك، وتصـل من قطعك، وهي التي بُعث بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، {إنما بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق}[2]، وهي أخلاق الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾(يوسف) أما التركيز على ظلم الغير الشـخصـي وإشـغال النفس بأمور جزئية وصـغيرة، تترتب عليها العداوة والبعد عن الله تعالى ليس من شأن المؤمن، بل همه العفو والمغفرة بإسدال الستار عن الجانب السلبي فينشأ منه الحب والرحمة والقرب من الله تعالى، {وإذا ظُلم غفر}.

التسامح تجاه الآخرين.

يُحذِر المؤمن من السـوء ويُبعد الناس عنه، وهو مرآة، تعكس الجانب الإيجابي وتُبعد الآخرين عن الجانب السلبي، يتواصى بالحق مع كونه في غاية التسامح والمرونة في تعامله مع غيره، سهل، كما عبَّر عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم{المؤمن يألف ويُؤلف}، ليس لديه فضـاضـة، بل تودد للآخرين، وتودد من

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٧.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٨٠٤.

الآخرين له، {ولا خير في من لا يألف ولا يُؤلف}، فمن يتصف بالفضاضة والغلظة في التعاطي مع الآخرين لا خير فيه، {خير الناس أنفعهم للناس}[1]، أفضل الناس هو الأنفع لغيره.

القسم التاسع: ثقافة التعامل الأخوي في المجتمع الإسلامي

العاطفة في المجتمع الإيماني.

أبان الإمام الصادق عليه السلام كيف يكون المؤمن مع أخيه المؤمن في تعاطفه، لما يترتب على العاطفة من أثر عملي، فهي وإن كانت انفعالاً نفسياً غير أنّه انفعال يترتب عليه عمل، لذا أُكد على العاطفة في كثير من الأمور، فالبكاء على الإمام الحسين عليه السلام عاطفة، لكنه يؤثر عملياً في المؤمن.

التراحم في المجتمع الإيماني

قال الإمام الصادق عليه السلام: {المؤمنون في تبارّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى تداعى له سائره بالسهر والحمى}[2]، إذا اشتكى عضو من الجسد تألم باقيه لذلك، كذا الحال بين المؤمنين في الجنبة العاطفية، فيبر بعضهم ببعض.

طلبت الشريعة من الإنسان البر بوالديه، والبر بأخيه المؤمن {وتراحمهم} والبر بالمؤمنين أن يرحم بعضُهم بعضَهم الآخر، وأن يعطف بعضهم على بعضهم، {وتعاطفهم}، وأن يكونوا كـ{الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى}.

التلاحم والتكافؤ الإيماني.

أكد الإمام الصادق عليه السلام في رواية أخرى على المعاني الآنفة الذكر فقال: {لا والله لا يكون المؤمن مؤمناً أبداً حتى يكون لأخيه مثل الجسد إذا ضرب عليه عِرق واحد تداعت له سائر عروقه}[3]، يُقسِم الإمام عليه السلام بالله أنّ المؤمن لن يتمكن الإيمان من نفسه ولن يصبح مؤمناً حقاً حتى يكون لأخيه

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٨٠٤.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٥.

[3]- بحار الأنوار للمجلسي ج٧١ ص٢٣٣.

كالجسد يتأثر ويتألم إذا مرض جزءٌ منه تداعت سائر عروق الجسد لألم ذلك العِرق، وقد أبان النبي ﷺ الحال بين المؤمنين في الواقع الاجتماعي، فقال: {المؤمنون تتكافأ دمائهم}[1]، وهي إيماءة منه ﷺ فتكافئ الدماء بحفظ المؤمن دم أخيه المؤمن لأنه يكافئه وفي مرتبته، فيحافظ على نفسه وعلى إخوانه من المؤمنين.

التعاون في المجتمع المؤمن.

قال ﷺ: {وهم يد على من سواهم}، المؤمنون كاليد الواحدة، من أراد أن يُسيئ لبعضهم اجتمع كل المؤمنين في رد الإساءة عنه، فدفعوا عنه الأذى، وأماطوا عنه السوء، وبذلك تتكافأ دمائهم ويكونون يداً على من سواهم.

حفظ ذمام المؤمن.

ثم قال ﷺ: {ويسعى بذمتهم ...}، يُوضح ﷺ بهذه الكلمة أنّ المؤمنين إذا دخلوا معركة في حربٍ، فأعطى أحدهم الأمان للعدو، وهو الذي يحيط بملابسات وحيثيات الحرب فأدناهم أي أقربهم للعدو، فإذا أعطى الأمان كان بقية المؤمنين معه في أمانه، وفي الكلمة إشارة أنه قد لا يكون الذي أعطى الأمان بإدراكه لحيثيات الواقع هو الأعظم في شخصيته، والأجدر في قيادته، بل قد يكون الأدنى والأقل رتبة، لكنه أعطى الأمان وعلى الجميع احترام ذلك، لذا قال النبي ﷺ: {ويسعى بذمتهم أدناهم}، أدناهم إما أن يكون هو الأقرب إلى العدو أو الأقل في الرتبة، لكن ذلك لا يمنع من أن يكون له مقامه بين المؤمنين، إذ أنّ بعض المؤمنين نتيجة لعوامل يصبح هو الأعظم، وله الجاه والرئاسة وما إلى ذلك، وبعضهم الآخر هو الأدنى رتبة، ولكنّ له مقام بين إخوانه من المؤمنين، فإذا أعطى الأمان قَبِل الجميع ذلك لُلحمة والترابط الوثيق بينهم.

التناصح ونبذ الغش.

---

[1]- عوالي اللئالي لابن أبي جمهور الأحسائي ج١ ص٢٣٥، روى قيس بن عبادة قال : انطلقت والأشتر إلى علي عليه السلام فقلنا له : هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا لم يعهده إلى الناس عامة ؟ قال : لا ، الا ما في كتابي هذا ، وأخرج كتابا من قراب سيفه ، فإذا فيه : " المؤمنون تتكافأ دمائهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . ألا لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد عهده.

قال النبي ﷺ: {المؤمنون بعضهم لبعض نَصحة، وادُّون، وإنِ افترقت منازلهم، وأبدانهم}[1]، أي ينصح بعضُهم بعضَهم الآخر حتى وإنْ كان بعيداً عنه، ولكنه يُعنى بشؤونه ويهتم بأموره للترابط الوثيق في الإيمان، {وإنِ افترقت منازلهم، وأبدانهم}، عكس ذلك من يجانب الإيمان ويبتعد عن الحق، وهو الفاجر، {والفجرة بعضهم لبعض غَشَشة}، بينما {المؤمنون بعضهم لبعض نصحة}، تعبير جميل، أي أنّ المؤمن جسَّد النصح فأصبح هو النصح، و الفاجر جسّد الغش فأصبح نفسه.

{والفجرة بعضهم لبعض غششة، متخاذلون وإنِ اجتمعت منازلهم وأبدانهم}، هناك فارق بين المؤمنين في تعاملهم الاجتماعي وبين الفجرة، فالمؤمن مع أخيه المؤمن ناصح له يحب له الخير، ويسعى في تحقيق أعظم ما يتمكن منه لإسعاد أخيه، أما الفاجر فلا يهتم إلاّ بمصلحة نفسه، وقد يغش أقرب الناس إليه لمصلحته.

سُبل الراحة للمجتمع المؤمن.

تتأتى راحة المجتمع المؤمن من حيثيتين:

الأولى: الاشتغال بالنفس.

إسهام الفرد المؤمن في تقديم النصح بالمشاركة في بناء المجتمع الإيماني والكتلة الصالحة، وفي أحايين قد لا تُسهم الظروف ولا تساعده على ذلك، غير أنّه يكفي الآخرين مؤونة نفسه، ولا يُشكل لهم عناءً، ولا يُثقل على إخوانه المؤمنين، قال ﷺ: {المؤمن الذي نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة}[2]، يجهد في تهذيب نفسه ويهتم بشخصيته، ويرتاح منه الناس حيث لا يحتاج إلى تقويم سلوكه وإزالة اعوجاج شخصيته، بخلاف غير المؤمن، فالناس منه في عناء، يكابدون في أصلاحه، فيُشغل الآخرين بنفسه.

الثانية: الاهتمام بإصلاح الغير.

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٦.

(المؤمنون بعضهم لبعض نصحة وأدون وإن افترقت منازلهم وأبدانهم ، والفجرة بعضهم لبعض غششة متخاذلون وإن اجتمعت منازلهم وأبدانهم).

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٨.

قال ﷺ: {المؤمن مرآة لأخيه المؤمن}، مطلب جِدُّ هام، فالمؤمن لأخيه المؤمن مرآة، غير أنّ بعض الناس يهتم بأخيه المؤمن مادام بالقرب منه، وإذا ابتعد عنه لم يهتم به، أما المؤمن فإنه يهتم بأخيه، وله عناية به كعنايته بنفسه، ويريد أن يصلح حاله، كما يصلح نفسه، وقد بيّن النبي ﷺ كيف يكون مرآة لأخيه، فقال: {ينصحه إذا غاب عنه}، أي أنّ الغياب لا يفصل المؤمنين، بل يُقدم بعضهم لبعض النصيحة عبر وسائل مختلفة، وما أسهل ذلك في زماننا بواسطة وسائل الاتصالات الحديثة، فيُعنى المؤمن بأمر أخيه حتى إذا سمع عنه ما يسوؤه أسرع إليه ناصحاً، {ينصحه إذا غاب عنه، ويميط عنه ما يكره إذا شهد}[1]، أي إنْ كان بالقرب منه أماط عنه الأذى ودفعه.

أدب الخُلق الإيماني.

أكدت الروايات على رعاية الأدب بين المؤمنين، ومن الخطأ الترويج لفكرة (بين الأحباب تسقط الآداب)، فإنّ الآداب لا تسقط بل تتأكد بين الأحباب، وإذا أحببت شخصاً وأَحبَّك فلابد أن تتوثق الآداب دون كُلفة، أما المقولة الآنفة، لعل المراد بها عدم الكُلفة بين الأحبة، وهذا معنى السقوط، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾(ص: ٦٨)، وذلك ديدن الأنبياء، أما الآداب فلا تسقط بحال، وإنما تتأكد، وذلك ما أبانه ﷺ في الأدب بين المؤمنين، من عناية المؤمن بأخيه، يستقبله بكل حفاوة، مما يُدلل على عمق الربط الإيماني، غير أنّ البعض ممن لا يؤدي حقوق إخوانه وأصدقائه يحتفي بالبعيد حتى وإنْ كان من غير المؤمنين، فيقوم له ويُوسّع في المجلس معتنياً به، ويُقصر في حق أخيه المؤمن، ممن له علاقة به، ولا يهتم به، مع أنّ الروايات تؤكد على أنّ المؤمن له عناية بالمؤمن لإيمانه، فيفسح له في المجلس، قال ﷺ: {ويوسع له في المجلس}.

القسم العاشر: سمات الإيمان سلوك المعرفة الحقة

جوامع الأخلاق الإيمانية.

أبانت الروايات آثار الإيمان بنحو التصريح تارة ومن خلال اللوازم المتعلقة به تارة أخرى ، فإذا نظر المرء وجد الانعكاس الإيجابي للإيمان بيّناً واضحاً، قال إمامنا الرضا عليه السلام: {لا يكون

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٤٨.

المؤمن مؤمناً حتى تكون فيه ثلاث خصال: {سُنة من ربه، وسُنة من نبيه، وسُنة من وليه}[1]، الولي هو الإمام المعصوم عليه السلام، تبين الرواية جوامع أخلاق الإيمان في خصال ثلاث:

الأولى: كتمان السر.

قال عليه السلام: {فأما السنة من ربه فكتمان السر}، يترتب على إفشاء السر آثارٌ سيئة ومشاكل اجتماعية يصعب حلها، وإذا سمع المؤمن سراً أو كلاماً يؤثر تأثيراً سلبياً لا يُفشيه ولا يظهره، بل يحاول كتمان ذلك لئلا يؤثر على الواقع الاجتماعي، وهذه سنة من الله، لأنّ الله تعالى يستر على عباده، عندما يقترفون الذنوب وتصدر منهم الخطايا ولا يفضحهم في مشهد خلقه، ولا في يوم القيامة، بل يستر عليهم ويغطي عليهم التبعات، ويتخلق المؤمن بهذا الخلق الإلهي الكريم، فلا يُظهر نقاط الضعف لدى إخوانه المؤمنين، بل يغطي عليها بكتمانها، لئلا تؤثر سلباً على عليهم.

آثار النميمة على المجتمع.

يؤكد ما ذكر ما روي عن موسى عليه السلام أنه استسقى لبني إسرائيل حين أصابهم قحط، فأوحى الله تعالى إليه: أني لا أستجيب لك ولا لمن معك، وفيكم نمام قد أصرَّ على النميمة، فقال موسى عليه السلام : {يا رب من هو حتى نخرجه من بيننا}، فقال الله تعالى: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً؟ فتابوا بأجمعهم فسقاهم الله تعالى، إنّ الله لا يريد أن يظهر عيوب خلقه لخلقه، وإنما يُغطي عليهم التبعات ويستر عليهم ليتاح لهم أن يتكاملوا، وذلك ديدن المؤمن إذا رأى نقطة ضعف في أخيه لا يكون وسيلة إعلامٍ لإفشائها، بل يحاول أن يُغطي عليها ويلفت انتباهه، ليتلافاها.

الثانية: مداراة الناس.

قال الإمام الرضا عليه السلام: {وأما السنة من نبيه فمداراة الناس}، مداراة الناس هامة، لأنهم يختلفون في طريقة التفكير والثقافة، ولهم قراءات متعددة للواقع، كل يقرأه من خلال ثقافته ومرتكزاته، وتبين الروايات أهمية مداراة الناس، قال النبي صلى الله عليه وآله: {رأس العقل بعد الإيمان مداراة

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٩، عن الإمام الرضا (عليه السلام) : (لا يكون المؤمن مؤمنا حتى تكون فيه ثلاث خصال : سنة من ربه ، وسنة من نبيه (صلى الله عليه وآله) ، وسنة من وليه (عليه السلام) : فأما السنة من ربه فكتمان السر ، وأما السنة من نبيه (صلى الله عليه وآله) فمداراة الناس ، وأما السنة من وليه (عليه السلام) فالصبر في البأساء والضراء).

الناس}[1]، أي لا يكون للمؤمن ردود فعل على ما يراه، بل يفحص متأملاً ويتأنى ليرى ما يتعلق بالفعل الذي صدر من غيره، إلاّ أنّ بعض الناس بمجرد أن يرى الفعل يحاكمه بردود فعل كبيرة لا حد لها، وذلك خلاف المدارة، التي تقتضي من المرء التريث وإغضاء الطرف والحمل على المحامل المتعددة، فلا يحكم بسرعة على الفعل، لأنّ ذلك يسهم في تكبيره، وقد يُسهم في سلب شخصية الفاعل الذي صدرت منه نقيصة إذْ قد يكون لديه كثير من الأمور الإيجابية، غير أنّ إظهار تلك السلبية الصغيرة يغطي عليها، لذا ينبغي للمؤمن إذا استمع إلى كلمة تسوؤه أو تُؤثر على الآخرين أن لا يأتي بردود الفعل لعلاجها، وإنما يتأنى ليرى ما هي الكيفية الأنجع لعلاج تلك السلبية الصغيرة، إذِ العلاج يتأتى من خلال الفهم الدقيق بمداراة الآخرين فيما يصدر عنهم من أفعال.

الثالثة: الصبر في البلاء.

قال عليه السلام: {وأما السنة من وليه فالصبر في البأساء والضراء}، للصبر أهمية بالغة غير أنّه في البأساء والضراء له الأثر الأكبر فإذا مرّت على الإنسان مدلهمات الخطوب والبلايا التي يصعب عليه تحملها يأتي دور الإيمان والصبر في البأساء والضراء في تضميد الجراح، الإيمان والصبر يسهمان في إعطاء المؤمن القدرة الفائقة على التحمل وذلك ما كان عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقد كانوا يرون الواقع المنخفض للناس، والبلايا التي تصدر من الذين يكيدون للإسلام غير أنهم عليهم السلام يدارون ويصبرون، وهم على يقين أنّ العاقبة للمتقين، ذلك وعد إلهي ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ الحج:٤٧، إذن السنة من وليه هي الصبر في البأساء والضراء.

الاقتداء بصبر الأولياء.

الصبر في كل الأمور حسن غير أنه في البأساء والضراء اقتداءً بالأئمة عليهم السلام أحسن، فقد صبر أئمة أهل البيت عليهم السلام على آلام ومشاكل الواقع الاجتماعي بنحو أدهش العلماء قال بعضهم إنه لا يتعجب من الأمور العظيمة في حياتهم عليهم السلام مع أنها مدعاة للعجب وإنما يتعجب بنحو أعظم من صبرهم عليهم السلام، وتحملهم لذلك الواقع المرير خصوصاً من الذين يظهرون الإيمان ويبطنون المحاربة لأولياء الله تعالى، وقد تعامل الأئمة عليهم السلام مع الطيف المتعدد بالصبر والتحمل والمداراة.

---

[1]- بحار الأنوار للمجلسي ج٧٢ ص٤٣٨.

الاعتصام بالله في القول والعمل.

أبان إمامنا الحسين عليه السلام الحال التي يكون عليها المؤمن فقال عليه السلام: {إنّ المؤمن اتخذ الله عصمته}[1]، الاعتصام بالله تعالى، سمة هامة في حياة المؤمن، لما يتعرض له من كُرَب وخطوب وإذا اعتصم بالله تعالى هُدي إلى الصراط المستقيم، ثم قال عليه السلام: {وقولَهُ مرآته}، قول الله تعالى هو آي القرآن يتخذها المؤمن مرآة، يرى فيها الحق ويتجلى من خلالها الصدق ويذهب بها الباطل.

التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل.

قال عليه السلام: {فمرة ينظر في نعت المؤمنين}، ينظر المؤمن في آي القرآن، ثم ينظر أوصاف المؤمنين وسماتهم فيه، ويحاول أن يجسد نعوت المؤمنين على واقعه وواقع من يحوطه ويرعاه فهو مسؤول عن نفسه ومن يرعاه، {فمرة ينظر في نعت المؤمنين وتارة ينظر في وصف المتجبرين}، وإذا نظر في وصف الله تعالى للجبابرة الطغاة، حاول أن لا ينعكس ذلك على سلوكه.

العرفان الإلهي في واقع المؤمن.

قال عليه السلام: {فهو منه في لطائف}، أي أنه يرى اللطف الإلهي والنعم التي أغدقها الحق تعالى عليه، فهو في لطفه تعالى، أما قوله : {ومن نفسه في تعارف} أي عارف بنفسه، تركز الروايات على معرفة النفس، وهي المعرفة لها بالفقر والاحتياج إلى الله تعالى، والمؤمن يرى الله تعالى اللطيف الخبير العالم باحتياجه، لذا أكدت الروايات بأنّ معرفة الله تعالى مرتَّبة على معرفة النفس، قال النبي (ص) : {من عَرَفَ نفسَهُ فقد عَرَفَ ربَّه}[2].

اليقين والطهارة في نفس المؤمن.

قال عليه السلام: {ومن فطنته في يقين}، للمؤمن إيقان واطمئنان بأنّ ما لديه من معارف حقة توصله إلى شاطئ الأمان وساحل النجاة ، {ومن فطنته في يقين، ومن قدسه على تمكين} الصفات التي لديه وهي صفات الطهر والفضيلة متمكنة في ذاته، تجسد أركان شخصيته، فلا تهزه العواصف

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٩.

قال الإمام الحسين (عليه السلام) : (إن المؤمن اتخذ الله عصمته وقوله مرآته ، فمرة ينظر في نعت المؤمنين ، وتارة ينظر في وصف المتجبرين ، فهو منه في لطائف ، ومن نفسه في تعارف ، ومن فطنته في يقين ومن قدسه على تمكين).

[2]- عوالي اللئالي لابن ابي جمهور الاحسائي ج٤ ص١٠٢.

ولا تحركه الرياح، أما غير المؤمن فيتأثر بسرعة، ويسير خلف السراب، {ومن قدسه} أي من طهارته، يبين الإمام الحسين عليه السلام هذه الجنبة الهامة، جنبة الطهارة في شخصية المؤمن وأنها وصلت إلى حدٍ يتجسد بها الطهر اقتداءً بأهل البيت عليهم السلام ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب)، طهارتهم من عند الله تعالى، وإذا اقتدى المؤمن بهم عليهم السلام تمكنت الطهارة من ذاته.

القرآن قيد عن الهوى.

أجمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً من المعاني فقال صلى الله عليه وآله وسلم: {المؤمن قيّده القرآن عن كثير من هوى نفسه}[1]، الفارق بين المؤمن وغيره أنّ غيره يتبع هواه، أما المؤمن فينظر إلى القانون وهو: أوامر الله تعالى ونواهيه، فلا يعمل بهواه وإنما بما أمر به الحق تعالى.

السيطرة على الشهوة.

الطهر في شخصية المؤمن جد هام، وأكدته الروايات، وأعطت ضماناً بالجنة لمن جسد في شخصيته بعض الصفات، قال الإمام الصادق عليه السلام: {المؤمن لا يغلبه فرجه ولا يفضحه بطنه}[2]، أي أنه يسيطر على شهواته، أما غير المؤمن فيتأثر بشهواته، وسرعان ما ينطلق وراءها، فيؤثر الجنس تأثيراً بالغاً في غير المؤمنين، أما المؤمن فهو وبالرغم من قوة الغريزة لديه لكنه يسيطر عليها بإيمانه، أما قوله عليه السلام: {ولا يفضحه بطنه} ليس المراد به الطعام الذي يتناوله، وإنما المراد به المعنى الأعمق أي أن لا يأخذ ما ليس له، بل يسير على وفق ما أمره الله به، فيقيّد زمام شهواته، ولا يتعدَ على الآخرين في أموالهم وبذلك يَسعد الواقع الاجتماعي ويكون المؤمن لبنة في بنائه لأنه يسود المؤمنين في المجتمع العفاف والطهر والفضيلة.

المطلب الثالث: البعد العقدي للشرك في الإسلام

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٨.

[2]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٢٠٨.

القسم الأول: المائز بين المظهر العبادي التوحيدي والشركي.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء:١١٦) صدق الله العلي العظيم.

أكد الأنبياء والرسل على توحيد الله تعالى وشجب الشرك واستنكاره، ذلك أنّ الشرك بالله كما تحدث عنه القرآن يؤدي بالإنسان إلى أن يهوي في مكان سحيق، ويبتعد عن جادة الصواب، لذا أكّد الأنبياء والرسل والأئمة من أهل البيت عليهم السلام على توحيد الله وشجبوا الشرك به، مبينين الأنحاء المتعددة التي تؤدي بالإنسان إلى الانسلاخ من مكانته الرفيعة إلى مكانة وضيعة لشركه بالله تعالى.

أقسام الشرك..

للشرك بالله أقسام متعددة، كالتوحيد لله تعالى، وأهم أقسامه ثلاثة:

الأول: الشرك في الذات

ومعناه الإيمان بوجود ذوات متعددة، وهو ما يتنافى مع كون الله تعالى واحداً أحداً فرداً صمداً، فإذا اعتقد الإنسان بأنّ الذات المقدسة متعددة في وجودها، فقد أشرك في توحيد الذات، وقد أكد الإسلام على هذا التوحيد من خلال سورة التوحيد التي تحدثت عن معانٍ متعددة من توحيد الله، أهمها توحيد الذات المقدسة، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فذات الباري واحدة، ومن اعتقد بأنها متعددة في وجودها فهو مشرك في مرحلة توحيد الذات.

الثاني: الشرك في الخالقية.

ومعناه الاعتقاد بتعدد الخالق، أي كما أنّ الله خالق، فهناك من يشاركه في إيجاده وخالقيته للخلق، ونقصد من كلمة خالق المبدع، بمعنى أنّ من أبدع الكون وأفاض وجوده هو الباري تعالى، لا شريك له في إيجاده وإبداعه وخالقيته لعالم الوجود بكل أشكاله وأنماطه، فهو الخالق المطلق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:٢١)، أي أنّ الله هو

الخالق لكم ولجميع عوالم الوجود التي كانت قبلكم، وتركز الآية على أنّ استحقاق الله تعالى للعبادة يترتب على خالقيته، لذلك، بدأت بـــ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، ثم ذكرت لماذا نعبد الله؟ لأنه ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، وخلق أيضـــاً عوالم الوجود التي كانت قبل وجودكم، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، إذاً الشرك بالله في الخالقية هو الاعتقاد بأنّ عالم الكون والوجود أبدعه أكثر من مُوجد، أما التوحيد فهو أن يُعتقد بأنّ وجود الكون بكل ما فيه انبثق من الواحد الأحد، وهو الله تعالى.

الثالث: الشرك في العبادة.

هذا القسم من أقسام الشرك موضع تساؤل، ويحتوي أبحاثاً معمقة، من الضروري للمؤمن أن يتعرف عليه، ويعي حيثياته، لأنّ العبادة لا تكون إلا لله، قال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ﴾(يوسف:٤٠)، وقال أيضاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٥). فمن اعتقد بوجودٍ يستحق العبادة غير الله تعالى فهو مشرك في مرحلة التوحيد في عبادته.

الفرق بين الشرك و التوحيد.

تكمن ضـــرورة التعرف على هذا النحو من التوحيد، لكونه مورد اختلاف نظر لدى بعض فرق المســـلمين، وفيه مطالب عميقة، لابد للمؤمن الموحد أن يتعرف على الحيثية الدقيقة لمعنى توحيد الله في عبادته وعدم الإشـــراك به في مرحلة عبوديته كي لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه بعض المسلمين وتصور أنّ هناك نحواً من الشرك في بعض المظاهر العبودية، غير أننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد أنماطاً متعددة من الأعمال التي يقوم بها الإنســـان، إذا نُظر إليها بادئ ذي بدء قد تماثل ما يقوم به المشرك، لأنّ الفرق بين التوحيد والشرك في العبادة ليس في صورة العمل المأتي به، باعتبار أنّ العمل المأتي به من قِبَل الموحد والمشـرك واحد في الشـكل والقالب، إذن كيف نفرق بين التوحيد والشـــرك في عبادة الله؟ إن التفريق بينهما ليس في الصـــورة والشـــكل للعمل المأتي به أو في واقعه الخارجي، بل في وجود المضمون الذي يكون لدى العابد أمام المعبود.

وكي نبين الفارق بين التوحيد والشـرك في العبادة نذكر بعض المظاهر العبادية المشـتركة بين المشرك والموحد من خلال تسليط الضوء على أمرين:

الأول: الطواف حول الكعبة وتقبيل الحجر.

هناك أنماط عبادية يمارسها المشركون قبل مجيء الإسلام، كالطواف حول البيت، وتقبيل الحجر الأسود، وغيرها من الأعمال التي يقوم بها الموحدون في طوافهم حول البيت العتيق، وذلك يعني أنّ صورة العمل المأتي بها من قبل المشرك والموحد واحدة، إلا أنّ الفارق الجوهري بين العمل الذي أتى به الخليل عليه السلام في طوافه بالبيت العتيق وأتى به الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء والرسل عليهم السلام يكمن في جوهر العمل المنبثق من العابد تجاه المعبود، كما سوف نبين ذلك لاحقاً.

الثاني: السجود لغير الله.

يمثل السجود أهم أنماط العبادة لكونه يشكل غاية الخضوع لله، إلا أنّ السجود قد يشترك فيه الإنسان الموحد والمشرك، بمعنى أنّ المشرك إذا سجد لله مع إشراك غير الله في هذا السجود، سيشترك مع الموحد في السجود لله تعالى، لكن المشرك عبادته شركية، أي أن السجود لغير الله قد يكون شركاً وقد يكون توحيداً، وذلك ما ينبغي أن يقف الموحد على حدٍ فيصلٍ فيه، كي يتاح له أن يدرك عمق المضمون التوحيدي ويتعرف على النمط الذي يؤدي به إلى الشرك، إنّ الله تعالى أمر ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام وهو على حد السجود لله، لأنّ السجود لآدم عليه السلام يمثل توحيداً من لدُن الملائكة لله تعالى، فمن يسجد من الملائكة لله، أو يسجد لآدم عليه السلام فهو موحد، والسؤال هنا لماذا يأمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام بديع فطرته؟ سبب ذلك – كما تحدثت الروايات – أنّ السجود في حقيقته لا يمثل عبودية لله إلا إذا أضيف إليه إضافة معينة سنتحدث عنها لاحقاً، وهكذا أيضاً سجود يعقوب عليه السلام وأم يوسف وأخوته ليوسف عليه السلام، لا يمثل شركاً بالله، وإنما هو توحيد لله تعالى.

شرائط كون العمل عبادياً لله تعالى.

ويحسن بنا هنا أن نؤكد على ذلك المضمون الذي يعطي العمل الخارجي معنى التوحيد ويبعده عن الشرك، وهو ما ركّز عليه العلماء عندما قالوا: لابد من توافر ثلاث حيثيات في العمل الخارجي تعتبر بمثابة الشرائط التي إذا وجدت أصبح العمل عبادة لله تعالى، هذه الحيثيات هي:

الأولى: الاعتقاد بأنّ المعبود هو الله وحده.

ويعني ذلك جعل العمل المأتي به لله الواحد الأحد، فسجود الملائكة لآدم عليه السلام ليس عبادة لغير الله تعالى، لأنّ الملائكة تعرف أنّ آدم عليه السلام ليس هو الله، وإنما سجدوا تكريماً لآدم عليه السلام، وهكذا سجود يعقوب عليه السلام لابنه يوسف عليه السلام، لا يمثل عبودية ليوسف عليه السلام، وإنما يمثل عبودية للحق تعالى، أي أنّ السجود إذا كان يعتمد على حيثية أنّ المسجود له المعبود هو الإله الواحد الأحد الذي لا شريك له في ذاته، فهو عبادة لله تعالى.

الثاني: استقلال المعبود في مالكية التصرف في الكون.

بأن يعتقد الساجد أنّ المسجود له المعبود هو من يملك التصرف في الكون على نحو الاستقلال، بمعنى أنه المتصرف في عوالم الوجود، ذلك أنّ التصرف في عالم الخلق له جهتان:

الأولى: أن يكون تصرفاً استقلالياً.

الثانية: أن يكون تصرفاً غير استقلالي.

والإنسان والملائكة لهما نحو من التصرف في الكون، لكنه تصرف في عالم الوجود ليس بالاستقلال بل تصرف تبعي، بمعنى أنّ الله أفاض علينا القدرة التي نستطيع من خلالها التصرف في عوالم الوجود، وهو ما تحدث به القرآن بشأن الملائكة، قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (النازعات:٥)، ومعنى الآية: أنّ الله تعالى جعل بعض الملائكة تُدبر بعض عوالم الوجود بإذنه تعالى، وليس لها استقلال في تصرفها، فتصرف الإنسان والملائكة في عالم الخلق تصرف تبعي وليس استقلالياً، لأنّ الله تعالى هو من يملك التصرف الاستقلالي الكامل في عالم الوجود.

الثالث: قدرة المعبود على تلبية حاجات العابد.

هذه حيثية مهمة، لأنّ الساجد أو العابد يعتقد أنّ المعبود ليس فقط متصرفاً في الكون بالاستقلال، بل أيضاً يستطيع أن يجيب ويلبي للإنسان كل ما يحتاج إليه، بالخصوص في حالة الشدة، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل:٦٢). وهذه الحيثيات الثلاث لابد أن تتوافر للعابد كي تكون عبادته على وفق صراط قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥)، فالمظهر العبادي في الخارج كالطواف أو السجود قد يشترك بين الموحد والمشرك، لكن

مع إضـــافة هذه الحيثيات الثلاث يكون العمل المأتي به من لدُن العابد عبادة توحيدية، أما مع عدم وجود هذه الحيثيات تكون العبادة فيها إشراك بالله تعالى.

القسم الثاني: المظاهر العبادية بين الواقع التوحيدي والشركي.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَـاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء:١١٦) صدق الله العلي العظيم.

الفارق بين واقع التوحيد والشرك.

اسـتعرضـنا ملاك التوحيد والشـرك في المظهر العبادي، وذكرنا أنّ الصـورة الخارجية والأمر المأتي به خارجاً لا يُعد شـركاً لتشـابهه مع العمل الذي يأتي به غير الموحد، فالشـرك والتوحيد ليس بالتشـابه في الصـورة، وإنما لابد من توافر خصـائص في العمل المأتي به ليندرج تحت عمل الموحد، وتلك الخصائص هي الحيثيات الثلاث التي ذكرناها:

الأولى: أن يعتقد الآتي بالعمل أنّ ما أتى به من عمل هو لله، الإله، الواحد، الأحد.

الثانية: إنّ الإله هو المالك للتصرف في شؤون الكون.

الثالثة: إنّ الإله هو الذي يسـتطيع إجابة الداعي إذا دعاه اسـتقلالاً. وذكرنا أنّ هذه الحيثيات الثلاث مستقاة من الجمع بين آيات القرآن الكريم، التي تشير إلى هذا المعنى.

مظاهر عبادية بين التوحيد والشرك.

سـوف نسـتطرد في ذكر بعض المفردات التي وقعت مثاراً للتسـاؤل والإشـكال، وأشـيبت بشيء من الغموض حتى أصبحت تُعد لدى بعض الناس من مظاهر الشرك، وهي ليست كذلك إذا نُظر إليها من خلال ما طرحناه من بحث متقدم، وسـوف نسـتعرض أهم المفردات التي وقع اللبس فيها:

الأولى: الشفاعة.

لابد من التأكيد في البدء على أنّ المسلمين اتفقوا على أنّ النبي صلى الله عليه وآله له شفاعة مدخرة في عالم القيامة عندما يحشر الناس إلى الله تعالى، وهذا النحو من الشفاعة بلحاظ عالم الغيب والقيامة، لا نريد أن نستعرضه لكونه محل وفاق بين المسلمين، وقد تعرض للشفاعة القرآن الكريم، لكن السؤال هنا، هل أنّ النبي صلى الله عليه وآله يشفع بعد موته في هذه الحياة الدنيا إذا تُوسل إليه وطُلب منه ذلك؟ وهل أنّ بقية الرسل والأنبياء والصالحين يمتلكون شفاعة؟

عند الرجوع إلى القرآن الكريم نجد أنّ الله تعالى حصر الشفاعة به في بعض الآيات: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(الزمر:٤٤). لكنّ هذا الحصر كما يبدو منه حصر إضافي، كما يقول علماء البلاغة؛ لأنّ بعض الآيات الأخرى قالت: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾(الأنبياء:٢٨). إذن الشفاعة لغير الله ممكنة إذا اقترنت برضاه تعالى، وشفاعة النبي صلى الله عليه وآله وبقية الرسل والأنبياء والأئمة والصالحين هي نحوٌ من التكريم للشافع لدى الله تعالى، وليست نحواً من التصرف الاستقلالي للشافع مع الله تعالى، لأنه لا يملك أحد نحواً من التصرف استقلالاً إلاّ الله تعالى، ويترتب على ذلك أنّ طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله أو من سائر الأنبياء والرسل والأئمة من أهل البيت عليهم السلام لا يُعد مظهراً من مظاهر الشرك، وقد أورد من توهم ذلك بعض آيات الذكر الحكيم مستدلاً بها على منع الشفاعة لغير النبي صلى الله عليه وآله في القيامة فقط، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾(يونس:١٨)، غير أنّ الآية تشير إلى أنّ هؤلاء يعتقدون بالله تعالى، لكنهم يتوجهون في طلب الحوائج لغير الله، فتوهم بعض أنّ الآية المباركة تمنع طلب الاستشفاع من عند أي صالح، لأنّ ذلك يشبه ما يقوم به المشركون، لكننا استعرضنا في البحث السابق المعنى العميق للاستدلال بالآية لأنها بدأت بقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾(يونس:١٨)، أي أنهم جعلوا العبادة لبعض الخلق من دون الله، ولم تُشر الآية إلى طلب المشركين للشفاعة من هؤلاء، بينما من يطلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله أو من سائر الأنبياء والرسل لا يعتقد أنهم يعبدون من دون الله، بل، يعتقد أنهم عباد لله، وهذا ما يقوم به المسلم تجاه النبي صلى الله عليه وآله في تشهد الصلاة: {أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد

أنّ محمداً عبده ورسوله}، إذن طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله مع الاعتقاد بأنه ليس معبوداً، بل لكرامته عند الله وأنّ العبادة لله تعالى وحده، يختلف عن العمل الذي يقوم به المشركون من عبادة غير الله، مع اعتقادهم بإلوهية الحق تعالى، لأنه مظهر عبادي من أقسام الشرك. وعليه فإنّ من يطلب الشفاعة ولا يعتقد أنّ المطلوب منه الشفاعة يستحق العبادة من دون الله، لا يُعد مشركاً، لكون المطلوب منه لا يمتلك حق التصرف باستقلال من دون الحق تعالى.

الثانية: الاستعانة.

في هذا السياق يتضح المعنى العميق لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥)، فإذا كان القرآن يحصر الاستعانة بالله فكيف تطلب الاستعانة عبر وسيط كالنبي صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم أو بعض الأنبياء والرسل والصالحين؟

ولابد من الالتفات هنا إلى أنّ الآية المباركة تحصر الاستعانة بالله على نحو الاستقلال، أما لو كان طلب الاستعانة بالآخرين من دون الاعتقاد بأنّ من يُستعان به سواءً كان من الأحياء أو الأموات لا يملك التصرف من دون الله؛ فلا يُعد ذلك شركاً، ذلك، لأنّ الموحد وغيره يشتركان في الصورة الظاهرية وهي طلب الاستعانة بغير الله، والفارق بينهما هو أنّ الموحد يعتقد أنّ طلب الاستعانة من غير الله لأنّ الله منح المستعان به قدرة كي يساعد بعض خلقه، ولا يُعد ذلك من أنحاء الشرك، لأنّ المدار في الواقع التكويني على أعمال وتصرف الناس، فإذا طلبتُ منك أن تُعينني وكنتُ أعتقد أنّ هذه الإعانة تملكها استقلالاً من دون الله فطلبي منك شرك، أما إذا كنتُ اعتقد أنك من عباد الله، وأنّ لك نحواً من التمكين بإذن الله تعالى فليس ذلك من الشرك.

الثالثة: القسم بغير الله.

وهكذا نفهم أيضاً أنّ كثيراً من المظاهر لا تُعد شركاً إذا نُظر إليها بالمنظور الآنف، كالحلف والقَسَم بغير الله. لأنّ القسم من الناحية المعنوية له معنيان:

الأول: القسم بالله، وهذا القَسَم يختص بالحق تعالى، لكونه مالكاً حقيقياً للكون، وبالقَسَم يؤكد على هذه المالكية الإلهية للكون، ولذلك لا يُقسَم في إثبات الحقوق الشرعية وإثبات حقوق الناس إلاّ بالله تعالى، بالإضافة إلى أنّ له ألفاظاً خاصة كلفظ الجلالة.

الثاني: القسم بغير الله، ويقصد به أنّ القسم بذلك الشيء لكرامته عند الله تعالى، كما أقسم الحق تعالى بغيره، ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ (الشمس:١،٢)، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ (الليل:١)، ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ (العصر:١)، وكقوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر:٧٢) لذلك، وهذه الأقسام المتعددة لا يمكن النظر إليها بنسق واحد، لأنّ القرآن تحدث عن أنحاء من القسم، ولكل نحو منها معطياته الخاصة ومداليله المحددة والمعينة، وينبغي أن ننظر إليه بنحو من العمق حتى نصل إلى أنّ فيه نحواً من الشرك أو لا. ولابد من التركيز على أنّ من يحلف بغير الله لا يعتقد أنّ المحلوف به معبود من دون الله، بل، يعتبره مخلوقاً له تعالى، لكن له كرامة عند الباري سبحانه.

وقد يقال في هذا السياق أنّ للحق تعالى أن يُقسِم بما شاء من خلقه وليس لخلقه أن يُقسموا إلاّ به تعالى، لكن هذا ليس بصحيح، إذْ لو كان القسم بغير الله غير سليم لم يصدر من الحق سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٨)، أي أنّ الله تعالى لا يقوم بأي عمل يتنافى مع المبادئ العامة، أو لا يندرج تحت القوانين الإلهية، فإذا كان القسم بغير الله تعالى من أقسام الشرك فلا يمكن أن يصدر عن الحق تعالى.

الخصائص الإلهية التي منحها الله للموجودات.

من هنا يحسن بنا أن نوضح معنى في غاية الأهمية وهو أنّ الله تعالى جعل لبعض خلقه خصائصاً، فللماء خاصية الإرواء، وللطعام خاصية الإشباع، وللعسل خاصية الشفاء، لكنّ هذه الخواص أوجدها الله تعالى في هذه المخلوقات، ولذا، تحدث القرآن الكريم عن تلك الخصائص من ناحية، وعن القدرة المطلقة لله تعالى من ناحية أخرى، قال الخليل عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء:٨٠)، فحصر الشفاء بالله تعالى، بينما في آية أخرى تحدث القرآن عن أنّ العسل له خاصية الشفاء، قال تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ ﴾ (النحل:٦٩)، وذلك لا يعني وجود تنافٍ بين حصر الشفاء به تعالى وبين كون العسل فيه شفاء، بل، بينهما غاية الانسجام لأنّ الله تعالى هو الذي أوجد خاصية الشفاء في العسل. وكذلك، نجد آيات تحصر الرزق بالله تعالى، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذاريات:٥٦،٥٨)، وآيات أخرى تُسند الرزق لغير الله، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ (النساء:٥). ولا يوجد تنافٍ بين الآيتين، ذلك أنّ الأولى تقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾، تحصر الرزق به تعالى على نحو الاستقلال كشأن من شؤون الربوبية، وغيره لا يمنح الرزق من دون الله، أما الآية الثانية فتقول: ﴿ وَارْزُقُوهُمْ ﴾، تسند الرزق لغير الله إذا كان عاقلاً راشداً لكون غير الله يرزق مما منحه الله تعالى من مُكنة أُعطيت له حيث لا يستطيع أن يرزق غيره إلاّ كذلك، وهكذا، نجد آية أخرى تقول: ﴿ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (التوبة:٧٤)، فالإغناء تارة يكون من عند الله، وأخرى من عند الرسول، لكننا نعلم أنّ إغناء الرسول لغيره ليس بالاستقلال، وإنما هو بفضل من الله تعالى منحه لرسوله (ص).

هذه مفردات ينبغي أن يُنظر إليها بالنظر الدقيق وعلى نحوٍ من التلاؤم والانسجام برد بعض المتشابه من آي القرآن الكريم إلى المحكم، والنظر فيما جاء من أحاديث عن المصطفى صلى الله عليه وآله وأدلة عقلية توضح حقانية الشرك والتوحيد في مدلوليهما.

القسم الثالث: التقرب والتفويض بين التوحيد والشرك.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس:٣١-٣٢) صدق الله العلي العظيم.

سوف نستعرض القرب الصحيح من الله تعالى مع إيضاح لمفهومي التفويض والاستقلال والحفاظ على الجانب العقدي لدينا، إذ أنّ التحقيق في هذه المسائل من الأهمية بمكان لما يترتب عليها من فهمٍ سليمٍ لعقيدة التوحيد الخالصة التي أمرنا الله تعالى والرسول صلى الله عليه وآله بالاعتقاد والتمسك بها.

مفهوم القرب من الله.

أبان القرآن الكريم أن تصور بعض المشركين لله تعالى باعتقادهم أنه بعيد عن خلقه لايسمعهم ولايستجيب لهم، لذا احتاجوا إلى موجود يُقربهم إليه، وهو تصور ليس بسديد، لأن الله تعالى أقرب موجودٍ إلى الخلق، وقد عُبّر عن هذا القرب في آي من القرآن الكريم بأبلغ العبارات، قال تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ (المجادلة:٧) وقال أيضاً: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ (الزمر:٣٦)، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦) والآيات تصحح التصور الموجود في أذهان المشركين.

التقرب بين التوحيد والشرك..

ما ذكرناه يقودنا إلى أهمية التفريق بين أمرين مختلفين:

الأول: ما يتصوره المشركون من كون الله تعالى بعيداً عنّا، ونحتاج إلى ما يقربنا إليه.

الثاني: الاعتقاد بقربه تعالى وعدم بُعده عن خلقه، بيد أننا نحتاج إلى التوسل إليه بعملنا الصالح وبأنبيائه ورسله والصالحين من عباده، ليس لأنه بعيد عنّا، وإنما لاعتقادنا بوجود كرامة جعلها الله لبعض خلقه وللأعمال الصالحة، والفرق بين الأمرين يكمن في أنّ هناك من يتوسل ببعض الخلق لاعتقاده بُعد الله عنه وبالتالي، لا يصل العمل إليه، وهو تصور مغلوط، ليس بسديد، أما إذا اعتقدنا بقرب الله تعالى منا، وعدم بعده عنا، إلا أنه توسلنا ببعض خلقه، لوجود كرامة لهم عنده تعالى، فهو تصور يتلاءم مع ما جاء في الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦)، وصف جميل يبين الله تعالى فيه مدى قربه من خلقه، مما يُرغِبُ العبد في التقرب والتذلل إليه تعالى، أي أنّ العبد لابد له من الاعتقاد بقرب الله تعالى منه، حتى يمكنه الدعاء والتوسل، سواءً كان بأسماء الله وصفاته أو بالعمل الصالح أو بأنبياء الله

ورسله والصالحين من عباده، أما التوسل بأسمائه مع الاعتقاد ببعده عن خلقه، فهو تصور مغلوط، لا ينسجم مع ما جاء من آي القرآن الكريم.

علاقة التفويض بالشرك.

إنّ ما أوقع بعض الناس في الشرك من حيث لا يشعرون مسألة الاعتقاد بتفويض الله تعالى أمور خلقه لبعض خلقه، كتفويض بعض الأمور للملائكة أو للجن وبعض الإنس أو أنّ الله فوّض بعض الكواكب في التصرف ببعض الأمور، فكل أنماط التفويض ليست بصحيحة، لأنّ الله تعالى لم يفوض شيئاً من أمر خلقه إلى خلقه، إذ هو الغني القادر على كل الأمور، وقد أوضحت الآيات القرآنية مدى سعة قدرته اللامحدودة .

ارتباط خصائص الموجودات بالتفويض.

هناك مسألة في غاية الأهمية لا بد من إيضاحها، باعتبارها تشكل مائزاً كبيراً وفارقاً دقيقاً بين التفويض وبين إجراء أمور الخلق مترتباً بعضها على بعضها الآخر، إن الله تعالى جعل لمخلوقاته خواصاً تتميز بها عن غيرها، فللماء خاصية، وللهواء خاصية ثانية، وللطعام خاصية أخرى، وهلم جرا، هذه الخواص لا تعني أن الموجودات تمتلك تفويضاً، إذ أنّ خاصية الإرواء للماء، لا تعني أن الإرواء مفوّض إليه أن يروي حتى لو أنّ الحق تعالى لم يودع هذه الخاصية فيه، وكذلك خاصية الإشباع للطعام، ما هي إلا اعتباراً وجعلاً منه تعالى، والإشباع في الطعام بسبب وجود خاصية فيه، والإرواء في الماء لوجود خاصية فيه أيضاً، وكذا الشفاء في العسل، والحال كذلك في العلل المُعدة، كما يُعبر الحكماء، فإنّ الزارع يقوم ببعض الإعدادات التي على أساسها ينبت النبات ويثمر الثمر، تعرف أن نهاية هذه السلسلة ترجع إلى الله تعالى، ولا يعتقد بوجود تفويض في المسألة.

شبهة الإنبات والزرع بين الله والإنسان.

وهنا شبهة قد تلتبس على كثير، مفادها أنّ الله تعالى أورد في الذكر الحكيم ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ (الفتح:٢٩)، نَسَبَ الزرع إلى الزارع وأثبته له، وفي آيةٍ أخرى نفى الله تعالى نسبة الزرع للإنسان ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (الواقعة:٦٤)، ولا تنافٍ بين الآيتين، فإن المثبتة نسبت الزرع إلى الزارع لكونه علة مُعدة، يقوم بالبذر والسقي وتهيئة الأرض الصالحة للزراعة وغير ذلك،

أما الآية النافية، فتنفي عن الإنسان الزرع باعتبار أنّ سلسلة العلل ترجع إلى الله تعالى، وذلك كقول: إن الطبيب يشفي، فتارةً يكون القول صحيحاً، إذا اعتقد أنّ الطبيب سبب في الشفاء، والشافي الحقيقي هو الله تعالى، وتارةً يكون غلطاً، وذلك إذا أعتقد بأنّ الشفاء يرجع إلى الطبيب فقط دون أن يكون لله دخل فيه، إذ أنّ ذلك شرك لكون الحق تعالى هو المؤثر المستقل الوحيد في عالم الوجود، وكل ذرة وجُزيء من جزيئات العالم، والمسألة تدور مدار الاعتقاد وعلم المعتقد بما يعتقد به، فقد تكون عبارة واحدة صادرة من شخصين، تُصير احداهما المتكلم مشركاً والأخرى تصيره موحداً، فمن يعتقد أنّ الزرع يزرعه الزارع دون دخلٍ لمشيئته تعالى في إنباته فهو مشرك، ومن يعتقد أنّ الزارع جزءُ علة مكّنه الله وأفاض عليه القدرة وجعله علة معدة فهو موحد، لكونه يعتقد أن نهاية المطاف والسلسلة ترجع إلى الله تعالى الذي يتمكن من سلب الزارع القدرة التي أعطاه إياها، والأمر جارٍ في جميع عالم المؤثرات، من الملائكة التي تدبر بعض أمور الخلق إلى ما شاء الله، وليس هذا نوعاً من التفويض، فإن الله تعالى لم يأمر الملائكة بالتدبير ثم اعتزل عن الخلق لا شأن له بهم ولا شأن للملائكة به، وإنما الله هو القادر المهيمن المحي المميت الرازق والمفيض الدائم في كل عوالم الوجود، كما عبر الفلاسفة، ولو انقطع فيضه لأدى ذلك إلى فناء الوجود بأسره، لا وجود لهذا العالم إلاّ بارتباطه بالحق تعالى، كالنور المنبثق من السراج، إذا أنطفأ السراج انطفأ وزال نوره، ولله المثل الأعلى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (النحل:٦٠).

المستقل بالتأثير في الكون هو الله.

حديثنا يوضح لنا الفارق الكبير بين حيثيتين:

الأولى: التفويض باعتباره أمراً شُجب ونَدَدت به طائفة من الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

الثانية: إنّ عالم الوجود يترتب بعضه على بعضه الآخر في سلسلة من العلل والمعلولات، وكل موجود له خواص تُؤثر في غيره مع تأثره بغيره، ونهاية المطاف رجوع الكل إلى الله تعالى، وذلك ما أوضحه القرآن الكريم في طائفة من آياته المباركة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ (يونس:٣)، واستواء الله على عرشه هو هيمنته المطلقة على كل الوجود، من غير أن يعتزل عن خلقه، بل تدبيرهم يرجع إليه، وليس لغيره الاستقلال في ذلك.

رجوع الوجود كله إلى الله.

أكد القرآن في آيات كثيرة رجوع الخلق بأسره إلى الله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف:٥٤)، أي أن حيثيات الوجود بشراشره –كما عبر الفلاسفة– يرجع إلى الله، وليس هناك خالق ولا مدبر غيره، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾، والربوبية ترجع إليه وحده لا شريك له، ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، هو الموجد لهذه السماوات والأرض، وبيده كل شيء، وحركة النهار والليل وتعاقب كلٌ منهما مع الآخر بأمرٍ راجعٌ إلى الله ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾، وما يصدر من تأثير للقمر في حركتي المد والجزر، وتأثيرات الشمس الواسعة في عالم الوجود لا ترجع للشمس أو القمر استقلالاً، بل أن جميع المؤثرات ترجع للحق سبحانه وتعالى، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾، جميع أمر الخلق يرجع إليه، ولو كان غيره مؤثراً دون إذنه لكان شريكاً له في خلقه مستغنياً عنه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، والآية التي استهللنا بها الحديث تشبه هذه الآية، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾، فإن الرزق يرجع لله، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، ويعني ذلك أنّ بعض المشركين يعتقدون بالله، إلا أنهم يَدعّون استقلالية بعض الخلق في تدبيره عن الله تعالى الذي لا شريك له، والحق أن كل شيء يرجع إليه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (يونس:٣٢،٣١).

القسم الرابع: برهان النظم بين إثبات التوحيد ونفي الشرك.

قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:٢٢)

صدق الله العلي العظيم.

التناسق الكوني دليل الوحدة.

استعرض القرآن الكريم أدلة متعددة على توحيد الله تعالى وبطلان الشرك، من أهمها ما توضحه الآية الآنفة الذكر، حيث ألفت الحق تعالى انتباه الإنسان إلى أنّ الدليل على بطلان الشرك هو التناسق والانسجام في النظام الكوني، فلا فساد في الكون، أما لو تعددت الآلهة وكان للسماء إله وثانٍ للأرض وإله للمياه وآخر للنجوم، وما إلى ذلك؛ لاقتضى التعدد فساد الكون، إذن وحدة الكون وانسجامه دليل على وحدانية الله وعدم تعدد الآلهة.

التعاون بين أجزاء الكون والخالق المبدع.

استعرض العلماء حقيقة برهان النظم ببيانات مختلفة لعل من أروعها ما نطلق عليه: خدمة بعض أجزاء الكون لبعضها الآخر، إنّ النظم العجيب في الكون، دليل بيّنٍ على وحدانية الله وعدم تعدد الإله فيه؛ لأنّ التعدد يقتضي اختلاف النظم، بينما الاتساق والانسجام بخدمة بعض أجزاء الكون لبعضها الآخر، دليل بَيَّن على وحدانية الحق تعالى، إنّ بعض أجزاء النظام يخدم بعضها الآخر، من غير أن يشذ جزء عن ذلك، ولو كان النظام غير راجع للحق تعالى، لما تأتى لأفراد الطبيعة أن يخدم بعضها بعضها الآخر، هذه الخدمة نوع من التسخير والتقدير يرجع لحكمة الحق تعالى في أن يسير النظام باضطراد دون تفتت بين أجزائه، أو غلبة لبعضها على بعضها الآخر، بما يؤدي إلى فساده بتعدد الآلهة؛ إذ لو كانت متعددة لأصبح من الطبيعي أن يحاول كل منها توسعة سلطانه ونفوذه، بالقضاء على غيره من الآلهة، مما يسبب الاضطراب والفساد العام والانهيار الكامل لكل أجزاء النظام الكوني، بينما نرى الكون سائراً نحو منحى التكامل الرائع و الجميل في كل مفردةٍ من مفرداته، وذلك دليل بيّن على رجوع الكون إلى الواحد الأحد، الذي خلقه وقدره ثم السبيل يسره، على وفق الأنظمة والقوانين التي ابتدعها بالدقة والإحكام، حيث لا يمكن لأحد أن يجد خرقاً، ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ (الملك:٣). وقد أورد الحق تعالى آيات متعددة في انسجام النظام الكوني، قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:٩١)، تبين الآية حقيقة غاية في الوضوح، مفادها أنّ تعدد الآلهة يستدعي أن يكون بعض الآلهة أكثر سعة في نفوذ سلطانه من الآخر بما يؤدي إلى فساد

الكون، بينما نجد الكون يسير باضطراد بيّنٍ نحو التكامل، وبمجرد التفات الإنسان إلى هذه الحقيقة سيدرك بشكل سريع وحدانية الله وينبذ الشرك.

آثار الشرك في القرآن.

اعتبر القرآن الكريم أنّ من لا يلتفت إلى حقيقة توحيد الله، ظالم لنفسه؛ لأنه قد أشرك بالله دون أن يرجع إلى فطرته أو يُحكِّم ميزان عقله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٤٨)، أي أنّ المشرك قد صادم مقتضيات الوجدان وردّ الدليل الواضح الدال على الفطرة، قال تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج:٣١)، برهان وجداني يدعو الإنسان إلى تقبل التوحيد ونبذ الشرك، لوجود الانسجام والتناغم بين أجزاء الكون، فلا مندوحة للإنسان إلاّ أن يسير على وفق ما يدعوه إليه الوجدان، ويعضده الدليل العقلي البين، ويؤكده الذكر الحكيم.

آثار الشرك في الروايات:

أبان الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام في أحاديث كثيرة عِظَمَ عقوبة المشرك بالله، قال صلى الله عليه وآله لابن مسعود: «يا بن مسعود، إياك أن تُشرك بالله طرفة عين وإنْ نُشرت بالمنشار أو قُطعت أو صُلبت أو أُحرقت بالنار»[1]، يبين النبي صلى الله عليه وآله أنّ الإنسان إذا اعتمد على الدليل وأذعن بعمق معطيات الوجدان، فوصل إلى وحدانية الحق لا يمكن أن يتخذ إلهاً غير الله أو أن يقول بتعدد الآلهة أو يعبد إلهاً غير الحق تعالى، لأنّ جميع المعطيات الآنفة تدعوه إلى أن تكون شجرة التوحيد لديه باسقة الثمار في عمق عقله وكنه وجوده، فلا يلتفت إلاّ ويرى الحق الواحد الأحد الفرد الصمد الحي القيوم، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً.

أوهام تدعو إلى الشرك:

١- ميزان الحكمة للريشهري ج٢ ص١٤٣٦.

قد يتســـاءل بعضٌ بأنّ معطيات التوحيد إذا كانت منســـجمة مع الفطرة والدليل، فلماذا يتخذ بعض الناس إلهاً غير الله أو يعبد غير الحق تعالى؟

وحتى نجيب على التساؤل لا بد من التأكيد على ما استعرضناه في البحوث السابقة من أنّ هناك أوهاماً تدعو الإنســان إلى التوجه لغير الله، لكن ســرعان ما يتبين له بأنّ الحق هو الإله دون ما سواه، ونوجز البحث في تلكم الأوهام في نقطتين:

الأولى: المؤثرات البيئية التي يعايشها الإنسان.

إنّ للبيئة التي يعيشــها الإنســان دوراً كبيراً في زرع الأوهام، وقد أومأنا في بحوث متقدمة إلى الحديث النبوي المشهور، « كل مولود يولد على الفطرة ، فما يزال عليها حتى يعرب عنها لسانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1]، أي أنّ الإنسان إذا لم يعش إلاّ في المحيط الطبيعي الذي لم يتأثر بالعوامل العقلية المســـبقة – كديانة الأبوين – فإنّ وجدانه يدعوه إلى التوحيد، أما لو كان المحيط منحرفاً عقدياً فســـوف يكون أحد الروافد التي تجعله يشـــرك بالله، كما ورد على لســـان المصطفى صلى الله عليه وآله.

الثاني: الشبهات والمغالطات.

إنّ كثيراً من الشــبهات يصــعب على الإنســان حلها أو الخلاص من شــراكها، وليس ذلك خاصــاً بالإنســان الاعتيادي بل حتى من وصــل إلى مرحلة متقدمة من العلم، فإنه قد لا يســتطيع في بعض الأحيان أن يرد بعض الشـــبهات التي تدلل على وحدانية الله ونبذ الشـــرك، فالفيلســـوف الإنجليزي (ديفيد هيوم) يجادل في برهان النظم – الذي أوردناه آنفاً – ويرى أنه لا يمكن الاستدلال به على وحدانية الحق باعتبار أنّ النظام والاتســـاق يرتبط فقط بعالم الطبيعة؛ ولا يجوز أن نُســـري النظم الموجود في عالم الطبيعة على الخالق والمبدع، لوجود فرق بين الحق والخلق وما يســـري على الخلق لا يمكن تعميمه، بحيث يوصـــلنا إلى أنّ النظام يدل على وحدانية الخالق تعالى، ورغم أنّ هذا الفيلســوف عالم إلا أنه وقع في شــبهة لم يســتطع الخلاص منها، لأنه لم يلتفت إلى أنّ القوانين العقلية عامة لا تختص بمجالٍ واحد، بل هي غير قابلة للتخصـــيص، تَطّرِد في كل المجالات؛ وعندما نجري قانوناً عقلياً كالاســتحالة، ونقول باســتحالة الجمع بين النقيضــين وارتفاعهما إلاّ في المســجد، فذلك

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص٧٨١.

خطأ فادح، لأنّ القانون العقلي عام، ومتى ما ثبت عموم القانون ثبت ســـريانه، وإذا ثبت في عالم الخلق ثبت في عالم واجب الوجود تعالى، لذا، نســـتطيع رد من يقول: إنّ البراهين التي يســـتدل بها الإلهيون – الذين يؤمنون بوحدانية الله – غير محتملة أو يمكن الخدش فيها ؛ بأنّ معطيات آيات القرآن الكريم، معطيات فطرية أبانها الله تعالى في الآية التي افتتحنا بها الحديث، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:٢٢)، فيشـعر الإنسـان بفطرته أنّ الفسـاد مع تعدد الإله والشرك مما يعني أنّ الصلاح والخير مع وحدة الإله والتوحيد الخالص.

القسم الخامس: الدعاء بين التوحيد والشرك.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠) صدق الله العلي العظيم.

الدعاء من المفاهيم التي أُوليت عنايةً كبيرةً، غير أنّه وقع محلاً للغموض بســـبب التباس فهم بعض آي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وهل أنّ كل دعاء لغير الله يتضمن عبادة غير شرعية، تستلزم أن يكون الداعي من المشركين أم أنّ للدعاء أنواعاً مختلفة، وأن بعض أقسامه يتضمن عبادة غير الله فيكون شركاً، وبعضها الآخر ليس من أقسام الشرك.

ارتباط الدعاء لغير الله بالشرك.

نددت طائفة من آيات القرآن الكريم بالشرك في الدعاء، لكونه يمثل أعلى درجات العبادة، بل مخ العبادة، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله، ومن تلك الآيات المنددة بالشـرك في الدعاء، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (المائدة:٧٦)، وفي آية أخرى قال الحق: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:٧١)، في الآيتين تنديد بالدعاء لغير الله تعالى، ويعود السـبب إلى أنّ غير الله

لا يملك نفعاً ولاضـراً، وأنّه هو السـميع للداعي، العليم بما في خلده، بالإضـافة إلى ذلك فإنّ الآية الأخرى تبين أنّ دعاء الغير من دون الله يستلزم الرجوع على الأعقاب بعد إبصار الهداية والوصول إلى إدراك الحق، وبالتالي يجعل صـاحبه في وادٍ من الحيرة، وريبةٍ من الضـلال، بعْد أن كان بإمكانه أن يصل إلى هداية الحق تعالى بأمره بإسلام وجهه لرب العالمين.

إذن هناك طائفة من آي القرآن الكريم تبين بوضـوح أنّ دعاء الإنسـان غير الله يسـتلزم الشرك، بيد أننا لابد أن نقف على حقيقة المراد من هذه الآيات.

الاستعانة بين الأحياء والأموات.

من المتعارف لـدينـا دعـاء الأحيـاء والأموات، وذلـك يـدفعنـا للبحـث عن المعنى الـدقيق للدعاء، إذ أنّ الدعاء طلب يطلبه الداعي من المدعو بأن يُعينه في إنجاز مهمة أو كشـف مُلِمة، فهو استعانة بالمدعو في ذلك، وديدن العقلاء الاستعانة بالأحياء في أمورهم للوصـول إلى مآربهم دون أن يتوهم أحد منهم أنّ دعاء الحي يستوجب شـركاً، فلو طُلب من أحد الأحياء الإعانة في أمرٍ أو دفع بلاء، لما توهم أحد من الناس اندراج ذلك تحت الشـرك، بل يرى العقلاء أنّ من حق الإنسـان الاستعانة بقدرات أخيه الإنسان في الوصول إلى مآربه وتحقيق مقاصده دون إشكال.

شبهة الشرك في التوسل بالميت.

وما وقع مورداً للإشـكال هو الدعاء والاسـتعانة بالموتى، فقد تصـور بعض العلماء أنّ دعاء الميت والتوسل به إلى الله يستوجب الإشراك بالله، بينما دعوة الحي والتوسل به ليست من الشرك.

وكي نجيب على الإشـكال لا بد من التأكيد على عدم الفرق في حقيقة الدعاء – إذا كانت تستلزم شركاً – بين دعوة الحي والميت، لأنّ الملاك واحد، لكون غير الله لا يملك نفعاً ولاضراً، ومن يملك النفع والضـر هو الله تعالى، وإذا اعتقد الداعي أن المدعو يملك نفعاً وضـراً من دون الله فقد وقع في الشـرك، من غير فرق بين أن يكون المدعو من الأحياء أو الأموات، ومن هذا البيان يتضـح الوجه في أنّ الدعاء للمدعو لا يكون شـركاً إلاّ باعتقاد الداعي أنّ المدعو يمتلك النفع والضـر من دون الله، أما إذا كان الداعي معتقداً أنّ من دعاه لا يملك نفعاً ولاضـراً من دون الله – سـواءً كان

المدعو من الأحياء أو من الأموات – فإنّ الدعاء لا يستلزم شركاً، ولابد هنا من الالتفات والتركيز على كلمة ﴿مِن دُونِ اللّهِ﴾، التي نجدها في آيات متعددة، لأنّ من يريد أن يحمل الآية على معنى دون التوجه إلى معطيات آي القرآن الكريم في الوصـــول إلى الدلالة التي يدل عليها القرآن يقع في اشتباه ولَبسٍ عظيمين، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (المائدة: ٧٦)، أي أنّ من يملك النفع والضر هو الله تعالى، أما من يتوجه بأنبياء الله ورسله وعباده الصالحين وملائكته المقربين فهل يتوجه بهم لاعتقاده أنّهم يمتلكون نفعاً وضراً من دون الله أم لا؟

لا أحد ممن يتوســل خصــوصــاً من المنتمين لأهل البيت عليهم الســلام يعتقد أنّ الرســل والأنبياء والأئمة أو الملائكة يملكون نفعاً أو ضراً من دون الله، بل يعتقد الجميع أنّ النفع والضر بيد الحق تعالى. أما الآية، ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ (الأنعام: ٧١)، فهي تبين حال من يدعو غير الله باعتقاد أنه يمتلك نفعاً وضــراً من دون الله، لأنّ ذلك من الشرك بالله تعالى.

الاستعانة بالأنبياء والصالحين ليست شركاً.

هناك مسألة في غاية الأهمية ترتبط بالدعاء لا بد من إيضاحها، وهي أنه لا إشكال في كون الدعاء عبادة، بل يمثل أعلى درجاتها، قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)، إذن أطلق القرآن الكريم على الدعاء عبادة، بل من أعظم أقسام وأنواع العبادة، وتركه استكبار عن عبادة الله، قال صلى الله عليه وآله: (إنّ الدعاء مخ العبادة)، لكن كونه مخ العبادة لا يعني أن يكون دعاء غير الله شــركاً، إلا إذا اعتقد الداعي أنّ المدعو يمتلك النفع أو الضــر من دون الله تعالى، أما إذا اعتقد أنّ المدعو يمثل موئلاً وموروداً لتكريم الحق تعالى، ومحلاً لجريان اللطف، وأنه مجرى للفيض الإلهي، وأنّ الله تعالى يجيب من توســل إليه بأنبيائه ورسله وعباده الصالحين لكونهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً، بل لأنهم يجسدون عمق العبودية لله

ونهاية الإخلاص لوجهه الكريم، فاستحقوا بالتوسل بهم أن يستجيب الله دعاء من دعاه ويكشف ضراء من ناجاه متوسلاً بهم، وهذا النوع من الدعاء والتوسل بهم لا يستلزم شركاً كما أوضحه القدماء والمُحدَثُون من علماء الفريقين سنةً وشيعةً، ولم يتوهم أحد بأنّ هذا النمط من الدعاء يستلزم الشرك بالله تعالى، وعليه فإنّ الدعاء إذا كان شركاً لكون المدعو ميتاً، فإنّ الدعاء من أنماط الشرك إذا كان المدعو من الأحياء، لأنّ الملاك واحد، وإذا كان الملاك –العلة – في نهي الله تعالى عن دعوة غيره هي أنّ المدعو لا يملك من أمره نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن أمر غيره، فسوف يتضح أنّ الله تعالى نهى في الآيات عن دعاء غيره، إذا كان الداعي يعتقد أن المدعو إله أو معبود يستطيع أن يجيب الداعي استقلالاً من دون الله، وذلك ليس هو الدعاء الذي ورد في الأحاديث بأنه مخ العبادة، لأنّ الدعاء ليس بمعنى واحد في كونه عبادة ويستلزم شركاً، فقد يكون الدعاء لا يستلزم إشراكاً بالله، لكون المدعو باعتقاد الداعي لا يملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، أي أنّ جميع صفات الربوبية والألوهية مسلوبة عنه، ويعتقد الداعي أنّ المدعو محل ومورد وموئل للطف الإلهي أي أنه مجرىً للفيض فقط.

مقارنة بين التوسل بالأنبياء والعمل الصالح.

بناءً على ذلك سيكون التوسل بالأنبياء والرسل والصالحين والملائكة على حد التوسل بالعمل الصالح، فكما أنّ التوسل بالعمل الصالح لا يستلزم شركاً –كما جاء في الروايات الصحيحة والصريحة– لأنّ العمل الصالح لا يملك نفعاً ولا ضراً، لكنه مفيد لكونه محلاً لرضا الله، كذلك دعاء الصالحين والتوجه بهم إلى الله والتوسل بحقهم لكون عبوديتهم خالصة لله، لا لكونهم آلهة في قِباله تعالى، ولذا لا تصلح الآيات أن تكون دليلاً على أنّ دعاء غير الله من الشرك بالمعنى الذي فهمه بعضٌ وفسّر الآيات على وفقه.

القسم السادس: الانسجام بين التوحيد والاستشفاع بالغير.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف:٨٦) صدق الله العلي العظيم.

اتضـــح أنّ الدعاء عبادة طبقاً لقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)، بل أنّه مخ العبادة، كما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وآله، وذكرنا أنّ دعاء الغير لا يجوز إذا اعتقد الداعي أنّ المدعو يملك نفعاً أو ضـــراً من دون الله، وأما طلب الاستعانة والدعاء من الغير سـواءً كان من الأحياء أو من الأموات، مع الاعتقاد بأنه لا يملك نفعاً ولا ضراً استقلالاً فإنّ ذلك لا يضر بحقيقة العبادة ولا يخل بمفهوم الدعاء، إذا كان اعتقاد الداعي أنّ الاســتقلال بالتأثير هو للحق تعالى، وأنّ ما عداه مجرىً للفيض الإلهي فقط، فإن الدعاء حينئذ وطلب الغير لا يدخل تحت مفهوم الشـــرك، بخلاف ما لو اعتقد الداعي بأنّ المدعو – من الأحياء أو من الأموات – يســتقل في التأثير عن الله تعالى، حيث يدخل الدعاء حينئذٍ تحت عنوان الشرك.

هل الاستشفاع بالغير شرك؟

من المشاهد خصوصاً لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام أنهم يذهبون إلى قبر المصطفى صـــلى الله عليه وآله وقبور الأئمة في البقيع، وكذلك إلى مراقدهم عليهم الســـلام في العراق ويطلبون منهم إجابة الدعاء ويستشفعون بهم إلى الله مما جعل هذا الطلب وذلك الاستشفاع يقع محلاً للشبهة وموردا للتســـاؤل الكبير حول الأدعية التي تُقرأ في مشـــاهد الأئمة من أهل البيت عليهم الســـلام وطلب قضـــاء حوائج الطالبين منهم، فهل أنّ الدعاء إذا كان طلباً وتوســـلاً منهم عليهم الســـلام بقضاء الحوائج وكشف الكرب وتفريج المهمات يندرج تحت أقسام الشرك؟

حقيقة الطلب من الغير

كي تتضح المسألة بإفاضة لابد لنا أن نستبين أمراً في غاية الأهمية هو أنّ الطلب من غير الله ســـواء كان حياً أو ميتاً إذا لم يعتقد الطالب أن المدعو مســـتقل في التأثير، لأنّ هذا النحو من الطلب يتنافى مع كونه مســـلماً، إذْ هناك مفارقة كبيرة بين اســـتقلال المدعو في التأثير والاعتقاد بالتوحيد، فالتوحيد الخالص معناه أنّ المؤثر في عالم الوجود هو الله تعالى وأنّ تأثير ما عداه إنما هو بإذنه، إما لكون المدعو واسطة في الفيض أو لأنه علة من العلل المعدة – كما يطلق عليها الفلاسفة – التي أوضحنا كيفية علاقتها في عالم العلل ومجرى الفيض في تأثير الأسباب في المسببات. فالمرتكز الأساس أنّ من يدعو غير الله باعتقاد استقلاله في التأثير من دون الله وهو يَدّعي التوحيد، فدعاؤه

باطل ولا يمكن أن ينسجم مع التوحيد الخالص؛ الذي لا يتحقق إلا بالاعتقاد أنّ المؤثر استقلالاً في جميع عوالم الوجود هو الحق تعالى وأنّ ما عداه إنما يؤثر بواسطته؛ لكونه مجرىً لفيضه أو سبباً من الأسباب المعدة في التأثير.

الفرق في التأثير بين الحي والميت.

وهنا نبين مطلباً في غاية الأهمية يرتبط بتصور لدى البعض في أنّ هناك فرقاً بين تأثير الحي وتأثير الميت، استناداً لبعض النصوص الواردة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (الروم:٥٢)، إذْ يستدل بهذه الآية المباركة على أنّ طلب الموتى من الأنبياء والرسل والأئمة والصالحين يندرج تحت منطوق الآية بمعنى أنّ الميت لا يمكن أن يسمع دعاء الحي، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢)، وبناءً على ذلك فإنّ طلب المؤمنين بالرسل والأنبياء لوجود بركة لديهم ومكانة عند الله لهم يتضاد مع هذه الآيات القرآنية التي ظاهرها يشير إلى أنّ الموتى لا يسمعون، وللإجابة على هذه الشبهة لابد من الوقوف ملياً عند هاتين الآيتين وعند سائر الآيات القرآنية، كي نؤكد على أنّ آي القرآن الكريم فيها آيات محكمات وأُخر متشابهات، ولا يفهم المعنى إلاّ بالجمع بين آياته، لذا، لا يمكن الاقتصار في الفهم الدلالي لبعض الآيات على ما يظهر منها لأول وهلة، بل علينا أن نمعن النظر في منطوق الآية ومدلولها بلحاظ مراجعة بقية آي الذكر الحكيم ثم استنطاق مجموع الآيات والأخذ بالمدلول البين والواضح، الذي يؤدي إلى الرشد والصواب، وهو ما يريده الحق تعالى.

هل الأموات يسمعون؟

إذا وقفنا ملياً عند هاتين الآيتين اللتين أوردناهما وأردنا أن نتعرف على المعنى المراد، وهل أنّ النبي ص عندما يتحدث لا يسمعه الميت؟ وإذا كان الأمر كذلك فالدعاء والطلب من الميت يكون دون فائدة، ولا يترتب عليه الأثر. لكنّ هذا المعنى باطل بإجماع المسلمين؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وآله عندما انتصر على المشركين في بدر طرحت جثث المشركين في القليب – البئر– ووقف النبي صلى الله عليه وآله يخاطبهم، فقال له بعض الصحابة: يا رسول الله، أهؤلاء يسمعون؟ قال النبي

صـلى الله عليه وآله: ««ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»»[1]. إذن بالرغم من أنهم موتى ومشـركون إلا أنّ النبي أكد على أنّ الأحياء ليســوا بأكثر سمعاً من الموتى الذين قتلوا في طريق الباطل، فإذا كانوا يسمعون كلام النبي ويسمعون كلام الغير فما بالك بالأنبياء والرسل الذين لهم المكانة العالية والمنزلة الرفيعة.

ما هو نوع السماع للموتى؟

غير أنّ الآيـة عنـدمـا قـالـت: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْـمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْـمِعُ الصُّـمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (الروم:٥٢)، توضح معانٍ متعددة ذكرها العلماء:

الأول: أنّ الإسماع له معنيان: إسماع هداية، وإسماع غير مؤثر في الهداية وإيصـــال الغير إلى الحق، باعتبار انقطاع الأسباب، والحق تعالى خاطب النبي صلى الله عليه وآله ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ لبيان أنّ دعوته وهدايته صـلى الله عليه وآله لا تشـمل هؤلاء الذين انتقلوا من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة؛ لأنّ الهداية خاصـة بعالم التكليف في الحياة الدنيا، وبعد أنِ انتقل هؤلاء إلى عالم الآخرة لا تؤثر فيهم دعوة النبي (ص)، ولا توصلهم إلى الهداية؛ لأنّ عالم التكليف قد انقضى فلا تكون دعوته صلى الله عليه وآله مؤثرة فيهم لإيصالهم إلى الحق.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) فهو على سياق الآية الأولى بمعنى أنّ النبي صـلى الله عليه وآله لا تؤثر هدايته في من انقطع عن عالم التكليف وانتقل إلى الدار الآخرة؛ لأنّ تأثير الهداية مخصوص بعالم الدنيا.

الثاني: أنّ الإسماع تارةً يكون للأرواح، وأخرى يكون للأجسـاد التي بليت وتلاشـت أي عادت إلى التراب، والنبي صـلى الله عليه وآله لا يُسـمِعُ الأجسـاد التي في القبور، ولكنه يُسـمِعُ الأرواح، والنفي يتوجه إلى معنى خاص هو أنّ تلك الأجسـاد لا تسـمع. إذن النبي صـلى الله عليه وآله كما أنه لا يُسـمِعُ هؤلاء الصـم ولا يُسـمِعُ غير القابلين للهداية فكذلك صـلى الله عليه وآله لا يُسـمِعُ تلك الأجساد لعدم وجود القابلية لها، وبعبارة أخرى أنّ النبي صلى الله عليه وآله لا يُسمِعُ الأجساد التي بُليت ورُمّت في القبور، وأصـبحت تراباً، ولكن ذلك لا يعني أنّ آيات القرآن التي يتلوها المصـطفى

---

[1]- صحيح البخاري للبخاري ج٥ ص٨.

صلى الله عليه وآله ويُنذر ويُحذّر بها لا تسمعها الأرواح؛ بل، من المؤكد أنّ الأرواح التي انسلخت عن عالم المادة لها إطلاع على حقائق الأشياء. والنتيجة أنّ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ (الروم:٥٢) يراد به أحد هذين المعنيين السابقين وإنْ كان المعنى الأول يُشير إلى أنّ النبي صلى الله عليه وآله لا يُسمِعُ الموتى إسماع تأثير وهداية دون أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) هو أنهم لا يسمعون، بل، الجميع يسمع، كما ورد في أحاديث صحيحة.

الدعاء الموافق للميزان الشرعي.

خلاصة البحث هو أنّ الدعاء للأنبياء والأئمة والصالحين على ضوء الموازين الشرعية يراد به أن يكون طلباً من عند الله والاستشفاع بهم إلى الله مع العلم اليقيني أنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وعند ذلك يصبح دعاؤهم شفاعةً وطلباً وتوسلاً بهم إلى الله تعالى، ودعاء النبي صلى الله عليه وآله والأئمة والصديقة الزهراء عليهم السلام وكذلك بقية الأنبياء والرسل بهذا المعنى الذي ينسجم مع ما ورد من آيات وأحاديث.

المطلب الرابع: التوسل في المنظور الإسلامي

القسم الأول: مشروعية التوسل.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٣٥) صدق الله العلي العظيم.

الوسيلة حاجة ضرورية

الوسيلة في اللغة من المفاهيم الواضحة، وهي في الشريعة كذلك، غير أنه وقع التشكيك فيها من حيث المصاديق، رغم استخدام الإنسان لها في أموره كلها، لكونه محتاجاً، فطره الله تعالى على ذلك، لا يستغني بذاته، وإنما يصل إلى مآربه بوسائل، تسد عوزه وترفع نقصه، لذا لا يمتري أحدنا في رفع العطش بالماء وقطع المسافة بركوب دابة أو سيارة، ورفع الجوع بالطعام، هذه وسائل لسد النقص.

الوسيلة قانون طبيعي

أفصح الحق تعالى عن قربه للإنسان، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق:١٦)، لأنه تعالى أوجده بدءاً وهو يفيض الوجود عليه استمراراً، فوجود أي موجود من فيضه، ونعمة من نعمه، والوجود بنحو عام بدؤه واستمراره مرتبط بالله تعالى، وكل نعمة نحصل عليها هي منه تعالى أعطانا إياها وخولنا بالتصرف فيها، فالصحة والمال والجاه وجميع النعم مصدرها الله تعالى، وهو تعالى العالم بفقر المخلوق، والمطلع على عوزه الذي لا يحتاج إلى إخبار من أحد، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(الأنعام:٥٩)، لا يخفى عليه شيء، لكنه أبى أن يجري الأمور إلاّ بأسباب، لذا أمر الإنسان أن يسلك المسالك الطبيعية للوصول إلى غاياته، وتحقيق ما يبتغيه، فأوجد الكون وجعل بعضه يحتاج إلى بعضه الآخر، ليس هناك غني بذاته غيره تعالى، هو الذي لا يحتاج إلى غيره، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(فاطر:١٥) وما يحصل من نعم منه تعالى، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾(النحل:٥٣) أي أنّ أي نعمة مصدرها الله تعالى.

الله تعالى يأمر باتخاذ الوسيلة إليه

لكنه تعالى أمرنا بابتغاء الوسيلة للحصول على ما نريد، وللقرب منه تعالى، ورغم أنه تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد، لكنه أمرنا أن نتقرب إليه بوسائل، اتفق على بعضها الجميع، ولم يمترِ فيها أحد كالصلاة والصدقة، والزكاة، والأعمال الصالحة، فهي وسائل للقرب منه تعالى، فالعمل الصالح يسهم في قرب الإنسان من الله تعالى، ويوصله إليه قرباً معنوياً، بجعل المرء موئلاً للّطف ومحلاً لنزول الرحمة، ويوصله إلى ما يبتغيه، ويرفع درجاته عنده تعالى في جنات النعيم، والعمل الصالح يقرب إلى الله تعالى معنوياً رغم أنه تعالى لا يحتاج إلى عمل الإنسان، لكنه ركّب وجوده على الفقر والحاجة إلى وسائل توصله إلى ما يريد، ولا تتحقق أهدافه إلا من خلالها، قال الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب»[١] أي أنّ كل أمر لا يجري إلا بسبب، ويتحقق على ضوء ذلك السبب، وكذلك تسير

١- بحار الأنوار للمجلسي ج٢ ص٩٠.

الأمور، وبهذا يتضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ (المائدة:٣٥) وهي ما يقوم به المرء من أجل الوصول إلى ما يبتغيه.

التوسل بالأعمال الصالحة

والوسيلة تارة عملاً مادياً محسوساً، وأخرى معنوياً، وكلا القسمين يقربان إلى الله تعالى، ويحققان مقاصد الإنسان، فالأعمال الصالحة التي يقوم بها المرء تدفع عنه البلاء، وتقيه ميتة السوء، وتوسع في رزقه، وترفع درجته وتقربه إلى الله تعالى زلفى.

التوسل بالدعاء

ومن أعظم الأعمال الصالحة الدعاء، فقد أمرنا الأقرب إلينا من حبل الوريد به، وبيّن أنه يستجيب لنا ويقضي حوائجنا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:٦٠) إذن من أهم الوسائل التي تقربنا إلى الله تعالى الدعاء خصوصاً بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف:١٨٠)، فمن دعا الله تعالى بأسمائه كالرحمن والرحيم والجواد والكريم، وسائر الأسماء الدالة على صفات ذاته، كالحي القيوم والقادر العليم، أو على صفات فعله، كالمنعم والخالق والرازق والوهاب استجاب الله تعالى دعاءه، لأنه لا يخلف وعده، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:٦٠).

آثار التوسل بالعمل الصالح

من الوسائل المشروعة العمل الصالح، فهو وسيلة يترتب عليها الوصول إلى المآرب وتحقيق الغايات، فمن عاد مريضاً أو تصدق على فقير، أو بر والديه أو قام بأي عمل صالح رفع الله تعالى درجته، وحط سيئاته وقضى حوائجه، والعمل صالح بنحو مطلق يحقق للإنسان المآرب ويوصله إلى المقاصد، ويقضى له الحوائج حتى وإنْ لم يقصد به قضاء حاجته فإنها تقضى بنحو طبيعي، فمن كفل يتيماً أو بر والديه أو وصل رحمه أو تخلق بأخلاق حسنة ترتب على ذلك سعة رزقه وقضاء حوائجه، ودفع البلاء عنه، أي أنّ ذلك من آثار العمل الصالح المترتبة عليه طبيعياً.

التوسل بالقرآن الكريم

ومنها: التوسل بالقرآن الكريم، إذْ أنّه أعظم كتاب أنزله الله تعالى على أنبيائه، وخص به المصطفى صلى الله عليه وآله وهو الكتاب الجامع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المصون من التحريف بحفظ الله تعالى، وهو معجزة لأعظم أنبيائه، ووسيلة كأسماء الله تعالى، وكالعمل الصالح، جاء في الدعاء: «اللهم إني أسألك بكتابك المنزل وما فيه وفيه اسمك الأعظم وما يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النار» يتخلص المرء من نار جهنم التي استحقها بالأعمال السيئة بالتوسل بالقرآن الكريم، ويتحقق له ما يبتغيه، ويحصل على ما يرومه من الأمن من العذاب الإلهي في الآخرة، فالتوسل بالقرآن الكريم من آثاره الوضعية النجاة من عذاب الله تعالى.

الاتفاق على مبدأ التوسل

إنّ ما ذكرناه من أمور مورد اتفاق بين أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام وأتباع مدرسة الصحابة، كلاهما يرى صحة التوسل بالأمور الآنفة، وأنّ المتوسل يصل إلى ما يبتغيه، ويحقق مآربه، وقد دلت الأحاديث الواردة في مصادر الفريقين على صحة التوسل بالأمور الآنفة، كالحديث الذي يذكر قصة أصحاب الغار الذين دخلوا مغارة جبل فانسد عليهم، فكانت نجاتهم بالتوسل بالعمل الصالح الذي صدر عنهم، والتوسل بالقرآن الكريم لا خلاف فيه أيضاً، وكذلك بالأسماء الحسنى.

شبهة التوسل

إلاّ أنّ بعض العلماء من أتباع مدرسة الصحابة تصور بأن التوسل بذات شخص لا يجوز لأنّ التوسل عبادة، وإذا توسل أحد بذات شخص فقد عبده، ولن يقربه إلى الله تعالى ولن يحصل على ما يبتغيه من عند الله تعالى، بخلاف التوسل بالعمل الصالح فيقرب إلى الله تعالى، وقد دلّ الدليل عليه، أما التوسل بشخص حتى وإنْ كان نبياً مرسلاً أو تقياً صالحاً لا يجوز لعدم الدليل المسوغ للتوسل بأي ذات من الذوات، والأمور الآنفة التي ذكرناها دل الدليل على جواز التوسل بها بخلاف جعل العبد الصالح وسيلة لاستجابة الدعاء فهو شرك بالله تعالى.

دفع الشبهة

وينبغي أن نعرف أنّ المتوسل بذات من الذوات لا يشرك بالله تعالى، ووصفه بذلك غلط، لأنه يرى أنّ المعطي والرزاق هو الواحد الأحد، وحتى إذا سلمنا عدم الدليل على ذلك، فعمله بدعة، لعدم الدليل عليه شرعاً، وليس بشرك، بل اتهامه بالشرك تطرف وراديكالية لأنه لا يعبد من توسل به، وإنما يجعله وسيلة، وفرق بين الشرك وبين جعل شخص وسيلة.

أهمية هذا البحث

إنّ بحث الوسيلة في المنظور الإسلامي الهدف منه أن ما يقوم به المسلمون غير من شذّ منهم بأنّ التوسل بالذوات المقدسة –الأنبياء والرسل والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، والصالحين من العباد– يجوز، ودعاء الله تعالى بجاههم، فيقال إلهي بجاه هذا العبد الصالح إلا ما رزقتني، إلهي بجاه هذه الأمة التقية الصالحة أن توفقني للخير، فالتوسل بالصديقة الزهراء أو بالسيدة خديجة أو بمريم أم نبي الله عيسى، أو بزينب عليهم السلام جائز وسائغ لكونهن نماذج وصلن الدرجة العالية في القرب من الله تعالى، وأتباع أهل البيت عليهم السلام بل أكثرية المسلمين يرون أنّ التوسل بذوات الصالحين من الرجال والنساء دل الدليل على مشروعيته، وهو مصداق من مصاديق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٣٥).

التوسل في المنظور الإسلامي

القسم الثاني: مشروعية التوسل بالصالحين.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٣٥) صدق الله العلي العظيم.

التوسل بالذوات

اتضح أنّ مفهوم الوسيلة من المفاهيم البديهية الواضحة، وأن بعض مفردات التوسل مورد اتفاق، كالتوسل بالعمل الصالح، وأعمال الخير بنحو عام، وأنه يحقق المآرب وتترتب عليه المقاصد، وقلنا: إنّ الاشتباه وقع في عدم مسوغية التوسل بالذوات، فلا يجوز التوسل بأي ذات من ذوات الصالحين، غير أنّ الأمة الإسلامية بنحو عام إلا من شذ تتوسل بذوات الصالحين، وترى أن التوسل بذواتهم كالتوسل بالعمل الصالح، والقرآن الكريم، وينبغي هنا أن نلتفت إلى الأدلة التي استدل بها على عدم مشروعية التوسل بالذوات، لأنّ من تبنى ذلك أقلية، غير أنها نشرت رأيها، محاولة تأصيله بإسناده إلى الأدلة الشرعية.

الشبهة الأولى: وصف التوسل بالبدعة.

إنّ أي عمل يأتي به المسلم لابد أن يستند إلى دليل، لئلا يقع في محذور كالتشريع، إذ قد ينسب إلى الدين ما ليس منه، فيكون افتراءً على الله، قال تعالى: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس:٥٩)، فلابد أن يكون هناك مسوغ لئلا يكون افتراءً على الله تعالى.

البدعة

إنّ الابتداع في الدين ممنوع ومحظور، وحتى الأمر الجائز إذا نسب إلى الدين بأنه منه، فهو محظور، لانتسابه إلى الله تعالى دون دليل، فالصلاة مستحبة بلا إشكال، إلا أنه لا يجوز للمرء أن يصلي مائة ركعة في اليوم بعنوان أنها مستحبة بنحو خاص، وأنّ الشارع طلب منه ذلك على نحو مخصوص، نعم يجوز له أن يصلي ندباً على نحو العموم، وقد جاء في الروايات أن الصلاة «خير موضوع من شاء استقل ومن شاء استكثر»[1] غير أن القول بأنها مستحبة بنحو خاص بدعة لأنّ ذلك فيه نسبة إلى الدين ما ليس منه، بل قد يكون المورد تشريع وبدعة، ولا يجوز للمسلم أن يبتدع في الدين، إذن الشيء الجائز يحرم نسبته للدين بعنوان أنه مستحب أو مكروه.

دفع شبهة البدعة

تصور بعض العلماء بأنّ التوسل بأي ذات من الذوات لا يجوز لعدم وجود الدليل الدال على المسوغية، وإذا تجرد عن وجود دليل دال عليه، فهو إما تشريع أو بدعة، ورأى بأن التوسل بالذوات يندرج في التشريع والبدعة، وأن ما يفعله المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها من التوسل بذوات الصالحين محرم بآيات القرآن الكريم، غافلاً عن أن العمل قد يدخل تحت عموم عام، أو إطلاق مطلق يجوزه، وأنه لا ينبغي وصف مسلم بالابتداع دون سبر الأدلة لديه.

وحتى بعد سبرها وعدم الظفر بدليل مسوغ لا يصح وصف من نختلف وإياه بالشرك والابتداع، لأن ذلك قد يرجع إلى الاختلاف في الفهم الاجتهادي المؤدي إلى الاختلاف في استنباط المسائل، وهو جائز، لذا اختلف العلماء في الفقه والعقائد لاختلافهم في فهم الأدلة.

وعلم الكلام يبتني على مصدرين، الأدلة الشرعية والأدلة العقلية، والجمع بينهما أساس علم الكلام، وقد اختلف العلماء في فهم مسائله، ولا يقال لمن نختلف وإياه بأنه مبتدع، بل قد يعذر، لأن ذلك هو ما وصل إليه فهمه، وقد اختلف العلماء في بعض صفات الله تعالى، فرأى فريق بأنها من

---

[1] – مسند أحمد ج٥ ص٢٦٥.

صفات الذات، وآخر بأنها من صفات الفعل، وكثير من المسائل حتى عند أتباع المذهب الواحد كمذهب أهل البيت عليهم السلام اختلف فيها كسهو النبي صلى الله عليه وآله، ورأى بعض أنه إسهاء، أي أن الله تعالى أسهاه لإيضاح مسألة، وأنكر بعض ذلك، ورأى بأن مقامه صلى الله عليه وآله مقام التبليغ والتعليم، قال تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (الجمعة:٢)، ولا داعي لأن يسهيه الله تعالى ليبين حكم مسألة، لئلا يلتبس المسلمون في المسائل الأخرى، ويقال لعله سهى فبلّغ خلاف ما أوحى به الله تعالى، وكي لا يتصور ذلك ويطرد احتماله نفى السهو عنه صلى الله عليه وآله بنحو مطلق في التبليغ والتطبيق وتلقي الوحي.

الشبه الثانية: مقارنة التوسل بالشرك.

لقد تصور بعض بأنّ بعض الآيات دالة على عدم جواز التوسل بأي ذات من الذوات، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (الإسراء:٥٦-٥٧)، مفسراً للآية بالنحو التالي بأنّ الذين يدعون من دون الله تعالى لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويله إلى غيركم.

كيف نفهم الآية القرآنية

إنّ القرآن الكريم يحتاج إلى ضوابط كي يفهم ولا يمكن أن يدعي أحد بأنّ مدلول الآية دال على كذا، دون ضوابط، والآية آنفة الذكر مفادها كالتالي:

إنّ الذين تدعونهم بزعم أنهم آلهة يشاركون الله تعالى في الألوهية بينما من يتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله أو بأحد الصالحين لا يعتقد بألوهية المتوسل به أو بمشاركته لله تعالى في ألوهيته.

الفرق بين الشرك والتوسل

وفرق كبير بين ما يفعله المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وبين ما يفعله المشركون من اعتقاد بأنّ المتوسل به هو إله يشارك الله تعالى في ألوهيته.

الفارق الأول: نفي الالوهية عن المتوسل به

يعتقد المسلمون بأنّ المتوسل بهم عباد صالحون أفاض الله تعالى عليهم من نعمه وأعطاهم من خيره فوصلوا إلى مقام شامخ في العبودية، وجاز التوسل بهم لصلاح ذواتهم وليس لأنهم آلهة.

الفارق الثاني: لا استقلالية للمتوسل به.

ثم دلت الآية على المنع عن التوسل لأن المشركين يعتقدون بأنّ المتوسل بهم يملكون كشف الضر وتحويله، ولا يعتقد مسلم بأنّ أحداً من المتوسل بهم من الذوات الصالحة يملك كشف الضر أو تحويله استقلالاً من دون الله تعالى، وإنما هو عبد من عباد الله توسل به لجاهه ومقامه، وإخلاص عبوديته لله تعالى، والفرق بين الأمرين كالفرق بين السماء والأرض، إذْ عندما يقال بأن المصطفى صلى الله عليه وآله بلغ أعلى مقامات العبودية لا يعتقد أحد بأنه صلى الله عليه وآله يملك شيئاً من التصرف من دون الله تعالى، وهذا مطلب أساس فالتوسل بأي نبي أو إمام معصوم أو ولي من الأولياء، لا لكونه يملك شيئاً من التصرف في الكون من دون الله تعالى.

وقد أبان القرآن الكريم بأنّ عيسى عليه السلام يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى، أي أنّ ذلك منحة وفيض من الله تعالى، وأنه عليه السلام لا يملك كشف الضر ولا تحويله استقلالاً، وعندما يبرأ المريض المؤمن لا يعتقد بأنّ عيسى عليه السلام أبرأه استقلالاً، وكذا عندما يذهب أحد إلى الطبيب لا يعتقد ذلك، فلا يملك أحد شيئاً إلا بإذن الله تعالى، لكنه تعالى أجرى الأسباب على يد عيسى وجعل دعائه عليه السلام أو مسح يده مؤثراً كتأثير الدواء، وهو عليه السلام لا يملك شيئاً قبال ملكية الله تعالى، بل من المحال أن يملك أحد لشيء استقلالاً، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:٢٦)، إذن الملك بنحو مطلق، والملكية الحقيقية هي له تعالى، والجميع يتلقى الفيض منه بدءً واستمراراً، والآية التي استدل بها تفصح عن غير ذلك، وتقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي أنّ هؤلاء الذين تدعونهم تعتبرونهم آلهة والحال أنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة، وليسوا آلهة، بل عباد يتقربون إليه تعالى، وإذا كانوا صالحين فإنهم يريدون أن يتقربوا إليه تعالى، لأنهم عباده قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (الإسراء:٧٥).

الاختلاف في فهم الآية يبطل الاستدلال

إنّ الآية الكريمة دالة على أنّ من يُدعى باعتقاد أنهم آلهة أولاً، وثانياً بأنّ المدعو باعتقاد الداعي يمتلك تصرفاً في الكون في قبال ملكية الله تعالى، ولا يعتقد أي مسلم من المسلمين بذلك، إذْ لا أحد يملك شيئاً في قبال ملكية الحق تعالى، والآية المباركة لابد أن تفهم بنحو سليم.

ولو سلمنا جدلاً بأنّها لا تفهم على النسق الذي شرحناه، ولها فهم آخر فإنّ النتيجة هي الاختلاف في فهمها، ولا يسوغ ذلك وصف من نختلف وإياه بالضلالة والابتداع بل أنّه اختلاف في الفهم والاجتهاد، كاختلاف العلماء في المسائل الفقهية والعقدية دون أن يوجب ذلك تكفير أو تبديع.

الشبهة الثالثة: التوسل استعانة بغير الله تعالى.

الدليل الثاني الدال على المنع بنظرهم قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥) أي أن العبادة محصورة به تعالى، والاستعانة كذلك أيضاً، فلا استعانة إلا بالله تعالى، وقد تصور من منع التوسل بالذات بأنه إما عبادة أو استعانة، ولا يجوز ذلك لأنّ الاستعانة بغير الله تعالى غير جائزة.

أنحاء الإستعانة

ونقف هنا لنوضح بأنّ الاستعانة على أنحاء:

الأولى: الطبيعية كالاستعانة على أداء دين، فلا يعتقد المستعين بأنّ المستعان به قادر على الإعانة وحده، والأمر واضح.

الثانية: المحظورة، وهي أن يعتقد المستعين بأن المعين يملك الإعانة استقلالاً من دون الله تعالى أو شراكة وذلك محظور، لأنّ المعين الذي يملك القدرة بنحو مطلق هو الحق تعالى، ولا يملك أحد قدرة بالاستقلال سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٠) فهو القادر على كل شيء، أما غيره فقدرته من عنده تعالى، وأي قدرة لمقتدر ليست نابعة استقلالاً من ذاته، والنتيجة أنّ من استعان على أمر بأحد معتقداً بأنه يملك الإعانة على نحو الاستقلال، فقد خالف قول الله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥) لأنه استعان بغير الله، ولم يستعن به وحده تعالى.

مرجع التوسل للاستعانة الطبيعية

إنّ الاستعانة بالأشياء أمر طبيعي فقد يستعين شخص بثري من الأثرياء لأداء دينه، ويقع أحد في الشارع فيستعين بآخر لإنقاذه، والاستعانة هنا ليست محظورة ولا ممنوعة، لأنها ضمن عالم الأسباب، وقد أشرنا بأن الله تعالى أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها فجعل أسباباً ومسبباتٍ لا يصل الإنسان إلى ما يبتغيه إلا بالأخذ بها.

الشبهة الرابعة: الخلط بين مفهوم التوسل والعبادة.

أما قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥) ففيه حصر العبادة والاستعانة بالله تعالى غير أنّ علينا أن نقف لنعي متى تصدق العبادة؟

شرائط العبادة

لا تتحقق العبادة إلا بشرائط، فالركوع والسجود، لا يصدق عليهما عبادة إذا لم تتوافر تلكم الشرائط، لذا فإن سجود يعقوب عليه السلام وأخوة يوسف له عليه السلام ليس بعبادة، فلم يعبدوا يوسف عليه السلام رغم أنهم سجدوا له، إذن السجود لا يصدق عليه عبادة إلا بشرائط، نعم يحرم في الشريعة الإسلامية السجود لغير الله تعالى لكننا لا نستطيع أن نقول بأنه عباده دون تحقق شرائط أخرى، ومن سجد لغير الله اقترف حراماً؛ ولم يعبد من سجد له إلا إذا اعتقد بأنه مالك الملك بيده الخير وهو على كل شيء قدير وهو المحيي المميت، وخضع له لذلك، فحينئذٍ يكون سجوده عبادة.

العبادة الصورية

ليست العبادة بالصورة فقط، والسجود لغير الله تعالى حرام عند المسلمين، لكن حرمته ليس لصدق العبادة عليه دون شرائط، بل أنّ الشرائط إذا لم تتوافر لا يصدق على السجود عبادة، وعبودية الفعل تتوقف على كونه يأتي العابد به للمعبود على نحو الخضوع والتذلل والاستكانة معتقداً بأن المخضوع له مالك الملك بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

التوسل ليس عبادة

أما إذا لم يعتقد المتوسل بوجود صفات وخصائص المعبود، لا يكون الفعل عبادة، لذا جاء عن النبي صلى الله عليه وآله: «لو كنت أمرت أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[1].

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج١٧ ص٣٧٧.

ومعنى ذلك أن حرمة السجود تشريعية وليست ناشئة من كون السجود وحده عبادة دون قيد أو شرط وحتى التذلل لا يكون عبادة إلا بالشرائط السابقة، ولذا أمرنا الله تعالى أن نتذلل للأبوين ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء:٢٤) لكنّ ذلك ليس عبودية لهما لأن المسلم لا يعبد إلا الله تعالى.

إنّ مفهوم العبادة من الأمور التي لابد أن يُفرغ منها سلفاً، ولابد أن يُحدد حتى لا يستطيع أحد أن يتهم أحداً ثم يستدل على رأيه بالقرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) وعليه فإن التوسل بذاتٍ كالخضوع لا يكون عبادة إلا بشرائط، أما وحده فليس عبادة، لذا أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم عليه السلام والملائكة لا يعبدون آدم عليه السلام، وإنما أظهروا الخضوع والاحترام لشخصه عليه السلام، لأنه أعلى رتبة منهم نظير ما يفعله الجنود للضابط وعامة الناس للملك ورئيس الجمهورية لمجرد الاحترام ليس إلا، وسجود يعقوب عليه السلام وأخوة يوسف له عليه السلام إظهار لرتبته بأنها الأعلى وأن له عليه السلام مقاماً شامخاً ورتبة عالية على يعقوب عليه السلام وأبنائه قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (البقرة:٢٥٣).

إذن السجود لا يكون عبادة دون أن تتوافر فيه مجموعة من الشرائط، لسنا بصدد تبيانها، وإنما ألمحنا إليها إلماحة، وبناءً على ذلك فإن التوسل أيضاً لا يكون استعانة محظورة ومحرمة، بل كسائر الاستعانات المباحة والجائزة بل أنه كرفع الظمأ بالماء والجوع بالطعام لا إشكال فيه، والقول: "إلهي بجاه هذا العبد الصالح إلا ما رزقتني وقضيت حاجتي" لا يُقصد به أن العبد الصالح المتوسل به يملك أمراً أو نهياً من دون الله تعالى.

الفوارق الجوهرية للتوسل

لذا هناك فارق جوهري بين توسل الذين رد عليهم القرآن الكريم، لاعتقادهم بأنّ المتوسل به يملك نفعاً أو ضراً، وبين توسل المسلم الذي لا يعتقد أن أحداً غير الله تعالى يملك نفعاً وضراً بالاستقلال من دون الله تعالى، وهذا فارق جوهري.

الفارق الثاني: أن التوسل ليس عبادة، وإنما هو من أجل أن المتوسل به وصل إلى درجة عالية وله كرامة عند الله تعالى فإذا دُعي الله تعالى بجاهه استجاب، لذا ورد أن الأنبياء يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وآله يوم القيامة والحديث معتبر وارد في مصادر المسلمين بأنّ الأنبياء عليهم السلام يفزعون إليه

صلى الله عليه وآله يوم القيامة و يتوسلون به من شدة الضراء والبأساء إذْ لا يستطيع أحد من شدة الكرب أن يجيب الخلق إلا خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، فيتوسلون بالمصطفى محمد صلى الله عليه وآله.

القسم الثالث: حقيقة التوسل بالأولياء.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٣٥) صدق الله العلي العظيم.

الاستعانة بغير الله تعالى

استعرضنا بعض الآيات الكريمة التي استدل بها من منع التوسل بالذوات، مبيناً عدم جواز ذلك لنهي القرآن عنه، وناقشناها موضحين أنها غير دالة على مدعاه، وهناك أيضاً حديث مشهور عن النبي صلى الله عليه وآله يوصي فيه حبر الأمة، ابن عباس، قائلاً: ‹‹وإذا استعنت فاستعن بالله››[1].

لا استقلالية بالاستعانة

ولا إشكال في دلالته على الاستعانة بالله تعالى، لكنه لا يمنع من الاستعانة بالأشياء الأخرى، لأن ذلك أمر طبيعي، فالمحتاج يستعين في قضاء حاجته والناس على ذلك بطبيعتهم.

إنّ معنى قوله صلى الله عليه وآله: ‹‹وإذا استعنت فاستعن بالله›› عدم جواز الاستعانة بغير الله تعالى إذا اعتقد المستعين أن المستعان به يملك الإعانة بالاستقلال، وقد شرحنا ذلك فيما تقدم، لأنّ المستعان به لا يملك القدرة بذاته على إعانة غيره، بل هي من الله تعالى أعطاه إياها ووفقه للإعانة، ويندرج ذلك تحت قول الإمام الصادق عليه السلام: ‹‹أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب››[2] أي أن قانون السببية سائد بين الأشياء، فيؤثر الماء في الإرواء، والطعام في رفع الجوع، لكن الرافع للجوع حقيقة بالاستقلال هو خالق الطعام والماء، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

١- بحار الأنوار للمجلسي ج٦٧ ص١٨٣.

٢- بحار الأنوار للمجلسي ج٢ ص٩٠.

يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء:٧٩-٨٠)، وقول إبراهيم عليه السلام تبيان لذلك، لأنه عليه السلام يروى بالماء، ويشبع بالطعام، لذا جاء ما يفسر هذا المعنى عنه صلى الله عليه وآله: ‹‹والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه››[1] والجمع بين الحديثين بالمعنى الآنف، في هذا الحديث: ‹‹والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه››، دون تهافت، ولا يراد بالحديث منع الاستعانة بغير الله تعالى إذا كان المستعين يعتقد بأن المعين عبد من عباد الله تعالى، مكنه الله وأعطاه قدرة على الإعانة، والأمر بدهي واضح، لا يحتاج إلى إطالة.

لا محظور في الاستعانة بغير الله تعالى

غير أنهم وقعوا في اشتباه في الحديث، فرأوا أنّ الاستعانة بغير الله تعالى محظورة، والحال أنّ الحظر يختص بما إذا اعتقد المعان أن من يعينه يملك صفات الإله، ويعينه استقلالاً، ولا أحد من المسلمين يرى ذلك، وعليه فمن استعان بأحد لرفع ثقل ولم يعتقد أن القدرة على الإعانة من المعين بل من عند الله تعالى أعطاه إياها، وأمره بصرفها في إعانة المحتاج لم يرد عليه إشكال، والآيات القرآنية لا تدلل على ما فهم منها، بل تعلمنا أن من يملك القدرة بنحو مطلق والإعانة والرزق هو من يملك الإحياء والإماتة بالاستقلال، وهو الله تعالى، وأن إعانة غيره منحة منه تعالى وفق عبده لها، هكذا يفهم أهل الاختصاص من العلماء أحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله.

النصوص والسيرة تثبت التوسل

ولو كان التوسل بذوات الأنبياء والرسل والأولياء والصالحين شركاً لم يرد في الأحاديث المعتبرة، بل لم يرد حتى في الأحاديث الضعيفة، لأنّ من يضع الحديث لا يضع حديثاً غير مقبول بنحو مطلق، وإنما يكذب بشيء له مقبولية بنحو ما، والشرك لا يقبل من المسلمين، خصوصاً في الصدر الأول، لذا لا تأتي أحاديث ضعيفة تجيز التوسل بالذوات لو كان شركاً فضلاً عن الأحاديث الصحيحة الدالة على صحة التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله.

إنّ التوسل بذاته صلى الله عليه وآله ورد في الشعر والنثر، وفي وقائع متعددة، وأرشد صلى الله عليه وآله إليه مبيناً أن من توسل به قضى الله تعالى حاجته، وروي ذلك بطرق معتبرة وأحاديث صحيحة في مصادر الفريقين، ومعناه أن التوسل بالذوات ليس من الأمور المباحة فحسب، بل من الأمور المندوبة التي حض عليها النبي صلى الله عليه وآله.

---

[1] – عوالي اللئالي لابن جمهور الأحسائي ج١ ص١٠٧.

حقيقة التوسل بالصالحين:

ونبين هنا قاعدة هي أن التوسل بشيء كالعمل الصالح من صلاة وصوم وصدقة، والذي لم يناقش فيه أحد بل جاز لصلاحه وارتضاء الله له، والله تعالى يصلح ذاتاً ويرتضيها، فتصبح أعظم من العمل الصالح الصادر منها، والأولياء الكاملون بلغوا مراتب عالية، كأولي العزم من الرسل، ومحمد وآله صلى الله عليه وآله، ولأنهم في عبوديتهم وتذللهم لله تعالى بلغوا مراتبَ عالية لا يصل إليها سائر الخلق، فمن توسل بهم وبمقاماتهم وذواتهم التي طهرت وتسامت وبلغت مراتب شامخة، استجاب الله تعالى له، وذلك ما يفعله المسلمون إلا من شذ، خصوصاً أتباع أهل البيت عليهم السلام، فإن التوسل بالنبي وأهل بيته صلى الله عليه وآله معلم بارز لهم، وهو جائز أيضاً عند علماء العامة، و يكاد أن يكون من الأمور البديهية الواضحة التي لم يمترِ فيها أحد من علماء الإسلام على اختلاف مشاربهم.

التوسل في أقوال العلماء

وكي يتضح ذلك نذكر كلاماً لبعض علماء الأزهر الشريف، ــ الشيخ محمد الفقي ــ قال (رحمه الله):

" يمتاز الأنبياء والرسل عن سواهم بمميزات لها خطورتها وعظم شأنها، ويتمتعون بخصوصيات تجل عن التقدير والتعبير، فهم يتفاوتون عن الخلائق بشتى الخوارق، ويختصون بأنواع رائعة من المعجزات وأسمى المقامات: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد: ٢١).

والذي وهبهم هذه العطايا وأنعم عليهم بهذه الامتيازات، كتب لهم في سجل الحوائج قضاء ما يطلبون وما يرجون، لأنهم رسله إلى خلقه يُلجأ إليهم عند الشدائد، ويستغاث بهم في الملمات في الحياة، إجماعا بين المسلمين عدا الوهابية ومن بعدها حسب ما دلت عليه الأحاديث واستفاضت الأخبار.

كيف يشك إنسان في جواز التوسل بهم والاستغاثة عند الملمات مع أن الأنبياء يستغيثون بالنبي الأكرم يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، فتطلب الخلائق في هذا الموقف من الأنبياء إغاثتهم والاستشفاع بهم، فيحيلونهم كل بدوره إلى خير شفيع، وأعظم مغيث فيقصدون كعبة الشفاعة وقبلة الإغاثة، فيستجيب لرغباتهم ويسارع لإغاثتهم وإنقاذهم ويهم لمرضاتهم بما عهد فيه من فضل وما عرف عنه من كرم.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: "أنا سيد الناس يوم القيامة. هل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو الشمس من جماجم الناس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه ما بلغنا؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته. نفسي نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً – عليه الصلاة والسلام – فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل بعثت إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك (الحديث).

وفيه أنهم – صلوات الله عليهم أجمعين – يحيلون الناس إلى سيد الرسل والخلق، فيأتونه صلى الله عليه وآله وسلم فيقولون: يا من أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ إشفع لنا إلى ربك. قال: فانطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا إلى ربي، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتح على أحد قبلي. ثم يقال: يا محمد إرفع رأسك واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي يا رب أمتي، يا رب أمتي... "[1].

خصائص أولياء الله تعالى

قوله (يرحمه الله) "ويتمتعون بخصوصيات تجل عن التقدير"

أولاً: منح الله تعالى لهم.

كالتكليم لموسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء:١٦٤)، والخلة لإبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء:١٢٥)، وكذلك ما أجراه تعالى على يد المسيح عليه السلام ووصفه له بأنه كلمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (النساء:١٧١)، هذه خصائص لبعضهم وهم أقل رتبة من المصطفى صلى الله عليه وآله.

---

[1] – كتاب في ظل أصول الإسلام للسبحاني ص٢٥٠ .

ثانياً: صعوبة الوصول إلى رتبهم.

ولا نستطيع نحن أن نصل إلى حقيقة تلكم الخصائص التي أفاضها الله تعالى على الأنبياء والرسل، لذا قال (يرحمه الله):"تجل عن التقدير والتعبير"، ولذا كتب لهم في سجل الحوائج قضاء ما يطلبون، فموسى عليه السلام قال قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(الشعراء:٦١) فأجابهم: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء:٦٢)، فيقينه ووثوقه بالله تعالى لم يتزلزل عندما اقترب فرعون وجنوده من بني إسرائيل مع ما لهم من الجبروت والهيمنة في عالم المادة، لعلمه بأن قدرة الله تعالى مهيمنة على عوالم الوجود، فأجابه الحق وأغرق فرعون وجنوده، إن الأنبياء يلجأ إليهم أقوامهم عند الشدائد، ويستغاث بهم في الملمات، وكذلك أكرم الله تعالى من بين خلقه ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾(النور:٣٧).

ثالثاً: قربهم من الله تعالى.

وهم أولياؤه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أي أعطاهم بعض خصائص الأنبياء والرسل لقربهم، لهم الحظوة والقبول عنده، يتفضل عليهم بالاستجابة لدعائهم وقبول الاستغاثة منهم.

رابعاً: جواز التوسل بهم.

فجاز التشفع والاستغاثة بجاهه صلى الله عليه وآله وتواترت الأحاديث واستفاضت الأخبار، خصوصاً عندما يطول الموقف ويشتد الكرب، فإن الناس يتوسلون ويلجأون إلى الأقرب إلى الله تعالى قائلين: إلهنا إن كنا لا نستحق أن نعطى، فإنّ هؤلاء الرسل والأنبياء هم موئل الفضل وأقرب الخلق إليك، فأغثنا بهم، وأجب دعوتنا بجاههم، هذا ما يقصده الخلق من التوسل، وعندما يعظم الهول وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، فإن الأنبياء يلجأون إلى المصطفى صلى الله عليه وآله ويشفع لهم.

خامساً: مقصد المحتاج.

إذن يقصد الأنبياء كعبة الشفاعة، ويلجأون إلى قبلة الاستغاثة المصطفى صلى الله عليه وآله، ويسارع لإغاثتهم وإنقاذهم، لما له من فضل، وما عرف عنه من كرم.

توسل الأنبياء بخاتمهم

ذلك مضمون ما قاله العالم الأزهري، وهو مورد اتفاق، جاء في البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله: "أنا سيد الناس يوم القيامة..."[1] وقوله صلى الله عليه وآله "فأقع ساجداً لربي" تبيان أنه أقرب الخلق، ويظهر صلى الله عليه وآله عبوديته لله فيسجد ويستحق الشفاعة، لا لأنه يمتلك نفعاً أو ضراً من دون الله، بل لأنه يسجد لربه، وأن الخصائص التي حصلت لخاتم الأنبياء ولغيره من الرسل للعبودية الحقة الخالصة لله تعالى، لذا يفتح الله عليه صلى الله عليه وآله من محامده ما لم يفتحه على أحد قبله، ويقال له: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطى، واشفع تشفع، فيقول صلى الله عليه وآله: أمتي يا ربي أمتي، فيقال له: "يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن..."[2] والحديث يدلل على أن الأنبياء والرسل يتوسلون بذاته الشريفة صلى الله عليه وآله، فكيف جاز لهم عليهم السلام وهم في شدة وكرب في يوم القيامة أن يتوسلوا بذاته صلى الله عليه وآله إذا كان التوسل شركاً وهم أحوج ما يكونون إلى التوحيد والرحمة، والحديث واضح، لذا لا يجوز لأحد أن يرمي غيره بالشرك والبدعة، بل عليه أن يرجع إلى الأحاديث، ويرى دلالتها، لأنّ طائفة من الأحاديث بعضها تام سنداً وبعضها وإنْ لم يتم إلا أن التام يعضده، فتكون متواترة إجمالاً.

لماذا التوسل بالأولياء؟

إن النبي صلى الله عليه وآله لم يقل رغم ما له من مقام شامخ أنه المعطي بل قال أسجد إلى ربي والله يفتح عليّ ويعطيني، ولم يقل أنا أمنحكم في قبال الله تعالى، ولا يقول أحد من المسلمين ذلك، الكل يعتقد أنه عبدٌ لله تعالى، بل إن المسلمين يشهدون له صلى الله عليه وآله بالعبودية قبل شهادتهم له بالرسالة، لأن مقام العبودية أعظم من مقام الرسالة، وكلما تسامى الإنسان ارتقت درجته في العبودية لله تعالى، والتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء والرسل سائغ لأنّ فيه تذلل وخضوع لله تعالى، وله قدسية، لذا نسأل الله تعالى به صلى الله عليه وآله.

والخلاصة:

أنّ بعض الذوات طهرت وخلصت فجاز التوسل بها لكونها أفضل من العمل الصالح.

---

[1]- صحيح البخاري للبخاري ج٥ ص ٢٢٥.

[2]- السنن الكبرى للنسائي ج٦ ص ٣٧٩.

القسم الرابع: التوسل في المذاهب الإسلامية.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٣٥) صدق الله العلي العظيم.

التوسل لدى المسلمين

أوضحنا بأنّ التوسل بالذوات مشروع لكون المتوسل به يتصف بالعبودية الحقة، والمسلمون يتوسلون بذات النبي صلى الله عليه وآله لكونه يجسد أعلى مراتبها، لعلو مقامه في عبوديته الحقة جاز التوسل به، وحصل المتوسل على مآربه وتحققت مقاصده، والمسلمون ما عدا من شذ يتفقون على ذلك، وقد استعرضنا كلاماً لأحد علماء الأزهر أفصح فيه عن اختلاف الرتب والمقامات للأنبياء والرسل، وبسبب ذلك توسل أنبياء الله تعالى ورسله بذاته صلى الله عليه وآله في يوم القيامة عند اشتداد الكرب، واستجاب الله تعالى دعوتهم، ثم أردفنا موضحين بأنّ النبي صلى الله عليه وآله شرح في الحديث كيف يستجيب الله تعالى له، لأنّه يخر ساجداً تحت العرش ويثني على الله تعالى بأحسن الثناء، وعندئذ يستجيب الله تعالى له الدعاء ويكشف ما يلم بالخلائق من شدة ويدفع عنهم البأساء والضراء.

مؤلفات في التوسل

ألّف كثير من علماء الإسلام كتباً في التوسل، وقد اعتمدنا في نقل ذلك على كتاب التوسل مفهومه وأقسامه وحكمه في الشريعة الإسلامية الغراء لآية الله المحقق الكبير الشيخ جعفر السبحاني يحفظه الله، وقد ذكر في الكتاب بعض كتب من ألف في التوسل من علماء الإسلام.

منها: كتاب الوفاء في فضائل المصطفى لابن الجوزي، المتوفى عن عام ٥٩٧ هـ، وقد أفرد باباً حول الاستشفاء بقبر النبي صلى الله عليه وآله، وذلك ما يفعله أتباع أهل البيت عليهم السلام عندما يتوسلون بالمصطفى صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ويحصلون على مقاصدهم لاعتقادهم بأنّ هذه الذوات الطاهرة تجسد أعلى درجات العبودية الحقة لله تعالى.

ومنها: كتاب مصباح الظلام للمستغيثين بخير الأنام لمحمد بن نعمان المالكي، المتوفى عن عام ٦٧٣ هـ، والكتاب أصبح مصدراً من مصادر العلماء الذين جاءوا من بعده، ونقلوا مطالب الكتاب، فالسمهودي في كتاب وفاء الوفاء نقل عنه.

ومنها: كتاب البيان والاختصـــار لابن داود المالكي الشـــاذلي، وقد نص في الكتاب على أنّ العلماء والصلحاء من المسلمين يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وآله، وقوله: "العلماء والصلحاء" يراد به سيرة المتشرعة، وهم الناس الذين يسيرون على منهاج الشريعة وجادة الصواب وأنّ ديدنهم التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله في المحن والأزمات، فإذا مرت بهم محنة أو أزمة توسلوا به صلى الله عليه وآله.

ومنها: كتاب شفاء السقام، لتقي الدين السبكي المتوفى عام ٧٥٦ هـــ، وقد أورد مشروعية التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وبحثاً بلور فيه بأنّ التوسل بذاته صلى الله عليه وآله يرجع إلى نفس ما أفدناه فيما ســبق، أي لا يخرج عن كونه عبادة من العبادات، وذلك لأنّ المتوســل يتوســل بالذات لأنّ صاحبها يملك جاهاً ومقاماً في العبودية، وبذلك جاز للمتوسل أن يتوسل به صلى الله عليه وآله إلى الله تعالى.

ومنها: كتاب وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى صلى الله عليه وآله لنور الدين السمهودي، فقد ذكر في الجزء الرابع من كتابه عن أحوال المدينة المنورة ص٤١٣ -٤١٩ مبحث التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله.

ومنها: كتاب المواهب اللدنية لابن حجر العســقلاني في الشـــرح الذي ألفه الزرقاني المالكي المصري.

ومنها: كتاب كنز المطالب للعدوي الحمزاوي أحد العلماء المتأخرين من العامة.

ومنها: كتاب فرقان القرآن للعازمي الشافعي القضاعي.

اتفاق المذاهب الإسلامية على جواز التوسل

ويحسن بنا هنا أن نشير إلى إشكال هو احتمال وقوع بعض هؤلاء العلماء في اشتباه، غير أنّ الأمر ليس كذلك لأنه ليس من عالم واحد، وليس من مذهب واحد، فمنهم الشافعي والحنبلي والحنفي، والمالكي، وهم من مختلف المذاهب الإســـلامية، لذلك يمتنع أن نقول بخطأ جميعهم، إذْ يقع الخطأ من بعض، أما أن يخطئ الجميع مع كثرتهم ويؤلفون كتباً في الموضوع، فمن الصعب تقبل ذلك، مع ما لهم من مكانة علمية مرموقة خصوصاً أنّ بعضهم إمام وحجة في الحديث والرجال، -في الجرح والتعديل- كابن حجر العسقلاني، فهو صاحب مكانة، ولمكانته، فإنّ قوله من قبيل:

إذا قالت حذام فصدقوها فإنّ القول ما قالت حذام[1]

وقد أورد أحاديث تدلل على مسوغية التوسل وجوازه، ولا نحتمل في حقه الاشتباه في نقل الأحاديث الضعيفة لأمر غير مشروع، مع أنه ألّف كتاباً اسماه المواهب اللدنية، وذكر فيه مشروعية التوسل.

التوسل في فكر ابن حجر

وإليك كلام ابن حجر العسقلاني من المتقدمين، لكونه إماماً في الحديث والجرح والتعديل.

قال يرحمه الله:

"وينبغي للزائر – قبر النبي صلى الله عليه وآله– أن يكثر من الدعاء والتضرّع والاستغاثة والتشفّع والتوسّل به صلى الله عليه وآله فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه"[2].

مشروعية التوسل

إنّ ألفاظ هذا العالم دالة على أمور:

الأول: أنّ الزيارة لقبره صلى الله عليه وآله، وليست للمسجد النبوي الشريف.

الثاني: أنّ التوسل بذاته صلى الله عليه وآله وليس بشيء آخر.

الثالث: أنّ المتوسل يحصل على مطلوبه ويتحقق ما يقصده، ويحصل على شفاعته لأنّ الله تعالى لا يردها.

التوسل نوع من الاستغاثة

ومن المعلوم أنّ الله تعالى مالك الملك لكنه يشفع نبيه فيمن استشفع به، ثم قال:

"واعلم أنّ الاستغاثة هي طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث منه، فلا فرق بين أن يعبّر بلفظ: الاستغاثة أو التوسّل"[3].

---

[1]- الصحاح للجوهري ج٣ ص١٠٠٧.

[2]- في ظلال التوحيد للسبحاني ص٦٥٥.

[3] في ظلال التوحيد – الشيخ جعفر السبحاني – ص ٦٥٦

أي لا فرق بين قول (استغيث بك يا رسول الله إلى الله تعالى) وقول (أتوسل بك يا رسول الله إلى الله تعالى)، إنه تنصيص على جوهر التوسل.

الوجاهة سبب التوسل

ثم أردف قائلاً:

"التشفّع أو التجوّه أو التوجّه، لأنّهما من الجاه والوجاهة، ومعناه: علو القدر والمنزلة".

أي أنّ منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله هي الأعلى، لذا نتوسل به إلى الله تعالى، وأضاف بأنه:

"قد يتوسّل بصاحب الجاه إلى من هو أعلى منه".

وذلك أمر طبيعي، فمن اشتغل عند أحد، وله منزلة يحضى فيها بتقدير الشركة، إذا توسل بجاهه قضيت الحاجة، ولم يستشكل أحد في ذلك، بل قد توسل بصاحب الجاه إلى من هو أعلى منه.

التوسل بالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله

ثم قال: "إنّ كلاً من الاستغاثة والتوسّل والتشفّع والتوجّه بالنبي صلى الله عليه وآله واقع في كل حال كما ذكره في (تحقيق النصرة) و(مصباح الظلام) قبل خلقه وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدّة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة".

أي أنّ التوجه بالنبي إلى الله تعالى واقع قبل حياته صلى الله عليه وآله كما في توسل آدم عليه السلام، وفي حياته الدنيا، وبعد موته صلى الله عليه وآله، ولا يقال إنّ التوسل به صلى الله عليه وآله في حياته جائز، أما بعد موته فلا يجوز كما صرح بعضهم بذلك.

التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله قبل وجوده الظاهري

"أمّا الحالة الأُولى فحسبك ما جاء في استشفاع آدم عليه السلام به لما أُخرج من الجنّة، وقول الله تعالى له: يا آدم لو تشفّعت إلينا بمحمد صلى الله عليه وآله في أهل السماوات والأرض لشفّعناك، وفي حديث عمر بن الخطاب: وإن سألتني بحقّه فقد غفرت لك".

إنّ هذا الحق كان لمحمد صلى الله عليه وآله لأنّ الله تعالى أعطاه إياه، أما هو في ذاته فلا حق له لأنّ جميع العطايا من عند الله تعالى.

"وصح – أيضاً – أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا ربّ، أسألك بحقّ محمد لما غفرت لي، قال الله تعالى: يا آدم، وكيف عرفتَ محمّداً ولم أخلقه؟".

أي لم يأتِ إلى الدنيا، وهنا ينبأ آدم عن معرفته للنبي ص ويشير إلى المقام العالي له صلى الله عليه وآله، فيقول:

"يا ربّ إنّك لَمّا خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت قوائم العرش مكتوباً عليها لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، فعرفت أنّك لا تضيف إلى اسمك إلاّ أحبّ الخلق إليك".

أي أنّ السبب الذي جعلني أعرفه في الدنيا هو عالم ما قبل الدنيا عندما خلقتني، فقد رأيت على العرش اسم محمد ص مقروناً باسمك، والاقتران دليل على أنّه أقرب الخلق إليك، إنّ آدم عليه السلام يتكلم هنا مع الله تعالى مبيناً علمه به صلى الله عليه وآله، والله تعالى يعلم بذلك، لكنه يبين للخلق منزلة المصطفى صلى الله عليه وآله، لذا.

"قال الله تعالى: صدقتَ يا آدم، إنّه لأحبّ الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقّه، فقد غفرت لك ولولا محمّد ما خلقتك".

وفي ذلك تبيان لعظم مقامه صلى الله عليه وآله حيث لولاه لما خلق الله تعالى آدم وزوجه.

وقد روى الحديث الطبري وزاد فيه: (وهو آخر الأنبياء من ذريتك)" أي أنه صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء.

إنّ آدم عليه السلام توسل إلى الله تعالى في مقامين:

الأول: قبل أن يأتي إلى الدنيا لأنّ له صلى الله عليه وآله جاهاً برتبته الوجودية، وبعد خلقه في الحياة الدنيا.

التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله بعد وجوده الظاهري

"وأما التوسل به بعد خلقه في مدة حياته، فمن ذلك: الاستغاثة به عليه الصلاة والسلام عند القحط وعدم الأمطار".

إذن توسل الناس به صلى الله عليه وآله في حياته، والروايات والأشعار دالة على ذلك بل أنّ النبي صلى الله عليه وآله جاءه شخص وأبان له أنهم في شدة من القحط، فدعا النبي ص وأمطرت السماء،

فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : ‹‹لله در أبي طالب لو كان حيا لقرت عيناه، من ينشدنا قوله؟ فقام عمر بن الخطاب فقال: عسى أردت يا رسول الله :

وما حملت من ناقة فوق رحلها * أبر وأوفى ذمة من محمد

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليس هذا من قول أبي طالب، بل من قول حسان بن ثابت، فقام علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: كأنك أردت يا رسول الله [قوله]:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ربيع اليتامى عصمة للأرامل››[1].

وكان النبي صلى الله عليه وآله يسمع ويستغفر لأبي طالب عليه السلام، والحديث فيه عدة نقاط:

الأولى: استجابة دعوته صلى الله عليه وآله.

الثانية: إقراره صلى الله عليه وآله كلام عمه أبي طالب عليه السلام.

وأبيض يستسقى الغمام أي به صلى الله عليه وآله، والمراد بالوجه هنا ذاته صلى الله عليه وآله.

الثالثة: استغفاره لعمه أبي طالب عليه السلام، ولا يستغفر صلى الله عليه وآله لكافر.

الرابعة: أوضح صلى الله عليه وآله أنّ أبا طالب لو كان حاضراً لوصل إلى حالة من الرضا والأنس لاستجابة دعوة المصطفى صلى الله عليه وآله.

الاستغاثة بالنبي من الجوع

وقال ابن حجر أيضاً: "وكذلك الاستغاثة به من الجوع ونحو ذلك مما ذكرته في مقصد المعجزات، ومقصد العبادات في الاستسقاء".

استغاثة ذوي العاهات

أما استغاثة ذوي العاهات به صلى الله عليه وآله فهي مشهورة فقد روى عثمان بن حنيف أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام خبراً رواه النسائي، والترمذي عنه رحمه الله: أن رجلاً ضريراً أتاه، فقال: ادع الله تعالى أن يعافيني. فأمره صلى الله عليه وآله أن يتوضأ ويحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء، والنبي لم يدعو له بل علمه أن يتوضأ وضوءً جيداً، ويدعو بدعاء فيه توسل بذاته صلى الله عليه وآله، فيقول:

---

[1] – الأمالي للمفيد ص٣٠٢–٣٠٤.

(اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بحبيبك محمد نبي الرحمة يا محمد أني أتوجه بك إلى ربك في حاجتي لتقضى. اللهم شفعه في)، والحديث صحيح على شرط الشيخين ورجاله كلهم ثقات، ونلحظ هنا خطاباً مباشراً للنبي صلى الله عليه وآله، أي أنه يفصح أنّ توجهه إلى الله تعالى بذاته صلى الله عليه وآله، وذلك حقيقة التوسل الذي يقوم به المسلمون.

وقد صحح الحديث البيهقي، وذُكر بأنّ الأعمى عندما جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وطلب منه أن يدعو له امتنع، وأمره أن يسبغ الوضوء، ونتيجة توسله أبصر، أي أنّ الله تعالى استجاب له الدعاء، ولو كان التوسل شركاً كيف استجيبت دعوته بتوسله بالنبي صلى الله عليه وآله؟

التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته

"وأما التوسل به بعد موته في البرزخ فهو أكثر من أن يحصى، أو يدرك باستقصا"[1].

وقد ذكر صاحب كتاب مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام كثيراً ممن توسل بالنبي ص وهو ميت، فاستجاب الله تعالى دعاءه.

استحباب التوسل

وقد علّق العلامة الحجة الشيخ السبحاني يحفظه الله بعد ذكره ذلك، بقوله إنّ لابن حجر العسقلاني مقاماً شامخاً عند أهل الحديث لا يعدل إلى غيره إلاّ بدليل، وهو خريت فن الحديث، وأستاذه، فكلامه يعرب عن تسليمه صحة ما نقل من الأحاديث[2].

أي عندما ينقل ابن حجر الأحاديث ويبين توسل الخلق به قبل خلقه، وبعد خلقه في الدنيا وبعد انتقاله إلى ربه بعد موته، فإنّه يدلل على أنّ التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله كان مشهوراً بين الناس قبل الإسلام وبعده، لعلو رتبته بين الأنبياء لأنّ الله تعالى أخذ عليهم العهد والميثاق لنبوته صلى الله عليه وآله، وقد ذكرنا ذلك لنؤكد به على أنّ التوسل ليس مشروعاً أو مباحاً فحسب بل مستحباً تتحقق به مقاصد المتوسل لعلو رتبة المصطفى صلى الله عليه وآله وقدسية ذاته.

القسم الخامس: مشروعية التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله.

---

[1]- في ظلال التوحيد للسبحاني ص٦٥٦.

[2] - في ظلال التوحيد للسبحاني ص٦٥٦، قال الشيخ السبحاني: "إن لابن حجر العسقلاني مقاما شامخا عند أهل الحديث ، لا يعدل عنه إلى غيره إلا بدليل وهو خريت فن الحديث وأستاذه ، فكلامه يعرب عن تسليمه صحة ما نقل من الأحاديث التي تقدمت في الفصول السابقة".

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٣٥) صدق الله العلي العظيم.

حقيقة التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله:

استعرضنا آراء العلماء الذين ألفوا كتباً في التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله من مختلف المذاهب الإسلامية، موضحين أن التوسل بذاته صلى الله عليه وآله من الأمور المشروعة التي لا غطش فيها ولا إبهام.

ثم بينا أنّ التوسل يرجع في حقيقته إلى قدسية ذات النبي صلى الله عليه وآله، وعلم المتوسل بالمقام العبودي الشامخ لذاته صلى الله عليه وآله، فيسأل الله تعالى بهذه الذات التي تمحضت في قداستها، وأنّ ذلك هو ما فهمه كبّار علماء الإسلام من مختلف المذاهب الإسلامية، ثم أصّلنا البحث بأحاديث صحيحة وردت عن النبي صلى الله عليه وآله توضح مشروعية التوسل، كالحديث الصحيح الذي علمه صلى الله عليه وآله الضرير عندما جاءه شاكٍ إليه ما ألمّ به من ضراء وما اعتراه من كرب، فأمره صلى الله عليه وآله بإسباغ الوضوء، وأن يتوسل بذاته الشريفة إلى الله تعالى، ثم يطلب حاجته، ففعل الضرير ذلك، فاستجاب الله له الدعاء، والحديث صحيح على شرط الشيخين وغيرهما، وأوردنا كلاماً لابن حجر العسقلاني وهو إمام في الجرح والتعديل، من الصعب أن يورد أحاديث دالة على مشروعية التوسل وجوازه ليدلس أو يلبس بها على الناس، وقلنا إنه لا نتعقل أن يقع هؤلاء العلماء في خطأ، لأنّ الخطأ يمكن أن يصدر من عالم واحد، أما إذا كثر العلماء من مختلف المذاهب الإسلامية، فمن البعيد أن يخطأ جميعهم في فهم الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله، وكونها تنسجم مع مفاهيم الشريعة الإسلامية الغراء.

أولاً: التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته.

إن ما ذكرناه هو ما فُهم من بعض الصحابة، بل عمم إلى ما بعد حياة النبي صلى الله عليه وآله، وأن ذلك مشروع بعد وفاته صلى الله عليه وآله كمشروعيته في حياته.

عثمان بن حنيف وكيفية التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله

إن عثمان بن حنيف من الشخصيات الكبيرة، ومن ولاة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ومن صحابة النبي صلى الله عليه وآله، وقد فهم أن الحديث ليس خاصاً بحياته صلى الله عليه وآله، فقد جاءه رجل وقال له: عندي حاجة! وكلما أردت أن أدخل على الخليفة عثمان منعت، وإن دخلت لا يستقبلني

بوجهه، فعلمه التوسل الآنف الذي علمه النبي صلى الله عليه وآله الضرير فأبصر، وقال له: لكي تقضى لك الحاجة ويقبل عليك الخليفة بوجهه، عليك أن تتوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله، فإذا توسلت به إلى الله تعالى، ودخلت على الخليفة سيقبل عليك بوجهه ويقضي حاجتك، لقد أخذ هذا الصحابي الحديث السابق وطبقه على واقعة أخرى، أي فهم من الحديث مشروعية التوسل بنحو دائم ومطرد، وعدم اختصاصه بحياة النبي صلى الله عليه وآله، بل له استمرار وديمومة لما بعد وفاته صلى الله عليه وآله، وقد روى الطبري عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، ابن أخي عثمان بن حنيف، أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان وكانت له حاجة، ولم يلتفت إليه ولم ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف، وحدثه بذلك، فقال له ابن حنيف:

إيتِ الميضاة فتوضأ، ثم إيت المسجد فصل ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد، نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضي لي حاجتي، وهو هنا يخاطب النبي بأن يقضي له حاجته، والنبي فقير إلى الله كسائر العباد، فكيف يقضي له حاجته! والمراد هنا أن يدعو الله بأن يقضي حاجته، لأن الأمور كلها بيد الله تعالى، ذلك هو اعتقاد جميع المسلمين، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (آل عمران:١٥٤)، ثم قال له: إذا أردت أن تذهب إليه رح إليّ حتى أروح معك، فانطلق الرجل حتى أتى باب عثمان بن عفان، فجاء البواب وأخذ بيده، أي تغير الحال ففي السابق لم يلتفت إليه أحد، وبعد التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله، جاء البواب وأخذ بيده فأدخله على عثمان، ثم أجلسه معه على الطنفسة —البساط الخاص الذي يجلس عليه الخليفة– فقال له: ما حاجتك؟ فذكر الرجل حاجته، فقضاها له، ثم قال الخليفة: ما ذكرت حاجتك حتى كانت الساعة، أي كنت ناسٍ لحاجتك ولم أتوجه لها حتى جئتني هذه المرة، ثم قال له عثمان: متى ما كانت لك حاجة تعال إليّ سأقضيها لك[1].

إنّ ذلك يكشف عن عظمة التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله ومقامه العظيم عند الله تعالى الذي لا يمكن لأحد من الخلق أن يصل إليه، ولذا فمن توسل به إلى الله تعالى استجاب الله دعاءه، والحديث يبين مشروعية التوسل من ناحية، وفهم الصحابة ومنهم عثمان بن حنيف بأن تعليم النبي صلى الله عليه وآله للضرير أبان حياته صلى الله عليه وآله لا يختص بحياته، بل الأمر مشروع بعد وفاته.

شروط الاستجابة للمتوسل

---

[1] – مجمع الفوائد للهيثمي ج٢ ص٢٧٩

وقد أشكل بعض على الحديث قائلاً إذا كان التوسل الذي علمه النبي صلى الله عليه وآله للأعمى مفيداً ومشروعاً بعد وفاته صلى الله عليه وآله فسوف لن يبقى أعمى في الدنيا.

غافلاً على أنّ الدعاء مشروع ويستجيبه الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(غافر:٦٠) ومع ذلك ليس كل دعاء مستجاب لكون الاستجابة لها شروط، فمن دعا الله تعالى بقلب لاهٍ لا يستجيب له، ومن دعاه ولم يمجده، لن يستجيب له، إنّ كلامنا حقيقته بأنّ الشروط إذا توافرت يستجاب الدعاء، وليس متى تحصل الشرائط، ولنلتفت أيضاً أنه قد يتوسل شخص بالنبي صلى الله عليه وآله في حال حياته، ولكن المصلحة والحكمة الإلهية تقتضي أن لا يستجاب له، وعندما نقول إنّ الدعاء يستجاب ليس معنى ذلك بأنّ الله تعالى يستجيب لكل داع دون شرط.

استثمار التوسل:

نعم؛ إنّ الله تعالى قد لا يستجيب له في الدنيا بل يُدخر له في عالم الآخرة في وقت حاجته، الدعاء مستجاب غير أنّ النتيجة في عالم الآخرة، والدعاء أشبه بالاستثمار، قد تكون بعض العوائد حالية يستلمها فوراً، وبعضها الآخر يدخر للمسلم في عالم الآخرة، بل أنّ الكثير مما يسأله المسلم في حياته الدنيا يدخره الله تعالى له في عالم الآخرة، إنّ الرواية في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله صحيحة وطبقت بعد حياته صلى الله عليه وآله على يد أحد الصحابة الأجلة الذي كان والٍ لإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في البصرة.

وقد يقال هنا بأن الإمام عليه السلام ذمه لأنّه استجاب دعوة بعض الأغنياء.

والجواب: أنّ ذلك يخالف ولايته، والإمام عليه السلام يعلمه أدباً أخلاقياً بأنّ عليه إذا دعاه الغني فاستجاب له أن يستجيب للفقير إذا دعاه أيضاً، ولا يضر هذا الأدب بشخصية عثمان بن حنيف الكبيرة إذْ ليس معنى ذلك بأنه لا يغلط، والخلاصة أنّ الإمام عليه السلام علمه أدباً خاصاً لا يضر بشخصيته.

ثانيا: التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله قبل ولادته.

الأمر الآخر: هو أن النبي صلى الله عليه وآله تُوسل به صلى الله عليه وآله قبل أن يولد بل قبل أن يُخلق، فقد توسل آدم به قبل توبته، وظل التوسل بذاته صلى الله عليه وآله مستمراً.

ثالثا: التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله في طفولته.

لذا توسل به جده عبد المطلب لمعرفته بمقامه الشامخ والكبير، قيل إنه كان هناك جدب، وقلة مطر فأراد عبد المطلب أن يتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وكان رضيعاً، ولما توسل به سالت على أثر دعائه الأودية والبطاح، إذن التوسل به مشروع قبل الإسلام في تعاليم الأنبياء السابقين لأنّ عبد المطلب وبعض كانوا على الحنيفية.

أبو طالب والتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله

وكذلك توسل به أبو طالب عندما أجدبت مكة، فجاءت إليه قريش قائلين: يا أبا طالب نحن في قحط شديد، نحتاج المطر: (يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيال، فهلم فاستسقِ) ١.

ويكشف ذلك عن طهارة أبي طالب عليه السلام ومكانته، وأنّ الناس بوجدانهم يعلمون بأنّ التوسل بمن يجسد الطهر والعفاف لا يخيب عند الله تعالى، ولذا أقبلت قريش إلى أبي طالب فخرج وأخرج معه غلاماً هو النبي صلى الله عليه وآله، فألصق ظهره بالكعبة، وما في السماء قَزْعَة –ليس فيها شيء من الغيوم– وبعد ذلك أقبل السحاب من هاهنا وهاهنا كأنه موج متلاطم، وأغدق واغدودق أي هطل كثيراً، وانفجر له الوادي، وأخصب النادي والبادي، ثم مدح أبو طالب النبي صلى الله عليه وآله، بقوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وفي بعض الروايات: ربيع اليتامى، واللفظان قريبان في المعنى، فثمال معناه غياث اليتامى وملجأهم.

النبي صلى الله عليه وآله يمضي فعل أبي طالب عليه السلام

والأهم أنّ النبي صلى الله عليه وآله أقر فعل أبي طالب ولم يكتف بذلك بل ذكره بعد موته ع بسنوات عندما جاءه رجل وقال يا رسول الله نحتاج إلى مطر، فدعا النبي صلى الله عليه وآله واستجاب الله تعالى له الدعاء، وهطلت الأمطار الغزيرة، فقال صلى الله عليه وآله: لو كان عمي أبو طالب حاضراً لقرت عيناه، أي أمضى فعل عمه وجعله مشروعاً لأنّ السنة في اصطلاح الفقهاء والأصوليين هي قول المعصوم وفعله وتقريره، والنبي صلى الله عليه وآله يقرر حجية الفعل الذي قام به أبو طالب، ولو كان فعله غير منسجم مع روح التشريع لم يقل ص لو كان عمي حاضراً لقرت عيناه، بل لقال إنّ ما فعله خطأ، وما

١– مستدرك الوسائل للنوري ج٦ ص٢٠٧ – ٢٠٨.

كان ينبغي أن يصدر منه، بل استغفر لأبي طالب على المنبر، مما يدلل على مشروعية الفعل الذي قام به أبو طالب، وعلى العمق الإيماني لأبي طالب عليه السلام.

إنّ إقرار النبي صلى الله عليه وآله لفعل أبي طالب عليه السلام إقرار لفعل عبد المطلب، وإقرار لكل فعل يماثله ليصبح سنة، لأنه من تقرير الرسول ص، ولذا فإنّ التوسل بالذوات من الأمور المشروعة.

التوسل بأقرباء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

إنّ الخليفة عمر توسل بالعباس عم النبي صلى الله عليه وآله وهطل المطر، وقد ذكر المؤرخون والمحدثون أنه توسل به لقرابته من النبي صلى الله عليه وآله، وأنّ لهذه القرابة مكانة عند الله تعالى، وقد جاء ذلك شعراً:

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا فسقى الغمام بغرة العباس

أي بوجهه وطلعته.

أحيا الإله به البلاد فأصبحت مخضرة الأجناب بعد الياس[1]

---

[1]- الاستيعاب لابن عبد البر ج٢ ص٨١٤ – ٨١٥ : روى ابن العباس وأنس بن مالك أن عمر بن الخطاب كان إذا قحط أهل المدينة استسقى بالعباس قال أبو عمر وكان سبب ذلك أن الأرض أجدبت إجدابا شديدا على عهد عمر زمن الرمادة سنة سبع عشرة فقال كعب يا أمير المؤمنين إن بني إسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة الأنبياء فقال عمر هذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصنو أبيه وسيد بني هاشم فمشى إليه عمر وشكا إليه ما فيه الناس من القحط ثم صعد المنبر ومعه العباس فقال اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا وصنو أبيه فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ثم قال عمر يا أبا الفضل قم فادع فقام العباس فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه اللهم إن عندك سحابا وعندك ماء فانشر السحاب ثم أنزل الماء منه علينا فاشدد به الأصل وأدر به الضرع اللهم إنك لم تنزل بلاء إلا بذنب ولم تكشفه إلا بتوبة وقد توجه القوم إليك فاسقنا الغيث اللهم شفعنا في أنفسنا وأهلينا اللهم إنا شفعنا بمن لا ينطق من بهائمنا وأنعامنا اللهم اسقنا سقيا وادعا نافعا طبقا سحا عاما اللهم إنا لا نرجو إلا إياك ولا ندعو غيرك ولا نرغب إلا إليك اللهم إليك نشكو جوع كل جائع وعرى كل عار وخوف كل خائف وضعف كل ضعيف في دعاء كثير.

وهذه الألفاظ كلها لم تجيء في حديث واحد ولكنها جاءت في أحاديث جمعتها واختصرتها ولم أخالف شيئا منها وفى بعضها؛ فسقوا والحمد الله وفى بعضها قال فأرخت السماء عز إليها فجاءت بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالآكام وأخصبت الأرض وعاش الناس قال أبو عمر هذا والله الوسيلة إلى الله عز وجل والمكان منه

وقال حسان بن ثابت في ذلك:

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا * فسقى الغمام بغرة العباس

إنّ الناس أجدبوا ولما استسقى بالعباس استجاب الله تعالى الدعاء، ولم يستشكل أحد في ذلك.

التوسل أمر لا أشكال فيه

وفي ذلك إيماءة بأن التوسل لو كان غير مشروعٍ وفيه شيء من الإشكالية لكان حري بالمسلمين أن ينبهوا الخليفة على ذلك وأن يلفتوا نظره قائلين: لا ينبغي الاستسقاء بالعباس.

وجود البديل لا يمنع التوسل

إنّ الله تعالى شرع لنا الدعاء بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، والنبي صلى الله عليه وآله شرع التوسل بذاته صلى الله عليه وآله، وكلا الأمرين مشروع، وهو من قبيل أفعال الخير المتعددة، فمن كانت له حاجة يمكنه أن يدعو الله تعالى فتقضى حاجته، ويمكنه أن يتصدق ويحفظ بالصدقة كما يفعل المسافر، وبإمكانه أن يدعو الله تعالى أن يدفع عنه البلاء وبإمكانه أن يتصدق ليدفع عنه البلاء، ومن يريد أن تقضى له الحاجة له طرق ووسائل متعددة، فقد يدعو الله تعالى بالقرآن الكريم أو بالعمل الصالح الصادر منه أو بالذوات المقدسة والطاهرة أو بأسماء الله تعالى وصفاته، وكل تلك الطرق مشروعة، ولا يحصر المسلم بسلوك واحدٍ منها، كلها مشروعة بأدلة وبراهين متقنة.

التوسل بالعمل الصالح

ورد في الأحاديث مشروعية التوسل بالعمل الصالح، وقد ألمحنا إليه باقتضاب، وهو العمل الصادر من الإنسان، فمن تصدق أو صلى أو قام بأي عمل طيب، فأصبح مورداً للرضا والقبول، بإمكانه أن يسأل الله تعالى به، ويقول: إلهي أسألك بعملي الصالح أن تستجيب لي الدعاء، وذلك مورد اتفاق.

ضابطة التوسل بالعمل الصالح

والذي نريد أن نشير إليه هو أنّ المرء إذا صلحت ذاته صلحت أفعاله، هناك فرق بين صلاحية الذات وصلاحية الفعل، بعض الناس يصدر منه فعل صالح غير أنّ ذاته غير صالحة، إذْ أنّ صلاحية الذات

عم النبي وصنو والده الذي * ورث النبي بذاك دون الناس

أحيا الإله به البلاد فأصبحت * مخضرة الأجناب بعد إلياس

وقال الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب:

بعمى سقى الله الحجاز وأهله * عشية يستسقى بشيبة عمر

توجه بالعباس في الحدب راغبا * فماكر حتى جاء بالديمة المطر

مغايرة لصلاحية الفعل، وصلاحية الفعل مختلفة عن صلاحية الذات، والعمل الصالح إذا صدر من أي شخص جاز له أن يتوسل به، وضابطة التوسل بالعمل الصالح أنه محل قبول عند الله تعالى وهو كأسمائه الحسنى يرتضيه، ويأمر تعالى بسلوكه لأنه محل رضاه، والذات إذا صلحت وأصبحت مجتباه فإنها مرضية عند الله تعالى، وهي كالعمل الصالح يجوز التوسل بها.

التوسل بالعمل الصالح توسل بالذات

وينبغي أن نلتفت بأنّ الأحاديث التي تسوغ التوسل بالعمل الصالح دالة على جواز التوسل بالذوات الصالحة، لأن الضابطة في العمل هو صلاحه أي أنّ الملاك هو اتصاف العمل بالصلاح، والذات الصالحة التي استخلصت لله تعالى مثله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(يوسف:٢٤) يتوافر فيها ملاك وضابطة التوسل بالعمل الصالح.

روى أبو سعيد الخدري، قال من قال (حين يخرج إلى الصلاة اللهم ان أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي فانى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك ان تنقذني من النار وان تغفر لي ذنوبي انه لا يغفر الذنوب الا أنت وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يفرغ من صلاته)[1].

أي أنّ من يسأل الله تعالى يكون له حق على الله أن يعطيه، قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر:٦٠).

ومن قال: (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا –المشي إلى المسجد أو إلى الحج– فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة، إنما خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أن تعيذني من النار وأن تغفر ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أقبل الله عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك) أي أنّ من دعا الله تعالى بعمله الصالح وتوسل بمشاه تحقق له ذلك الأثر وهو غفران الذنوب، واستغفار الملائكة، وإقبال الله تعالى بوجهه الكريم عليه، وفي ذلك دلالة على ارتضاء الله تعالى لفعله، والملاك نفسه موجود في التوسل بالذوات الصالحة.

---

[1] – مسند أحمد لابن حنبل ج٣ ص٢١.

القسم السادس: العلاقة بين الروح والجسد.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٣٥) صدق الله العلي العظيم.

حقيقة التوسل بالميت

من الأمور الهامة المرتبطة بالتوسل العلاقة بين عالم الدنيا وعالم البرزخ، فقد تصور بعض بأنّ التوسل بالميت لا معنى له لأنه رمّ وتلاشى في التراب وانقطعت الصلة بينه وبين الأحياء وهذا تصور خاطئ لأمور:

أولاً: الروح لا تموت.

إنّ حقيقة الإنسان ليست بجسده بل بروحه، وجسده وإنْ تلاشى غير أنّ الروح باقية وهي حية ترزق عند الله تعالى، خصوصاً أرواح الرسل والأنبياء والأولياء، ومن سار مسارهم.

ثانياً: جسد الصالحين لا يبلى.

إنّ جسد الكاملين لا يتغير، ولذا عندما يحدث أمر فيخرج جسد بعض الصالحين من قبره، يُرى الجسد كأنه مات ذلك اليوم لم يتغير أبداً، إذن الجسد قد لا يبلى خصوصاً إذا كان صاحبه يأتي ببعض الأعمال الصالحة التي أشارت إليها الروايات مبينة بأنّ المداومة عليها تؤثر تأثيراً بالغاً في حفظه بعد الموت كغسل الجمعة، فمن واظب عليه لم يتحلل جسده بعد موته.

الصلة بين عالم الدنيا والبرزخ

إنّ العلاقة بين الأحياء والأرواح التي انتقلت إلى عالم الآخرة وطيدة لا تنقطع الصلة بينهما بالموت، وآيات القرآن الكريم تؤكد ذلك، إضافة إلى مواقف النبي صلى الله عليه وآله، وكلمات الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وقد أسهب العلماء من الغربيين والشرقيين في هذه المسألة، فكتبوا عشرات الآلاف من المجلدات تؤكد الصلة بين روح الإنسان عندما ينتقل من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، وبين من يعيش الحياة الدنيا.

والشاهد على أنّ التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وذوات الأنبياء عليهم السلام والصالحين لا يختص بحال الحياة، بل يشمل ما بعد الموت، وأنّ القول بعدم صحة التوسل بالنبي صلى الله

عليه وآله بعد موته ليس بسديد للصلة بين عالم الدنيا وعالم البرزخ وتصريح آيات القرآن والأحاديث والبحوث العلمية الحديثة تؤكد ذلك، أما الآيات والأحاديث فهي كثيرة نستعرض بعضها.

الروح بين عالمي الدنيا والبرزخ

لقد تحدثت الآيات عن الشهداء، وتمنيهم أن يدرك من في الدنيا ما هم عليه من رغد العيش، والحياة الكريمة، والمكانة العظيمة لهم عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ*فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران١٦٩-١٧٠)، والآية دالة على أمور:

الأول: حياة الشهيد بعد الموت.

إنّ الشهيد باقٍ في أتم حالة من الحياة، لأنّ معنى الحياة هو الحس والحركة والإدراك، والشهيد في أعظم درجة من إحساسه وحركته وإدراكه، والمظاهر الدالة على الحياة موجودة بأكمل صورة للشهيد في سبيل الله تعالى، بل يستبشر بمن لحق به، ويبشر الذين لم يلحقوا به بأن يصلوا إلى مقامه، وأن يلتفتوا إلى مكانة الشهادة في سبيل الله تعالى، والآية دالة على أنّ الشهيد المضحي بنفسه في سبيل الله تعالى حي يرزق، فكيف بمن كانت مكانته أكبر من الشهادة، ولا نريد أن نقلل من قيمة الشهادة، فمكانتها كبيرة، لكن الشهيد مهما قدم لا تصل درجته إلى درجة الأنبياء، بل لا تصل إلى درجة العالم الذي يرجح مداده على دماء الشهداء، وذلك لأن الشهيد يضحي من أجل مطلب حق، أما العالم فيهتدي كثير من الخلق بفكره وعلمه، ويصلون إلى الله تعالى، لأنّه يزيل الشبهات ويوصل الخلق شاطئ الأمان وساحل النجاة.

الثاني: الحياة الرغيدة للشهيد.

وآيات القرآن التي تحدثت عن الشهداء واضحة الدلالة على أنهم أحياء يرزقون منها ما جاء في (سورة يس) في حبيب النجار الذي آمن بالرسل واستشهد ودخل الجنة وتمنى بعد دخوله أن يعلم قومه بما هو فيه من رغد العيش قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ*بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس:٢٦-٢٧)، أي أن الله تعالى رفع درجته باستشهاده في سبيله، وإذا كان للشهيد تلك المنزلة فكيف بالعالم وكيف برسول الله صلى الله عليه وآله؟.

التواصل بعالم البرزخ

إن أعمال الخير التي نعملها للموتى تدلل على عمق الصلة بيننا وبينهم وأنهم يحسون ذلك ويدركونه، وقد دلت الأحاديث على أنّ من سلم على رسول الله رد صلى الله عليه وآله عليه، وكذلك من صلى عليه (اللهم صلِ على محمد وآل محمد)، أو توسل به صلى الله عليه وآله نال حاجته، أي أنه من الأمور التي لها التأثير الكبير على المتوسل كالسلام من المسلم والصلاة من المصلي، هناك انعكاس وتبادل بين عمل الخير الذي يقوم به المصلي والمسلم وفاعل الخير في الدنيا وبين الموتى.

إن من أعمال الخير التي ندب إليها الشارع الصدقة عن الوالدين والمؤمنين وإذا كانت الصلة منقطعة لم يكن معنى للصدقة وفقدت الأعمال القيمة المعنوية لها، ولم يستفد منها أحد غير أن المسألة ليست كما تصور بعض الناس بل أن الصلة تامة وهناك تبادل بين العالمين، لذا جاء في الروايات أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تحدث مخاطباً للأرواح في الغري، ودلل ذلك على أن الأرواح حية بل في قمة الحياة، لا تتأثر بمرور السنوات عليها أو بتحلل أجسادها، وحياتها لا ترتبط بفناء أجسادها أو قلة درجاتها، فهي في عالم من الارتقاء والسمو، خصوصاً من كان له ولد صالح يدعو أو ذكره المؤمنون فدعوا له أو كانت له صدقة جارية أو علم نافع.

نماذج حية بعد الموت

إنّ عطاء الله تعالى كبير يعطيهم من فضله، وذلك تذكير يحفزنا، ويلفت انتباهنا إلى الذين انتقلوا إلى عالم الآخرة، وأنّ ما وصلوا إليه من حياة راقية قدوة حسنة علينا أن نحتذي به لنصل إلى ما وصلوا إليه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾(النساء:٦٩)، أي أنّ من سار في صراط العبودية والطاعة للنبي صلى الله عليه وآله، فعاقبته أن يكون في عالم الآخرة مع الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين، وهم الدرجة الأولى، والصديقين وهم الدرجة الثانية، –والصديق هو من صدق الله ورسوله وطابقت أقواله لأفعاله، وأفعاله لأقواله، فلا يكذب قولاً ولا فعلاً– وهو أعلى رتبة من الشهداء، رغم عظم درجتهم، لأنّ القرآن الكريم قدمه عليهم مع أنه قد لا يستشهد لكن حياته أعلى مرتبة في عالم الآخرة، نعم؛ قد يكون شهيداً في سبيل الله تعالى، والصالح هو السوي، ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾(النساء:٦٩).

مقومات الحياة الحقيقة

من لا يؤمن بالله تعالى ولا يؤمن بعالم الآخرة، لا يدرك المفاهيم القيمية المرتبطة بالرسالات السماوية، ويتصور أن الحياة المادية حقيقة الحياة، وأنّ الموت نهايتها.

القيم الإيمانية وأثرها في حياتنا

أما من ترسخت القيم الإيمانية في وجوده، فإنّ نظرته للكون والحياة مختلفة، ويرى أنّ الأمور ترتبط بالجانب القيمي والإيماني من الشخصية، وبذلك يتحقق فارق بين من ينكر الآخرة، ولا يؤمن بالرسل والأنبياء، والملائكة واليوم الآخر، وبين المؤمن، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥).

تحلل الجسد لا يعني الفناء

أما من لم يع هذه الحقيقة الإيمانية يتصور أنّ الوجود المادي لجسده هو حقيقته، وإذا تحلل جسده انتهى كل شيء منه، وقد رد القرآن ذلك، قال تعالى: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ﴾ (السجدة:١٠)، تفصح الآية أنهم يظنون بأنّ تحلل الأجساد ورجوعها إلى عناصرها دليل على عدم العودة غير مستوعبين بأنّ ذلك لا يراد به الحياة الأخروية فضلاً عن الإعادة مرة ثانية، وهؤلاء من البعد بمكان عن إدراك عالم القيم.

الروح حقيقة الوجود

إنّ علينا أن نلتفت إلى ما أوضحه القرآن الكريم من وجود أمرين مختلفين، أحدهما الروح وهي حقيقة الوجود، والثاني الجسد وهو مركبة كالسيارة، وفناؤه وتلاشيه لا يؤثر في الروح أبداً ولا يغير من حقيقتها شيئاً، وحقيقة الإنسان بروحه، أما الجسد فهو مركبة يستفيد منها دون أن تؤثر على حقيقة وجوده لحكمة أوضحها الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن حكمة اقتران الأرواح بالأجساد؟ فأجاب عليه السلام: لئلا تطغى أي لولا ذلك لطغت وادعى كثير من الناس الربوبية، لكون الروح لها إمكانيات كبيرة، فقرنت بالجسد ليقلل من كبريائها، وغلوائها، ويحد من تلك الإمكانيات الكبيرة، لأنّ

الإنسان يطغى بالغنى، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:٦-٧)، نعم؛ هناك قلة من الناس لا يطغيهم الغنى.

الموت في ثقافة أهل البيت عليهم السلام

إذاً الروح باقية، وهي حقيقة وجود الإنسان، فهو بروحه وليس بجسده الذي قد يتحلل دون أن يضر أو يضير وجوده، وقد بيّن الأئمة عليهم السلام هذا المعنى مؤكدين أهميته.

مرحلة عبور لا فناء

خاطب الإمام الحسين عليه السلام أنصاره في يوم عاشوراء قائلاً: ‹‹صبراً بني الكرام، فما الموت إلا قنطرة، -جسر- يعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة، فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر؟›› أي أنّ من يخرج من الدنيا صالحاً يخرج من سجن إلى قصر، {وما هو لأعدائهم إلاّ كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب} ثم قال عليه السلام: حدثني أبي عن رسول الله صلى الله عليه وآله {أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، والموت جسر هؤلاء إلى جنانهم، وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذبت ولا كُذبت}[1].

الموت في ثقافة القرآن

وقد صرحت آيات القرآن بذلك موضحة وجود صلة بين الأنبياء السابقين وبين نبينا صلى الله عليه وآله بل وجود صلة بين المؤمنين والكافرين، من يعذب يدرك مقت المؤمنين له ولعنهم إياه.

خطاب الأرواح

إنّ بعض الأنبياء عليهم السلام خاطب قومه بعد موتهم كصالح، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف:٧٩) وخطابهم لا يعقل إلاّ إذا كانوا يشعرون، أما إذا كانوا لا يدركون فإنّ مقالته لن تصل إلى وجودهم وأرواحهم، لعدم الصلة، وكذلك خاطب رسول صلى الله عليه وآله قتلى بدر.

---

[1] - بحار الأنوار للمجلسي ج٦ ص١٥٤.

إنّ قول صـــالح عليه الســـلام ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف:٧٩) يؤكد الصلة القوية والثابتة بين الأحياء والأموات.

صوت من الدنيا إلى أعماق البرزخ

وهكذا خاطب شـعيب عليه السـلام قومه بعد أن أخذتهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ (الأعراف:٩١)، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ (الأعراف:٩١-٩٣) أي أعرض شـعيب عنهم ـــــ ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف:٩٣) أي قدمت لكم قصـارى جهدي، ولم تقبلوا ما قدمته لكم من رسالات السماء، فـ ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ –ومن كفر بنبي من الأنبياء كفر بجميعهم، قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة:٢٨٥).

الأعمال لغة التواصل بعالم البرزخ

إذن الآيات القرآنية تثبت وجود صلة متينة وقوية بين عالمي الدنيا والبرزخ، والأعمال كلها السيئة والحسنة لها ارتباط وثيق بعالم البرزخ والدنيا، وكل من يعمل خيراً ويهديه للأرواح يرى آثاره منعكسة عليه، فمن قام بصلاة الليل ودعا للمؤمنين بالمغفرة رأى آثار عمله الصالح عياناً.

القسم السابع: مفارقة الحياة لا تمنع التوسل.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٣٥) صدق الله العلي العظيم.

الصلة بعالم الآخرة

اتضح أنّ من الأمور الهامة المرتبطة بالتوسل مسألة الارتباط بين الدنيا والبرزخ، وأنّ الإنسان إذا انتقل من الحياة الدنيا لا تنقطع الصلة بينه وبين أهلها، بل أنّ الصلة بين الأموات والأحياء وطيدة خصوصاً بين من ارتقى في سلم التكامل، فإن سموه يتيح الصلة بينه وبين الأحياء لكونه يعيش أعلى درجات الحياة كالشهداء، الذين صرح الحق تعالى بأنهم أحياء، وكذلك من سار على حذوهم مقتدياً بهم فهو معهم، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾(النساء:٦٩) أي أنّ الرفقة الطيبة والجميلة التي ينبغي للمرء أن يتوق إليها وأن يسعى جاهداً لتتحقق له في عالم الآخرة هي الكون مع هذه النماذج التي ذكرها القرآن الكريم، ليبين أهمية السعي الحثيث للوصول إلى تلكم المراتب التي وصل إليها النبيون والصديقون والشهداء والصالحون.

نماذج سمت أرواحها

إنّ تلك الحياة بسموها المعنوي ورقيها دللت عليها آيات القرآن الكريم والروايات عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، واستعرضنا بعض الآيات التي خاطب فيها بعض الأنبياء قومه كصالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾(الأعراف:٧٩) وشعيب عليه السلام وآيات أُخر كالآية التي في سورة يس عندما استشهد حبيب النجار في سبيل الحق مصدقاً للرسل التي أرسلها عيسى عليه السلام، فوصل إلى لقاء الله تعالى تمنى أن يعلم قومه به، قال تعالى: ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾(يس:٢٦-٢٧) أي: أنّ الله تعالى لم يغفر له فقط بل جعل له درجة وشأناً معنوياً يتمنى أن يسير قومه مساره في طريق الأنبياء ليصلوا إلى ذلك المقام الذي تبوءه عند الله تعالى، وهناك روايات دالة على ذلك كمخاطبة النبي ص لقتلى المشركين في بدر، قائلاً لهم: ‹‹هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟››[1] لأنّ الإنسان يجد جزاء عمله، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(الزلزلة:٧-٨) أي من يعمل سوءً يره ولو كان قليلاً ومن يعمل خيراً يره ولو كان قليلاً، وبما أنّهم لم يدخروا

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج١٩ ص٣٤٦.

وسعاً في حربهم للنبي صلى الله عليه وآله خاطبهم بقوله: ‹‹هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا››[1].

فقد نصرني وسأتبوأ مقام الصدق عند مليك مقتدر في الآخرة، ومن سار في طريق الحق تبوأ مكانة عند الله تعالى بعد موته، غير أنّ بعض المسلمين لم يستوعب حقائق الإسلام، وذلك أنّ حقائق الشريعة تستوعب بشكل تدريجي.

حقيقة التواصل مع الأموات

أشارت الروايات بأنّ كل جيل يتوصل إلى حقائق ويدرك معارف ويصل إلى أمور لم يصل إليها المتقدم، وذلك أنّ كثيراً من الحقائق من نعم الله تعالى على الأجيال اللاحقة، وعليه فإنّ الأجيال المتأخرة تستوعب حقائق الإسلام بنحو أكبر، جاء في رواية عن إمامنا زين العابدين عليه السلام بأنّ عمق التوحيد يصل إليه المتأخرون نتيجة للكم الهائل من وضوح الحقائق، فعندما سُئل عليه السلام عن التوحيد قال: ‹‹إن الله عز وجل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون ، فأنزل الله تعالى (قل هو الله أحد) والآيات من سورة الحديد››[2] أي أنّ المتأخرين يصلون إلى حقائق لم يصل إليها المتقدمون، لذا لا نتعجب إذا خاطب بعض المسلمين النبي صلى الله عليه وآله متعجبين من مخاطبته الموتى وهم لا يسمعون، فبيّن لهم صلى الله عليه وآله بأنّ من يموت لا يفنى وأنّ تلاشي جسده لن يؤثر على حقيقته وهي الروح، قال صلى الله عليه وآله: ‹‹بئس القوم كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس "فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله أتنادي قوما قد ماتوا ؟ فقال : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق . وفي رواية أخرى: فقال صلى الله عليه وآله : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني››[3] لقد خاطب صلى الله عليه وآله المشركين بعد أن قتلوا خطاب الأحياء الذين يسمعون وتفاعل وإياهم في الخطاب، ولو كان موتهم فناء لهم لما خاطبهم، وبذلك تبين أن فناء الجسد ليس بفناء للروح التي هي حقيقة وجود الإنسان.

حوارات مع الأموات:

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج١٩ ص٣٤٦.

[2] – الكافي للكليني ج١ ص٩١.

[3] – بحار الأنوار للمجلسي ج١٩ ص٣٤٦.

وقد ذكرنا بأنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خاطب الأرواح، روى المتأخرون عنه ع بأنه عندما وضعت حرب الجمل أوزارها خاطب شخصيات كبيرة كطلحة وكعب بن سور ليعطي درساً للأجيال يتذكره الإنسان مهما بعُد التأريخ ليصل إلى العمق المعرفي والإيماني، فأجلس الإمام عليه السلام كعب بن سور وهو قاضي البصرة بين شخصين، يمسكان به، فقال عليه السلام: يا كعب بن سور قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثم قال لهم ارجعوه، وهو بذلك يلفت نظر من معه بأنّ الخطاب له تأثير، ثم مر عليه السلام بطلحة صريعاً، فقال لأصحابه اجلسوا طلحة، فأجلس فقال: يا طلحة بن عبيد الله قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثم قال لهم ارجعوا طلحة، فقال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين ما كان كلامك لقتيلين لا يسمعان منك، فقال عليه السلام: يا رجل والله لقد سمعا كلامي كما سمع أهل القليب —البئر– كلام رسول الله [1].

وخطاب أمير المؤمنين عليه السلام لكعب بن سور وطلحة يدلل على الصلة القوية و تفاعل الميت ولو كان كافراً أو مذنباً.

لا انقطاع بين الأحياء والأموات

إنّ من أهم المعالم في هذا المجال الأعمال الصالحة التي تهدى للموتى، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله في الصلوات وغيرها «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» بل جاء في الزيارات: {أشهد أنك تسمع كلامي وترد سلامي وأنك حي عند ربك مرزوق}.

كما أنّ عمل النبي صلى الله عليه وآله يدلل على ذلك، قال ص: «فأمرني أن آتي البقيع فأستغفر لهم» [2] وإذا كانت الصلة منقطعة بين الأحياء والأموات، فلا معنى لاستغفاره صلى الله عليه وآله غير أنّ الصلة وطيدة وقوية، لذا فإنّ استغفاره يؤثر كثيراً.

العلاقة بين النبي صلى الله عليه وآله ومن يسلم عليه

وجاء في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه إذا سلم عليه أحد في أي مكان من العالم، فإنّ الملائكة السياحيين يبلغونه السلام، وفي رواية أخرى ما من أحد يسلم علي إلاّ رد الله عز وجل روحي حتى أرد عليه السلام.

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٣٢ ص٢٠٠.

[2] – سنن النسائي ج٤ ص٩٣.

الشهيد حي

إن المطلب أعمق من ذلك غير أن النبي صلى الله عليه وآله يوضحه بشكل بسيط يستوعبه السامع؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله هو في أعلى درجة من الشهيد، والشهيد حي عند ربه يرزق فكيف به صلى الله عليه وآله، وفي حديث آخر، من صلى عليّ عند قبري سمعته ومن صلى علي نائياً أبلغت صلاته.

الإمام عليه السلام يخاطب النبي صلى الله عليه وآله على المغتسل

إذن لا تنقطع الصلة بموت الإنسان غير أن العمق الذي تشير إليه الآيات والروايات يوضح المطلب بنحو أفضل، في الرواية أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما كان يغسل النبي صلى الله عليه وآله كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وآله: ‹‹بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتاً، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممن سواك من النبوة والإنباء،...›› إلى أن قال عليه السلام: ‹‹بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك››[1] أي ادعُ لنا، والرواية تدلل على حياته.

إجماع المسلمين على حياة النبي صلى الله عليه وآله في قبره

ولا يختص ذلك بأتباع أهل البيت عليهم السلام بل هو رأي المسلمين جميعاً، فقد أدعى السبكي إجماع المسلمين على زيارة النبي ص قولاً وفعلاً بالكتاب والسنة والإجماع والقياس، ثم أورد الآية الدالة على زيارة النبي صلى الله عليه وآله والتفاعل معه واستشعار المخاطِب بأنّ المخاطَب يسمع الكلام ويرد السلام مورداً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء:٦٤) وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (محمد:١٩) أي أن علماء العامة فهموا إجماع الأمة على ذلك وأنّ الآية المباركة شاملة لاستغفاره بعد موته، فمن يأتي للرسول صلى الله عليه وآله في أثناء حياته ويطلب منه صلى الله عليه وآله أن يستغفر له، يغفر الله له، وكذلك من يأتيه بعد موته، وقد روي هذا المعنى عن جماعة من أئمة العامة، منهم محمد بن عبد الله بن عمرو، فقد ذكرت له رواية في مناسك الحج، إذاً الآية تشمل وجود النبي بين ظهراني الأمة وتشمل انتقاله

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٢٢ ص٥٢٧.

صـلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى، فإذا جاء أحد وطلب منه صـلى الله عليه وآله أن يسـتغفر له كان من مصاديقها.

زيارة النبي صلى الله عليه وآله في قبره

ذكر ذلك ابن عساكر في تأريخه، وابن الجوزي في منير العزم الساكن، وبعض علماء العامة وفي رواية عن محمد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة فأتيت قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فزرته وجلست بحذائه فجاء أعرابي فزاره، ثم قال يا خير الرسل إنّ الله أنزل في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾(النساء:٦٤)، وقد جئتك مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك يا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ربي – عز وجل – وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه *** فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء بقبر أنت ساكنه *** فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر الأعرابي [1]

وقد حدث ذلك في القرن الثاني ولم يرد عليه أحد، وهو دال على أن الأمر طبيعي.

رأي مالك في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله

و يهمنا هنا، كلام عملي لمالك –صاحب المذهب المعروف– فقد ناظره أبو جعفر المنصور في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فقال مالك: (يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإنّ الله تعالى أدب قوماً فقال: "لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ

---

[1]– تفسير ابن كثير لابن كثير ج١ ص٥٣٢، قال ابن كثير : قد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول " ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما " وقد جئتك مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه * فطاب من طيبهن القاع والاكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الاعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم فقال : يا عتبي الحق الاعرابي فبشره أن الله قد غفر له "

تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ" (الحجرات:٢)، ومدح قوما فقال: "إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ" (الحجرات:٣)، وذم قوما فقال: "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" (الحجرات:٤)، وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً.

فاستكان –أي أذعن– لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله؛ أأستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله؟) خلافاً لمن يقول بأن استقبال قبر النبي ص في الدعاء شرك.

(فقال مالك: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟).

أي: لماذا تلتفت إلى القبلة ولا تقابل رسول الله صلى الله عليه وآله والحال أنّه صلى الله عليه وآله هو الوسيلة في الدنيا والآخرة، وقد نقل هذا الحوار ولم يعلق عليه بأن مالك أشرك، لأن علماء المسلمين فهموا بأن التوجه إلى رسول الله حال الدعاء لا إشكال فيه، ذلك أنّ الرسول صلى الله عليه وآله عبد من عباد الله ومن استشفع به شُفع لذا قال مالك:

(بل استقبله واستشفع به، فيشفعك الله؛ قال تعالى: "وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا" (النساء:٦٤)) [1].

وهذه القضية غاية في الأهمية، والحوار رائع ويدفع أي شبهة، ويدلل على أن ذلك ليس مختصاً بمدرسة أهل البيت عليهم السلام كما تصوره بعضٌ، بل يعم المسلمين جميعاً إلا من حصلت لديه شبهة فبعد عن الصواب.

القسم الثامن: تفاعل الأموات مع الأحياء.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٣٥) صدق الله العلي العظيم.

---

[1] – كتاب الشفاء للقاضي عياض ج٢ ص٤١.

الأرواح لا تفنى

من الأمور التي دلل بها على عدم صحة التوسل بالذوات عدم الاتصال بين من انتقل عن عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، وبينا أنّ ذلك إما أن يرجع إلى القول بفناء الأرواح كفناء الأجساد، وهو أمر غير سديد، وقد أثبتنا في البحوث السابقة بأنّ الأرواح باقية وهي في أتم إدراك، وعدم اختصاص ذلك بأرواح الشهداء لأنّ هناك من ثبت لهم بالأولوية القطعية مقام أعلى من الشهداء كالأنبياء والرسل والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، ومن بلغ درجة الصديقين، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾(النساء:٦٩) والآية موضحة بأنّ رتبة الشهداء بعد الصديقين.

شبهتان لمنع التوسل بالذات

الأولى: وجود حاجز يمنع التواصل مع الأرواح.

أي أنّ هناك حائل بين عالم الأرواح والدنيا، هو البرزخ الذي يحجز ويمنع الاتصال بين العالمين، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(المؤمنون:١٠٠)، والآية دالة بإطلاقها على عدم الاتصال أي أنّ الميت إذا مات يعيش حياة برزخية تمنعه أن يؤثر بدعائه على من توسل به لحاجز البرزخ.

لا دلالة على عدم مشروعية التوسل

ولعلنا نعي الإجابة على هذا الإشكال باعتبار أنّ الآية معناها أنّ البرزخ مانع من رجوع من انتقل من الدنيا إلى عالم البرزخ إلى الدنيا مرة أخرى، والبرزخ لغة هو الحاجز فيحجز أرواح الأموات عن الرجوع إلى أجسادها في عالم الدنيا، وذلك مفاد الآية، ولا تدلل على عدم إدراك الميت ولا على عدم حياته ولا على عدم دعائه لمن توسل به، فكل ذلك بعيد تمام البعد عن مفادها، كما أنها غير دالة على عدم الإدراك وعدم توسل الميت ودعائه لمن توسل به، وتقرب به إلى الله تعالى، لأنّ المعنيين مختلفان، والبرزخ وإنْ كان هو الحاجز غير أنّه ينبغي أن يعرف معنى الحجز بين الشيئين، إذن فالآية غير دالة على عدم إمكان الاتصال بين الأموات والأحياء بأي نحو من الأنحاء وإلاّ لكانت على خلاف ما ورد في الروايات المعتبرة وعلى خلاف خطاب النبي صلى الله عليه وآله لمن ألقي في القليب في بدر، فقد خاطبهم ص، ولو كان

البرزخ يمنع من التفاعل بين الأحياء والأموات لما صح خطابه صلى الله عليه وآله، فتندفع شبهة التوسل بالأموات.

الثانية: عجز الأموات عن التواصل مع الأحياء

صرحت بعض الآيات بأنّ من في القبر لا يسمع ولا يعي، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (الروم:٥٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) وهما دالتان على عدم وصول خطاب النبي صلى الله عليه وآله لمن في القبر.

العجز عن التواصل مع الأجساد لا الأرواح

وكي يتضح الجواب على ذلك نذكّر بما سبق من وجود أمرين؛ هما الروح، والجسد.

والقرآن الكريم يتحدث تارة عن الجسد على حدة، وأخرى عن حقيقة وجود الإنسان كالآيات التي أفصحت بأنّ الشهداء لا يموتون بل يعيشون قمة الحياة، فهي لا تتحدث عن الأجساد، لأنّ من قتل مات، لكنها تفصح عن حياة لروحه.

الجسد وسيلة إيصال الإدراك إلى الروح

أما الآيات التي تحدثت عن الأجساد فهي تتحدث عن الجسد على حدة، والجسد لا يسمع لأنّ حقيقة الوجود للروح، ولا يشعر الإنسان بجسده بل إدراكه وشعوره بروحه، والحواس كالسمع والبصر وسائل لإيصال المعلومة تشبه السلك الكهربائي فهي توصل حقيقة الإدراك كالطاقة الكهربائية مع الموصلات ولا تؤثر إلاّ مع وجود القابلية، وحقيقة الإدراك والوعي والشعور مرتبطة بروح الإنسان أما جسده فلا يعي شيئاً لا في الدنيا ولا بعد موته بل هو وسيلة لإيصال الإدراك إلى الروح والله تعالى جعل العين واسطة لإبصار الأشياء وحقيقة الإبصار للروح بواسطة العين، والمرء يبصر ويسمع بروحه والسامع حقيقة هي روح الإنسان، أما الأذن والعين فهما آلتان توصلان المعلومة، والآيتان: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ (الروم:٥٢) ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) المراد بهما أنّ أجساد الموتى غير قابلة بأن تسمع وأن تعي، والمفهوم واضح حتى لدى بعض علماء الحنابلة.

قال ابن القيم:

(وأما قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) فسياق الآية يدل على أنّ المراد الكافر الميت القلب) أي لا يراد به جسد الكافر، ففسرها بمعنى أن روحه لن تقبل الهداية بعد موته.

الكفر يمنع استجابة الروح

إذن للآية تفسير آخر صحيح، لأنّ القرآن له أكثر من معنى، والمراد هنا أنّ الكافر الذي غطى كفره على قلبه لا يعي الحقائق النورانية، وذلك لمانع يمنع وصولها إلى روحه، فروحه لا تعي ولا تدرك الحقائق لكفره وذنوبه، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:١٤)، أي أنّ السيئات التي صدرت منهم منعتهم عن وصول الحق إلى قلوبهم، فلا يصلون إلى نور الهداية، ويدل ذلك على أنّ المراد بالكافر الميت قلبه لن يقدر أحد على إسماعه سماعاً ينتفع به[١].

والتقييد معناه أن الكافر يسمع، لكنه لا يستفيد كأهل الجاهلية عندما بلّغهم النبي صلى الله عليه وآله حقائق الإسلام سمعوها ولم يستفيدوا منها، والتعبير يراد به النتيجة أي أنّ من يسمع هو من يستفيد أما من يسمع ولا يستفيد فكأنه لا يسمع، وذلك كقولنا فيمن لديه علم لا يعمل به ليس بعالم، فنفي العلم بمعنى عدم التأثر بما لديه من علم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يراد به هذا المعنى، أي أنّ من في القبر يسمع لكنه لا يتأثر لأنه ران على قلبه ما كسبه من كفر وسيئات، والتفسير مقبول لدى المدارس الإسلامية المختلفة ولا يدلل على أنّ من سمى رتبة بتقواه وصلاحه لا يسمع ولا يدعو إذا كان في القبر، فالمعنيان مختلفان.

موارد من تفاعل الميت مع الأحياء

ثم قال ابن القيم:

(ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئاً البتّة ؛ كيف — ولو قلنا بهذا الرأي– لخالفنا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله– وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله أنهم يسمعون خفق نعال المشيّعين –الصوت الذي يخرج من الأحذية أي أنّ الموتى يسمعون خفق النعل في قبورهم– وأخبر صلى الله عليه وآله أن قتلى بدر يسمعون كلامه وخطابه)[٢].

١– الروح لابن القيم الجوزية – في المسألة الأولى: وهي هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا؟

٢– الروح لابن القيم الجوزية – في المسألة السادسة: وهي أن الروح هل تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم ؟

الأول: الأموات يسمعون الأحياء.

(وشرّع السلام عليهم –أي جعل ذلك شريعة– بصيغة الخطاب الذي يسمع وأخبر صلى الله عليه وآله أن من سلم على أخيه المؤمن ردّ عليه السلام)[1].

فالميت يسمع كما أكدت ذلك الأحاديث الصحاح عند العامة وعندنا ، واتضح بأنّ الآيتين غير دالتين على عدم وجود تفاعل بين عالمي البرزخ والدنيا، وأنّ الميت وإن انتقل إلى الدار الآخرة يستطيع أن يدعو لأخيه الحي، ويستجيب الله تعالى دعاءه في حق أخيه الحي خصوصاً إذا كان ذا رتبة، وهذا معنى ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٧٠).

الثاني: وجود الشعور والإدراك لدى الأموات.

وقد دللت الأحاديث أيضاً على الشعور والإدراك لدى الموتى، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ‹‹ما من رجل يزور قبر حميمه فيسلم عليه ويقعد عنده إلاّ رد عليه السلام وأنس حتى يقوم من عنده››[2] أي أنّ من جلس عند قبر لزيارته استأنس به صاحب القبر وتفاعل وإياه ورد عليه.

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله: ‹‹ما من رجل يمر بقبر كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلاّ عرفه ورد عليه السلام››[3] يوضح الحديث وجود خاصية لصاحب القبر الذي تعرفه بأنه سوف يسلم عليك ويعرفك، أما إذا مررت على قبر لا تعرفه فيرد عليك السلام فقط.

يبين النبي صلى الله عليه وآله أمرين:

الأول: أنّ من تعرفه سيتذكر العلاقة الوطيدة التي بينك وبينه، وسيأنس بذلك، أما إذا كنت لا تعرفه فليس هناك ماضٍ يتذكره فيأنس به وإنما سيرد عليك فقط.

الثاني: كل منهما دال على تفاعل الميت مع من يسلم عليه.

الثالث: تحدث الأحياء مع الأموات.

١– الروح لابن القيم الجوزية – في المسألة السادسة: وهي أن الروح هل تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم ؟

٢– كنز العمال للمتقي الهندي ج١٥ ص٦٥٦.

٣– كنز العمال للمتقي الهندي ج١٥ ص٦٥٦.

ومن الأمور الهامة الدالة على تفاعل الميت التلقين، فإنّ المسلمين يجمعون عليه عندما يموت الميت يلقن بالشهادتين، ويضيف أتباع أهل البيت عليهم السلام تلقينه بإمامتهم عليهم السلام إلى الإمام المهدي عليه السلام، وإذا كان الميت لا يسمع فلا ينفعه التلقين لأنه مجرد لقلقة لسان لا يستفيد منها شيئاً لكنه شرع لحكمة هي تثبيت الميت على عقائده.

ولو كان لا يفقه ما نقوله كان التلقين عبثاً غير أنه دال على أنّ الميت يدرك ويتفاعل مع من يلقنه، لذا كان التلقين من المستحبات المؤكدة، وقد استحسنه الإمام أحمد عندما قيل له إنّ المسلمين يلقنون الموتى بالشهادتين والإيمان بالرسل والأنبياء والكتب التي أنزلت عليهم فاستحسنه أحمد، وقال إنه من العمل الصالح، وبذلك يتضح عدم صحة قول إنّ الميت لا يدرك، وأنّ ما قيل كلمات بلا معنى لأنه لا حاجز يمنع التفاعل، ومعطيات الأحاديث والآيات وتفسير العلماء دالة على إدراك الميت وتفاعله عند المسلمين جميعاً.

خاتمة:

بساطة المعتقد الإسلامي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

صدق الله العلي العظيم

العقائد الإسلامية في القرآن الكريم

بينت آيات القرآن الكريم عقائد الإسلام بوضوح –الإسلام عقيدة ونظام– نظامه القوانين التي يجب على المسلم أن يقوم بها –العبادات والمعاملات–، وكلامنا ليس في النظام الإسلامي بل في تبيان حقيقة المعتقد الذي أفصحت آيات القرآن الكريم عن خطوطه العريضة في التوحيد والرسالة والمعاد بنحو مفهوم لعامة الناس مع إمكان استفادة العالم المتخصص لحقائق المعتقد.

تفاوت الناس في فهم الآيات القرآنية

هناك أسرار ودلائل لا يصل إليها عامة الناس، وسورة التوحيد مثال على ذلك، فهي تشرح حقائق التوحيد لمن وصل إلى مراتب عالية في العلم وفقه أسراراً لا يصل إليها عامة الناس، وسبب ذلك هو أنّ القرآن الكريم كتاب للناس كافة وهو زاد الله تعالى ومأدبته للخلق يأخذ كل واحد منه ما يتناسب مع مستواه العلمي والثقافي والفكري على حسب استعداده.

تناسب القدرة الذهنية والمعرفة العقدية

إنّ الله تعالى لا يكلف الناس ما لا يطيقون، ولم يجعل المعتبر من الفهم في التوحيد ما يصل إليه العلماء من خلال اللطائف التي بينها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وشرحها الإمام الرضا عليه السلام فحسب، لأنّ ذلك خاص بمن وصل إلى درجات عالية، ولا يتاح لعامة الناس أن يصلوا إلى تلكم الحقائق وأن يعرفوا تدقيقات الفلاسفة والحكماء في أسرار التوحيد، وكذلك الحال في المعاد والعدل الإلهي والإعجاز القرآني، وهلم جرا في العقائد، فلا يراد لعامة الناس أن يفهموا الفهم الدقيق وأنّ من لم يفهم ذلك فعقائده غير صحيحة.

شواهد كثيرة على ما تقدم:

النبي صلى الله عليه وآله و توحيد المرأة

منها: "أنّ النبي صلى الله عليه وآله سأل جارية أين الله تعالى؟ فأشارت إلى السماء"(كنز العمال للمتقي الهندي ج١ ص٤١٢) أي أنّ الله تعالى في السماء، فقبل صلى الله عليه وآله ذلك منها.

والحال أنّ الله تعالى ليس له مكان ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾(الحديد:٤) فلا يحده مكان، غير أنّ هذا الفهم لمن ارتقى مستواه في فهم التوحيد، والنبي صلى الله عليه وآله لم يبن المعتقد الخاطئ للجارية لأنّ مستواها لا يصل إلى ذلك، ورأى أنها موحدة، وأنّ التوحيد يفهم بما يتناسب مع عامة الناس، نعم؛ إنّ آيات القرآن الكريم فيها دقائق، كقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾(محمد:١٩) الخطاب وجه لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو خطاب للأمة، أي أنّ على كل مسلم أن يعلم أن لا إله إلاّ الله، وأن يعلم التوحيد بما يتناسب مع قدرته.

كان الناس في الجزيرة العربية مختلفين يعبد بعضهم الأصنام، وأما بعضهم الآخر فمن أصحاب الديانات السماوية، يختلفون في ثقافاتهم وأفكارهم غير أنّ الجميع فهم بنحو ما ما يراد بالوحدانية، وقبل النبي صلى الله عليه وآله ذلك منهم، ولم يرد على أحد لبساطة العقيدة الإسلامية، ولذلك انتشر الدين في أصقاع المعمورة بسهولة ويسر لسهولة المعتقد، وركّز النبي صلى الله عليه وآله بادئ ذي بدء على أمرين رئيسيين، وتفرعات أخرى لا تصل رتبتهما، وهما: التوحيد والرسالة، أما التوحيد –لا إله إلاّ الله– فكان ص ينادي ‹‹قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا››[١].

والتوحيد يستتبع العدل، ويستلزم المعاد، غير أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يذكر المعاد، وركز على التوحيد فقط، "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا".

حقيقة التوحيد

ومنها: أنّ النبي صلى الله عليه وآله لما بعث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى خيبر ليقاتل اليهود، ‹‹فدعا علياً عليه السلام فبعثه، فقال له: "اذهب فقاتل حتى يفتح الله عز وجل عليك ، ولا تلتفت" فمشى ساعة أو قال: قليلاً، ثم وقف ولم يلتفت، فقال: يا رسول الله على ما أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله››[٢] أي أنه ليس عزير ابن لله، لأنّ الله تعالى لم يتخذ صاحبة ولا

١– بحار الأنوار للمجلسي ج٩٠ ص٣١١.

٢– بحار الأنوار للمجلسي ج٢١ ص٢٧.

ولداً، فأمر صلى الله عليه وآله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على أن يقاتل على التوحيد كمفهوم واضح وبسيط يفقهه عامة الناس بحده الأدنى، وله مراتب يصل العلماء إليها بل أنّ كل حقل من الحقول المعرفية له مراتب، فالسير والسلوك فيه تقي وأتقى، والعلم عالم وأعلم، والزهد زاهد وأزهد، ودرجات الزهد والعلم والتقوى تختلف، وكذلك الحال في درجات المعرفة والتوحيد والعقيدة الإسلامية بنحو عام، لذا لم يقل النبي صلى الله عليه وآله بأنّ من لم يصل إلى حد كذا من المعرفة فهو كافر، بل ركز صلى الله عليه وآله على الشهادتين، ومدرسة أهل البيت عليهم السلام رغم أنها ترى أنّ الرسالة تستلزم الإمامة، ويفهم ذلك من الآيات والروايات المعتبرة إلاّ أنه إذا لم يفهم أحد ذلك من آيات القرآن والأحاديث الواردة عن المصطفى صلى الله عليه وآله فلم يرَ بأنّ التوحيد يستلزم العدل والمعاد، وأنّ له خصوصيات وحيثيات تفصيلية عميقة لن يضره ذلك، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يرد أحداً وقبل من الجميع، وكل من تشهد الشهادتين دخل الإسلام، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وما قال صلى الله عليه وآله بأننا لا نقبل إسلام المسلم إلاّ إذا وصل إلى مرتبة خاصة، لبساطة وسهولة فهم العقيدة الإسلامية مع حض المسلم لرفع مستواه العقدي والعلمي، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(المجادلة:١١) ووضوح أنّ الرقي المعرفي لا يضير من بقي على درجته الأولى، ومعرفته البسيطة بالتوحيد والنبوة والمعاد كافية، وهو مسلم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، نعم؛ أخذ النبي صلى الله عليه وآله يوضح التشريعات مبيناً ارتباط بعضها ببعض، فقال صلى الله عليه وآله: ‹‹بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان››[1].

هذه دعائم غير أنّ البداية كانت بالسهولة واليسر، وقد صرحت الأحاديث بأنّ من اقترف كبيرة من الكبائر وعمل ذنباً لن يضر ذلك بإسلامه، بل أنّ بعض الروايات شجبت التكفير لأهل الكبائر مبينة بأنّ مرتكب الكبيرة لا يستطيع أحد أن يكفره وهو باق في ربقة الإسلام تشمله دائرته، إذن كان التوجيه العام للنبي صلى الله عليه وآله بهذا النحو وعلى هذا النسق، وعمل على ذلك علماء المسلمين، وحتى عندما دخلت إشكاليات كبيرة وأهواء ترتب عليها تكفير بعض المسلمين لبعضهم الآخر، فَهِم المخلصون بأنّ التكفير لمصالح سياسية، ولا ينتمي إلى الفكر العقدي السليم المتلقى من الآيات القرآنية والأحاديث الواردة عن المصطفى صلى الله عليه وآله، بل كان من أجل الحصول على مطالب سياسية، ليس إلاّ، فكانت بعض فرق المسلمين تكفر بعضها الآخر، وسالت دماء، وترتب على ذلك إشكاليات كبيرة

---

[1] – صحيح ابن خزيمة ج١ ص١٥٩.

لخروجهم عن جادة الصواب وعن المنهج الوسطي والخطوط العريضة التي أراد الإسلام للأمة أن تبقى في إطارها، ورغم التفاوت في الفهم العقدي إلاّ أنّ ذلك يرجع إلى اختلاف رتبة العلم، ومن لم يرتق تلك الرتبة مقبول في دائرة المسلمين وإنْ انخفضت منزلته، لكن ذلك لا يضر بإسلامه، كما أنّ رتبة ومقام من ارتقى محفوظان له، والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة عمل بها علماء المسلمين من المذاهب المختلفة.

منها الحديث الذي تقدم عندما قال الإمام أمير المؤمنين للمصطفى صلى الله عليه وآله على ماذا أقاتلهم؟ فقال له: ‹‹قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل››[1].

أي على الشهادتين فقط، أي أنّ الدخول في ربقة المسلمين وفي دائرة الإسلام يتوقف على ألفاظ مجردة يتلفظ بها المرء ويصبح مسلماً، قال الإمام الشافعي في كتاب الأم:

"إن رسول الله قال: «لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله ، فإذا قالوها؛ عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله»"[2].

فمن قال لا إله إلاّ الله لا يقاتل لأنه مسلم، نعم؛ إذا قتل مسلماً اقتص منه.

ثم قال : "فأعلم رسول الله أنّ فرض الله أن يقاتلهم حتى يظهروا أن لا إله إلاّ الله، فإذا فعلوا منعوا دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها يعني بما يحكم الله عليهم فيها، وحسابهم على الله بصدقهم وكذبهم وسرائرهم، الله العالم بسرائرهم" أي لا نفتح دخائلهم ولا نعرف ما في ضمائرهم، العالم بسرائرهم هو الله تعالى.

"وهو المتولّي الحكم عليهم، دون أنبيائه وحكّام خلقه، وبذلك مضت أحكام رسول الله فيما بين العباد من الحدود وجميع الحقوق، وأعلمهم أنّ جميع أحكامه على ما يظهرون، وأنّ الله يدين بالسرائر" ومعنى كلامه أنّ من أقر بالإسلام يُتعامل معه كمسلم، رغم عدم العلم بسريرته ودخيلته، وحسابه على الله تعالى.

حقيقة الإسلام

ومنها: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوضح من المسلم؟ فقال صلى الله عليه وآله: ‹‹من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذاك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله››[3].

إذن دلائل الإسلام هي:

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٢١ ص٢٧.

[2] – كتاب الأم للشافعي ج١ ص٢٩٣.

[3] – بحار الأنوار للمجلسي ج٤٧ ص٢٧١، صحيح البخاري ج١ ص١٠٢.

الأولى: الشهادتان.

الثانية: استقبال القبلة بأن يصلي إليها.

الثالثة: الالتزام بالصلاة.

الرابعة: أن يأكل ذبح المسلمين.

وبذلك يكون مسلماً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

ومنها: قوله صلى الله عليه وآله: ‹‹أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله››[1].

والأحاديث تفصح عن بساطة وسهولة الدخول في الإسلام، وأنّ من أراد أن يكون مسلماً عليه أن يتشهد الشهادتين، وأن يقيم الصلاة، وأن يأكل ذبح المسلمين، ولا يقال إنّ الذبيحة كانت من ذبح أصحاب المذهب المخالف لنا، لأنّ ذلك خلاف ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله من إطلاق، وعلى المسلم أن يأكل من ذبح من يتشهد الشهادتين ويستقبل القبلة، ويصلي إليها دون تزمت، بل أنّ الإسلام لم يكتفِ بذلك فقط بل نهى عن التكفير، ورأى أنّ من دخل دائرة الإسلام وأصبح مسلمًا لا يجوز تكفيره حتى وإنْ صدرت منه بعض الكبائر والنهي قاطع ومؤكد يفصح بأنّ التكفير قد يؤدي إلى كفر من صدر منه، وأن علينا أن نحذر من تكفير المسلمين خصوصاً من نختلف معه مذهبياً، لأنّ الاختلاف المذهبي طبيعي بل الاختلاف بنحو عام سنة من سنن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(هود:١١٨) فالناس يختلفون في التشخيص، ولا يؤدي الاختلاف إلى التكفير، بل علينا أن نعي إشكالية كبيرة يقع فيها بعض الشواذ من طلبة العلم، وبعض أصحاب المقاصد السيئة الذين يكفرون المسلمين لمقاصدهم، ويتخذون التكفير وسيلة للوصول إلى مآربهم، لكن أصحاب المقاصد الحسنة، همهم جمع كلمة المسلمين، والنداء للوحدة، وشجب الفرقة، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٣) إنّ الالتفات بأنّ التكفير سلاح أعداء المسلمين لتفكيك لحمة الأمة، وأنّ العدو يشدد على الافتراق بين المسلمين ويذكي نار الفرقة في كل عصر، ويتبعه الشاذ من طلبة العلم، ليعمل بغيه كلما واتته الظروف فيفرق الأمة، من هنا علينا أن نعرف العالم بعلامات:

أهمها السير في جادة الصواب، فلا يميل ولا يزيغ عن الهدي النبوي في التأكيد على الأخوة والوحدة، والأحاديث واضحة، فقد نهى النبي صلى الله عليه وآله عن التكفير، وفهم ذلك علماء الإسلام

---

[1] – صحيح البخاري ج١ ص١٠٢–١٠٣.

قديماً وحديثاً، قال صلى الله عليه وآله: ‹‹بني الإسلام على خصال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله والجهاد ماض منذ بعث رسله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين يقاتلون الدجال لا ينقصهم جور من جار ولا عدل من عدل وأهل لا إله إلا الله فلا تكفروهم بذنب ولا تشهدوا عليهم بشرك››[١].

والذنب الذي يقترفه المسلم لا يؤدي إلى اتهامه بالشرك أو تكفيره، بل يبقى من أهل الملة وإن صدرت منه الكبائر قال صلى الله عليه وآله: ‹‹لا تكفروا أحداً من أهل القبلة بذنب وإن عملوا الكبائر››[٢] وقال صلى الله عليه وآله: ‹‹بني الإسلام على ثلاث أهل لا إله إلاّ الله لا تكفروهم بذنب ولا تشهدوا لهم بشرك››[٣] ولم يكتفِ صلى الله عليه وآله بذلك بل أردف بأنه ‹‹لا يرمي رجل رجلاً بالفسق ولا يرميه بالكفر إلاّ ارتدت عليه إنْ لم يكن صاحبه كذلك››[٤] أي أنّ قول أحدٍ هذا كافر يرجع إليه، وقال صلى الله عليه وآله: ‹‹ومن قذف مؤمناً بكفر فهو كقاتله ومن قتل نفسه بشيء عذبه الله بما قتله››[٥] وقال صلى الله عليه وآله: ‹‹أيما رجل مسلم كفر رجلاً مسلماً فإنْ كان كافراً وإلاّ كان هو الكافر››[٦] والأحاديث واضحة الدلالة لا يمتري أحد فيها، والعالم السوي لا يتبع الهوى بل ينطلق من الآيات والأحاديث، ولا يقول بأنّ اجتهاده أدّى إلى تكفير بعض أهل الملة لأنّ التكفير مسألة تختلف عن غيرها، والاجتهاد شيء وفهم مسألة التكفير شيء آخر، ومع أنّ الاجتهاد ليس بحجة على من اختلف مع المجتهد في الفهم، والمجتهد لا يستطيع أن يحمل آراءه مجتهداً غيره يختلف وإياه، فلا يجوز لمجتهد أن يرى أنّ الصواب في المسألة التكفير على ما يرتئيه دون غيره، لأنّ التكفير مسألة يختلف أمرها عن غيرها من المسائل، وتأكيد المصطفى صلى الله عليه وآله والعلماء على ذلك إلاّ أنّ مما يؤسف له كثرة التكفير في الفترة الأخيرة مع تجاهل من صدر التكفير منه بأنه السلاح الفاتك لأعداء الأمة لتفريق المسلمين وللاحتراب الداخلي فيما بينهم.

---

١ – كنز العمال للمتقي الهندي ج١ ص٢٩.

٢ – كنز العمال للمتقي الهندي ج١ ص٢١٥.

٣ – كنز العمال للمتقي الهندي ج١ ص٢٧٧.

٤ – مسند أحمد ج٥ ص١٨١.

٥ – سنن الترمذي ج٤ ص١٣٢.

٦ – كنز العمال للمتقي الهندي ج٣ ص٦٣٥.

إنّ على المسلمين أن يدركوا خطر التكفير لأنه من أعظم الأخطار التي تحدق بأمتنا الإسلامية، ويعلم بأنّ من أراد لأمتنا الخير سيرفع نداء الوحدة والتسامح وسيشجب الفرقة والتعنت والراديكالية وضيق الأفق الذي يرفعه بعض قاصري النظر لمآربهم السيئة.

المعارف التوحيدية عند الزهراء عليها السلام

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ*فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ*إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾(الكوثر:١-٣). صدق الله العلي العظيم.

حديث الزهراء عليها السلام في التوحيد.

الصديقة الزهراء عليها السلام هي الخير الكثير الذي أُعطي لرسول الله صلى الله عليه وآله، وقد ظهر على أصعدة متعددة، وفي ميادين كثيرة، من أهمها ميدان التوحيد.

أمر الله تعالى الأنبياء والرسل أن يوضحوا حقائق التوحيد للخلق، لما له من أهمية تنعكس على الإنسان، وتحقق له مزيداً من القرب، وللصديقة الزهراء عليها السلام أدعية وكلمات أوضحت فيها حقائق التوحيد الذي جاء به القرآن الكريم، ذلك أنّ التوحيد من المفاهيم التي تحتاج إلى إيضاح وشرح، وقابلية من لدن المتلقي، وقد شرحت عليها السلام حقيقته في خطبتها، وأوضحت معنى (لا إله إلا الله) مبينة حيثيات دقيقة لمعانيها سنسلط الضوء على بعضها.

التوحيد العملي.

قالت عليها السلام: ‹‹وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها››[1] بيان لما يترتب على التوحيد في مقام العمل من آثار كإخلاص العمل له تعالى بأن تكون الأعمال الصادرة لا يراد بها جزاءً ولا شكوراً من أحد، وإنما يراد بها الله تعالى وحده، لأنّ حقيقة التوحيد أن تعلم بأن الله تعالى حاضر وناظر ومتصرف مهيمن على الكون كله، وعندئذ لن ترجو شيئاً من غيره

---

[1] مقاطع من شرح خطبة الزهراء عليه السلام من كتاب الاحتجاج للطبرسي ج١ ص١٣٢—١٣٣ والنص كالتالي: (وضمن القلوب موصولها ، وأنار في التفكر معقولها ، الممتنع من الأبصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ، ومن الأوهام كيفيته ، ابتدع الأشياء لا من شئ كان قبلها ، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها كونها بقدرته ، وذرأها بمشيته ، من غير حاجة منه إلى تكوينها ، ولا فائدة له في تصويرها ، إلا تثبيتا لحكمته ، وتنبيها على طاعته ، وإظهارا لقدرته ، تعبدا لبريته وإعزازا لدعوته ، ثم جعل الثواب على طاعته ، ووضع العقاب على معصيته ، زيادة لعباده من نقمته ، وحياشة لهم إلى جنته).

تعالى، لأن المكافأة والعطاء والمواهب والنعم من عنده آتية وإليه ترجع، ويتوقف هذا على الفهم الحقيقي لكلمة (لا إله إلا الله)، وإدراك معناها بأن لا مؤثر في الوجود بحق إلا الله، وجميع الأسباب باطلة، وهو تعالى السبب الحقيقي في التأثير.

التوحيد والإخلاص

قولها عليها السلام: ‹‹كلمة جعل الإخلاص تأويلها›› أي تعود في حقيقتها إلى إخلاص العبد بكل ما يصدر منه من أعمال لله تعالى، وهذه هي الحقيقة الصحيحة، والموحد بحق لا يريد غير الله تعالى، ومعنى (لا إله إلا الله) أي لا مؤثر في الوجود بحق إلا هو تعالى، وما عداه يستمد وجوده منه تعالى.

المعرفة القلبية لحقائق التوحيد.

لا يمكن أن تعرف حقيقة وجود الباري تعالى بكيف، ولا تُأين بأين، ولا يتضمنها زمان ليقال متى، فهو تعالى أين الأين فلا أين له، وكيف الكيف فلا كيف له، لا يقال له أين هو وكيف ومتى لإدراك حقيقة ذاته المقدسة، لأنّ خلقه لا يصل إلى ذاته، البرهان يحيل اكتناه حقيقة ذاته إذْ لا يستطيع أحد أن يحيط به علماً.

وحقيقة وصول الخلق إليه تعالى بالمعرفة القلبية، قال تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾(النجم:١١)، والصديقة الزهراء عليها السلام تشرح هذا المعنى بقولها: ‹‹وضمّن القلوب موصولها›› أي جعل الوصول إلى الله ليس عبر البراهين، فهي غير قادرة على إيصال الخلق لاكتناه الذات والإحاطة بها، وغاية ما يستطيعه الإنسان أن يتيقن بوجوده تعالى بقلبه، قال تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾(النجم:١١)، وذلك معنى قولها عليها السلام: ‹‹وضمن القلوب موصولها››.

تجلي أدلة حقائق التوحيد.

قولها عليها السلام: ‹‹وأنار في التفكر معقولها›› أي جعل الله تعالى البراهين الدالة على وجوده والموصلة إليه بينة الوضوح لمن تأملها وسبر أغوارها إنها توصل إليه دون اكتناه لذاته، وحقيقة التوحيد نيرة بادية متجلية، لا إبهام عليها ولا غطش فيها، ولا يشوبها ظلام، لأنه تعالى جعل الأدلة الدالة على وجوده في غاية الوضوح، قال تعالى: ﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(إبراهيم:٩)، إذن معنى قولها عليها

السلام: ‹‹وأنار في التفكر معقولها›› تبيان أنّ من فكّر في الأدلة وقارنها وجدها بينة الوضوح واضحة الدلالة على وجوده تعالى.

عجز الحواس عن إدراك الله تعالى.

قولها عليها السلام: ‹‹الممتنع من الأبصار رؤيته›› يجوز أن يُقرأ (من الإبصار ومن الأبصار)[1]، فالإبصار مصدر والأبصار اسم بمعناه، وهما بمعنى واحد.

ومعنى ذلك أنه بعد معرفة الأدلة الدالة على وجوده يدرك أنه تعالى ليس له جوارح كالأذن والفم والبصر والعيون والذائقة والشامة، لأنه تعالى لا يُحس ولا يُجس ولا يُرى ولا يُدرك بالحواس وجميع الأشياء لا يمكن أن تصل إليه، أو تراه، قال تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٠٣).

تنزيه الحق عن وصف الخلق

قولها عليها السلام: ‹‹ومن الألسن صفته›› الألسن والمقاول لا تصفه تعالى، وقد شرح الأئمة ع معنى عدم وصفه قائلين إنّ الصفة تنبئ عن الموصوف، والله تعالى لا صفات له تعبر عن ذاته، وصفاته تدلل على كماله المطلق، ولا تبين حقيقة ذاته، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات:١٨٠)، تبين الآية أن الله منزه عن وصف عامة خلقه.

المُخلَصون يصفون الله تعالى.

هو تعالى منزه عن جميع أوصاف خلقه، والذي يمكنه أن يصفه هو من اجتباه واصطفاه ووصل إلى حقائق التوحيد، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ*إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات:١٥٩-١٦٠)، وهم صنف من الخلق ذكرتهم الآية ممن نزه الحق عن وصف الواصفين لذاته، وأباح الله لهم أن يصفوه لقداسة ذواتهم وخلوها من شوائب الكدورة والرجس، وهو تعالى طهرهم تطهيراً، فينبئون عن حقائق التوحيد بالأوصاف التي يصفونه بها لتكون دالة على كمال وجوده، والصديقة الزهراء عليها السلام مصداق للمخلَصين المصطفين ووصفها مرضي لذلك.

---

[1]- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٩ ص٢٥٣: يمكن أن يقرأ الابصار - بصيغة الجمع والمصدر.

عجز الأوهام عن معرفة حقيقة التوحيد.

قولها عليها السلام: ‹‹ومن الأوهام كيفيته›› لا يستطيع الوهم أن يصل إلى تحديد الذات المقدسة، لأنها لا يمكن أن يحيط بها عقل ولا وهم ولا فكر، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾(طه:١١٠)، أي لا يمكن أن تكتنه ذاته، ولو أحاط الوهم بذاته لكانت الذات محدودة، والمحدود ممكن في وجوده، وهو ناقص، يتنافى مع وجوب الحق تعالى، إذْ وجوب وجوده كمال مطلق لا حد له، وقولها عليها السلام ‹‹ومن الأوهام كيفيته›› تبيان على أنّ الوهم ليس بقادر أن يكتنه الذات المقدسة، لأنها غنىً مطلق لا حد له.

الفرق بين صنع الخالق والمخلوق.

قولها عليها السلام: ‹‹ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها››، أوجد الله تعالى الممكنات – السماوات والأرض والأفلاك والمجرات – لا من شيء كان قبلها أي لا وجود سابق تقدم على الممكنات وأوجد الله تعالى المخلوقات من ذلك الوجود السابق، إذْ لا شيء في الأزل إلاّ الله تعالى بخلاف إطلاق الإيجاد والخلق على غيره تعالى فإنّ إيجاده من وجود متقدم ولا يستطيع الخلق أن يوجد شيئاً لا من شيء، أما الحق تعالى فقد ابتدع الأشياء لا من شيء قبلها متقدماً عليها ليكون مادة لها، وهذا فارق بين الابتداع وبين التغيير في الصورة النوعية، لأنّ الإنسان يمكنه أن يُسوي من الطين طيراً، فيغير في كيفية الصورة، لكنه لا يستطيع أن يسوي شيئاً لا من شيء، لأن مبدع الأشياء لا من شيء هو الحق تعالى، هو المالك للقدرة المطلقة، وخلقه محدود في قدرته، لا يستطيع أن يبدع شيئاً لا من شيء.

إنشاء الموجودات دون مثال.

قولها عليها السلام: ‹‹وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها›› لا يحتاج الله تعالى أن يرى شيئاً فيخلق مثله بخلاف خلق الإنسان فهو مخلوق على صورة، والله تعالى لم يحتذِ وجوداً، بل أوجد الخلق وأفاض عليه النعم، وهذا فارق جوهري بين أفعال الإنسان وفعله تعالى، فالإنسان لديه جزء من الصورة، على أساسها يوجد ما يريد، أما الحق تعالى فقد ‹‹أنشأها– أي الأشياء – بلا احتذاء›› لأن قدرته غير محدودة.

انتفاء حاجة الله تعالى لمخلوقاته.

قولها عليها السلام: ‹‹كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيته›› أي جعل الأشياء موجودة بمشيته وبقدرته اللامحدودة، وهنا مطلب تفصح عنه عليها السلام هو أنّ الإنسان يخلق ما يحتاج إليه، ويكتمل به، وجميع أعماله طريق إلى كماله، نعم؛ بعضها يتصور الإنسان أنها توصله إلى الكمال غير أنها توصله إلى النقص،

لعدم علمه بعلل وأسرار الأشياء، وكلما تقدم الإنسان علماً وأحاط ببعض الحيثيات أصبحت أعماله دالة على حكمته وكماله، أما الله تعالى فلا يخلق خلقه ليكتمل به، لأنه غير ناقص حتى يخلق الخلق ليكتمل به، ووجوده تعالى غنًى مطلق لا حد له، وخلق الخلق لا ليرفع عوزاً ويسد حاجة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل خلق الخلق ليربح الخلق منه تعالى ‹‹من غير حاجة منه إلى تكوينها›› فهو غني عن خلقه، وخلقه مفتقر إلى وجوده، بل أنّ حقيقة الخلق هو ارتباطه بوجود الحق تعالى، لا وجود غير نفس الارتباط بوجوده تعالى، ولولا أن الله أفاض الوجود على الأشياء لتلاشت.

فائدة الإيجاد تعود للمخلوق.

قولها عليها السلام: ‹‹ولا فائدة له في تصويرها›› خلق الله تعالى الأشياء بالصور المختلفة لا لفائدة تعود عليه وترجع إليه فهو تعالى الكمال المطلق والغنى المطلق والفائدة ترجع إلى خلقه، ورد في حديث قدسي: ‹‹إنما خلقت الخلق ليربحوا علي ، ولم أخلقهم لأربح عليهم››[1].

الغايات من إيجاد المخلوقات.

الأولى: الحكمة اللامتناهية.

تدلل الأشياء على كمال الله تعالى وغناه المطلق، وحكمته اللامتناهية، ووجوده اللامحدود.

قولها عليها السلام: ‹‹إلا تثبيتاً لحكمته›› تبيان أنّ الإنسان إذا فكر وصل إلى إدراك حكمته تعالى، ووصل إلى أنه الحكيم المطلق والغني المطلق.

الثانية: إظهار القدرة الإلهية.

قولها عليها السلام: ‹‹وتنبيهاً على طاعته وإظهاراً لقدرته›› إنّه تعالى يبين لخلقه أنه القادر الخالق، وأنّ القدرة التي منحت للخلق منه تعالى، فـ(لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) وقدرة خلقه مستمدة منه تعالى، وإذا سلب القدرة عن الخلق لم يستطع أن يفعل شيئاً والأنبياء والرسل والملائكة والأئمة عليهم السلام ، لا قدرة لهم إلاّ به تعالى، ولولا أنّ الله تعالى يمدهم بقدرته لنفد ما عندهم.

الثالثة: إيصال الخلق للكمال.

---

[1]- جامع السعادات للنراقي ج١ ص٢٢٨.

قولها عليها السلام: ‹‹وتعبداً لبريته وإعزازاً لدعوته›› خلق الله تعالى الخلق لإيصاله إلى الكمال والسعادة لا لحاجة منه، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(الذاريات:٥٦)، وعبودية الخلق تعزز دعوة الحق لإيصالهم إلى السعادة والنعيم.

التحفيز في الثواب والعقاب.

قولها عليها السلام: ‹‹ثم جعل الثواب على طاعته ، ووضع العقاب على معصيته›› قانون الثواب والعقاب ميزان بالإضافة إلى التحفيز إلى الطاعة والوقاية من السخط.

قولها عليها السلام: ‹‹ذيادة[1] لعباده من نقمته، وحياشة منه إلى جنته›› إنه تعالى يدفع عباده عن النقم والمعاصي وما يوجب لهم السوء، ويأخذ بهم إلى ما يوجب لهم السؤدد والارتقاء والرحمة المطلقة.

التوحيد في كلام الزهراء عليها السلام.

شرحت الزهراء عليها السلام معنى كلمة التوحيد، وأبانت أنها تتضمن كل المعاني المتقدمة، ولولا أنها عليها السلام أوضحت ذلك لما كان لأحد أن يصل إليها، ليس لأحد أن يصل إلى معاني التوحيد الحق إلاّ بدلالة من أهل البيت عليهم السلام ، ورد عنهم ‹‹بنا عرف الله››[2] فهم الأدلاء على الله، والحقائق المتقدمة من العلم المكنون المخزون الذي أفاضه الحق على المخلَصين من عباده المصطفين.

معالم الشرك في صفات الله عند الإمام الرضا عليه السلام

قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}(السجدة:٢٤). **صدق الله العلي العظيم.**

مفهوم الشرك في الأسماء والصفات.

تحدث الإمام الرضا عليه السلام عن التوحيد في مجالات متعددة من خلال مجالس حواره مع العلماء وأصحاب الملل والنحل من أهل الأديان والعقائد المختلفة، وبيّن الشرك في الأسماء

---

[1]- وردت في بعض المصادر (زيادة) بالذال في بحار الأنوار للمجلسي ج٢٩ ص٢٥٤، وفي بعضها (زيادة) بالزاي الاحتجاج للطبرسي ج١ ص١٣٣.

[2] التوحيد – الشيخ الصدوق– ص ١٥٢

والصفات في حواره عليه السلام مع أحد كبار علماء الصابئة – عمران الصابئ – عندما سأله عن صفات الله تعالى، فقال عليه السلام: {واعلم أنه لا يكون صفة لغير موصوف ولا اسم لغير معنى ولا حد لغير محدود ، والصفات والأسماء كلها تدل على الكمال والوجود ، ولا تدل على الإحاطة كما تدل على الحدود التي هي التربيع والتثليث والتسديس لأن الله عز وجل وتقدس تدرك معرفته بالصفات والأسماء ، ولا تدرك بالتحديد بالطول والعرض والقلة والكثرة واللون والوزن وما أشبه ذلك ، وليس يحل بالله جل وتقدس شئ من ذلك حتى يعرفه خلقه بمعرفتهم أنفسهم بالضرورة التي ذكرنا ولكن يدل على الله عز وجل بصفاته ويدرك بأسمائه ويستدل عليه بخلقه حتى لا يحتاج في ذلك الطالب المرتاد إلى رؤية عين ولا استماع أذن ولا لمس كف ولا إحاطة بقلب ، فلو كانت صفاته جل ثناؤه لا تدل عليه وأسماؤه لا تدعو إليه والمعلمة من الخلق لا تدركه لمعناه كانت العبادة من الخلق لأسمائه وصفاته دون معناه ، ولو أن ذلك كذلك لكان المعبود الموحد غير الله تعالى لأن صفاته وأسماءه غيره }[1].

نظرة العلماء تجاه الشرك في الصفات.

حدد إمامنا الرضا عليه السلام معالم التوحيد والشرك في الأسماء والصفات، وقد أبانه العلماء في جانبين:

الأول: جانب القدم والحدوث والذي يسمى ببحث الصفات الكمالية، فإنّ الله تعالى له صفات تدلل على كمال ذاته وعظم شأنه كالعلم والقدرة والحياء وله صفات تدلل على فعله المتقن، وصفات العلم تتغاير مع صفات الذات لله تعالى.

الثاني: صفات الجلال. وهذا تقسيم يتبناه أحد كبار علمائنا من الفلاسفة – صدر المتألهين– حيث ذكر أنّ هناك صفات جلالية يُنزه الباري تعالى عن الاتصاف بها، وصفات جمال، تسبغ على ذاته المقدسة لتدلل على وجود الذات وليست على الإحاطة بالذات بمعنى أنّ صفات ذاته لا تحيط بذاته ولا تدلل على كنه وجوده أي أنّ من يعرف الذات بالصفة لا يمكن أن يدرك كنه الذات للحق تعالى، قال جل شأنه: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}(طه:١١٠)، أي أنّ الذات المقدسة لا يحاط بها علماً من أي طريق من الطرق حتى عبر طريق أسمائه وصفاته.

---

[1]– التوحيد للصدوق ص٤٣٧–٤٣٨، وقد ورد هذا النص في تحف العقول مع اختلاف بسيط .

معيار التوحيد والشرك في الأسماء والصفات.

بيّن الإمام الرضا عليه السلام الميزان والمعيار في فهم التوحيد والشرك في أسماء الحق وصفاته عبر الطريق الذي رسمه القرآن الكريم وأوضحه أجداده الأئمة من أهل البيت عليهم السلام من خلال النقاط التالية:

الأولى: التفريق بين الصفة والاسم والحد وبين الذات.

بدأ الإمام عليه السلام بمخاطبة عمران الصابئ، فقال له: {واعلم أنه لا تكون صفة لغير موصوف}، أي أنّ الصفة تسبغ على الموصوف سواءً كان الموصوف ذاتاً أو عرضاً من الأعراض، {ولا اسم لغير معنى}، كذلك الأسماء سواء كانت للحق تعالى أو للخلق لابد أن تدلل على معانٍ، ثم قال عليه السلام: {ولا حد لغير محدود}، إذِ الحدود تبين ما حُدد بها، وعندما نضع حداً فهو يدل على المحدود، والإمام عليه السلام يريد أن يبين بأنّ الأسماء لا تكون حدوداً للذات المقدسة، إذْ يستحيل أن تكون أسماء الله وصفاته جل وعلا دالة على تحديد ذاته لأنه لا حدّ لذاته تعالى، فهي وجوده الحق، ووجوده لا حدّ له، وقد عبر الفلاسفة والحكماء عن ذلك بأنّ الذات المقدسة وراء ما لا يتناهى بما لا يتناهى أي لا حدود لذاته، وأسماؤه تدلل فقط على وجوده وعلى كمال وجوده دون أن تكون أسماء الذات المقدسة أو الصفات التي تسبغ على الذات كأسماء الخلق وصفاتهم في كونها تحدد ذواتهم وصفاتهم لأنّ الله تعالى منزه عن ذلك.

الثانية: دلالة الأسماء والصفات على الكمال.

ثم قال عليه السلام: {والصفات والأسماء كلها تدل على الكمال}، أي أنّ الكمال للحق تعالى، وعندما نطلق على الله أنه عالم، فذلك يعني أنّ ذاته عالمة بما عداها، لا يعزب عنها علم شيء، كما بُين ذلك في تفسير العلم في قوله تعالى: **{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}**(الأنعام:٥٩)، وكذا الحال في الآيات الكثيرة التي تحدثت عن اتصاف الذات بالعلم والقدرة والإحاطة والقيومية دون أن تدل هذه الصفات وتلك الأسماء على تحديد الذات المقدسة، لذا قال الإمام عليه السلام: {كلها تدل على الكمال}، والكمال لا يدل على التحديد، بل يدلل على نفيه عن الذات المقدسة. لأننا نجد أنّ بعض الأسماء والصفات التي يشترك فيها الحق والخلق تدلل على الوجود، وتشير إلى أنّ الذات المقدسة تتصف به، ولكن وجود الحق

يختلف عن وجود الخلق، إذْ أنّ وجوده تعالى كمال مطلق لا يُحد بشيء، وأما وجود خلقه فهو محدود بالزمان والمكان وغير ذلك. والإمام عليه السلام قال: {كلها تدل على الكمال والوجود ولا تدل على الإحاطة كما تدل على الحدود}، أي أنّ بعض الصفات تدلل على الوجود ولكنها لا تدلل على الإحاطة بالذات، كدلالتها على وجود الذات المقدسة، وأما وجود المخلوقات خصوصاً المادية الذي يُعرف بالأشكال الهندسية كما أوضحه الإمام عليه السلام في أنّ بعض الموجودات تتصف بالتربيع، وبعضها يتصف بالتدوير أو التثليث، أو بالأشكال الأخرى فلا يمكن أن تطلق على ذاته المقدسة.

الثالثة: التأكيد على استحالة إدراك الله تعالى.

ثم قال عليه السلام: {لأنّ الله عز وجل وتقدس تدرك معرفته بالصفات والأسماء }، أي، أنّ كنه الذات لا يدرك، ولا بد هنا من إيضاح أمر هام هو أننا نتعرف على الحق تعالى بأسمائه وصفاته دون إدراك وإحاطة بكنه ذاته، لاستحالة ذلك على الخلق حتى على سيدهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فضلاً عن سائر الأنبياء والرسل، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: {لم يطلع العقول على تحديد صفته } أي أنه حجب العقول عن إدراك حقانية صفاته التي تبين كنه وجوده { ولم يحجبها عن واجب معرفته}[1]، فيتعرف الخلق على ذاته المقدسة عبر أسمائه وصفاته دون أن يحاط بكنه الذات علماً، لذا قال الإمام: {لأن الله عز وجل وتقدس تدرك معرفته بالصفات والأسماء ولا تدرك بالتحديد فليس يُنزل بالله شيء من ذلك}[2]، أي نحن لا نُنزل صفاته وأسمائه على ذاته المقدسة بمعنى أن نجعل تلك الصفة هي المحيطة بالذات، لأنّ الذات لا يحاط بها علماً، كما قال الحق تعالى، ثم أفاض عليه السلام بقوله: {فليس يُنزل بالله شيء من ذلك حتى يعرفه خلقه معرفتهم لأنفسهم}، لأنّ الله لا يمكن أن يحيط الإنسان به علماً كإحاطة الإنسان بعلمه بنفسه، أي كما أنك لا تحيط بنفسك علماً ونفسك دالة على وجودك وأنت تعرف نفسك بنفسك كذلك معرفتك بالحق تعالى معرفة تُدلل على الوجود وعلى كمال الوجود دون الإحاطة التي تدلل على التحديد.

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج٣ ص١٨٩٤.

[2]- (فليس يُنزل بالله شيء من ذلك) هذه العبارة واردة في نص تحف العقول لابن شعبة الحراني ص٤٢٥، قال الامام عليه السلام: (فليس ينزل بالله شئ من ذلك حتى يعرفه خلقه معرفتهم لأنفسهم ، ولو كانت صفاته لا تدل عليه وأسماؤه لا تدعو إليه لكانت العبادة من الخلق لاسمائه وصفاته دون معناه ولو كان كذلك لكان المعبود الواحد غير الله لان صفاته غيره).

الثالثة: العبادة لله لا للأسماء والصفات.

ثم بيّن عليه السلام : {ولو كانت صـــفاته لا تدل عليه وأسماؤه لا تدعو إليه لكانت العبادة من الخلق لأسمائه وصـــفاته}، هذا محل الشـــاهد في بحثنا الذي نريد أن نُحدد به مَعلماً من معالم التوحيد والشـــرك في الأسماء والصـــفات، لأنّ الإمام يؤكد على أنّ الأسماء والصـــفات لو لم تكن مشـــيرة إلى كمال وجوده، فإنّ ذلك سيؤدي إلى أن نعبد هذه الأسماء والصفات التي هي غير الذات المقدسة، ومعناه الشرك في العبادة. وعليه فإننا لا نعبد أسماءه وصفاته وإنما نعبده تعالى، وأسماؤه وصفاته تدلل على وجوده وكمال وجوده تعالى، لذا قال عليه السلام: {فلو كانت صـفاته جل ثناؤه لا تدل عليه وأسمائه لا تدعو إليه لكانت العبادة من الخلق لأسمائه وصـــفاته دون معناه، ولو كان ذلك كذلك لكان المعبود الموحد غير الله تعالى}، أي أنّ الخلق لا يعبدون الحق تعالى حينئذ وإنما يعبدون أسماءً وصـــفاتاً لا تدلل على وجوده الذي عبرنا عنه بأنه وراء ما لا يتناهى بما لا يتناهى.

الجمع بين آيات كمال الله وآيات نفي الإحاطة به.

قال الله تعالى:**{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـــهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}**(الحشـــر:٢٢)، أوردت الآية أسماءً وصـــفات متعددة تدلل على وجوده وكمال وجوده، وقُرِنت هذه الآيات بآيات أخرى، كقوله تعالى: **{يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِـهِ عِلْمًا}**(طه:١١٠)، والجمع بين الآيات الدالة على كماله المطلق واتصـــافه بأسمائه وصـــفاته التي تدلل على وجوده الحق وعلى كمال الوجود الذي لا يحد وبين الآيات التي تؤكد على أنه تعالى لا يُدرك ولا يُحاط به علماً، يوصـــل إلى ما قاله الإمام عليه السلام في هذه الرواية، ويوضـــح المعنى الدقيق في كلام إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: {لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته}[1].

الفصل الثاني: المعارف النبوية

- المطلب الأول: السُنَّة الصحيحة

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج٣ ص١٨٩٤.

القسم الأول: السُنّة بين مُقومات الحفظ وعقبات التدوين.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (الحشر:٧) صدق الله العليُّ العظيم.

قبل البدء نبين مقدمات هامة لها ارتباط وثيق بالبحث الذي سنتناوله حول السنة الشريفة:

الأولى: أهمية الوحدة بين المسلمين

لا يخفى على المتتبع للأحداث التاريخية التي عايشها الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، ما تعرضوا له من الظلم الفادح ، والانتهاك للحقوق والتعدي على الحرمات، وعدم الانضباط تحت التكاليف الشَّرعية والقوانين، التي أَتَتْ من النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وصرَّحت بها آي القرآن الكريم ، وبالرغم من كل ذلك فإن الأئمة من أهل البيت ركَّزوا تركيزاً كبيراً على أهمِّية الوحدة بين المسلمين، ويعود السبب في ذلك إلى أنّ الأمة الإسلامية إذا اتَّحدت مع وجود الاختلاف بين طوائفها وأفرادها، فإنّ وحدتها كفيلة بإرجاع الحق إلى نصابه، وسوف تقضي على عوامل كثيرة من التشنجات، التي بزوالها يستطيع الإنسان أن يقف متأملاً ليصل إلى الفهم السليم والواقعي لما يريده الشارع المقدس، لذا نجد عشرات الروايات التي وردت بحكم ثانوي تركز على أهمية حضور صلاة الجماعة مع أبناء العامة، رغم عدم توافر الشرائط الشرعية، لأنَّنا نشترط في إمام الجماعة العدالة، وهم لا يشترطونها، ومع ذلك فإن الأئمة عليهم السلام أجازوا الصَّلاة خلف غير المنضوي تحت مذهب أهل البيت عليهم السلام، بل شجعوا على ذلك، كما أنهم عليهم السلام حَضُّوا الشيعة وأتباع أهل البيت عليهم السلام على عيادة المريض منهم، وعلى حضور الجنائز لهم، وعلى التعامل الأخلاقي الفذ مع مختلف الناس انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (البقرة:٨٣)، هذه قواعد وثوابت ركز عليها الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

الثانية: إنّ الحق هو المنتصر مهما طال الصراع

رغم أن الواقع السياسي بكل ما يمتلكه من قوةٍ في الإعلام والتخطيط وعدم الانضباط لأوامر الشارع المقدس،كان يصبُّ في غير صالح مدرسة أهل البيت عليهم السلام، إلَّا أنهم،كانوا ينطلقون من مبدأ حضاري، وهو أن كلمة الله هي العليا، هذا الواقع الحضاري هو الذي ركز عليه القرآن الكريم بقوله

تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس:٣٥)، أي أن الأئمة عليهم السلام انطلقوا من خلال أن الحق له من الوضوح ما هو كفيل بإيصال الإنسان بفطرته السليمة إليه ولو بعد حين، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة:٢١)، وهذه الكتابة في كل الكتب السماوية، وليس في القرآن الكريم فقط أي (أنها قانون وسُنّة كونية) ورغم أنّ الجبابرة والفراعنة والظَّالمين تحدُّوا مسار الرُّسل والأنبياء إلَّا أن الحق، كانت له الغلبة ولو بعد حين، ونحن نتساءل:

أين النمرود من إبراهيم عليه السلام؟ وأين فرعون من موسى عليه السلام؟ وأين الجبابرة والأكاسرة والقياصرة من دعوات الأنبياء والرسل؟!

إذن كانت تلك الدعوات تمثل الإضاءة والنبراس الذي يَهْتَدي به المهتدون، في تلك الظُّلُمات الحالكة من التشكيك والإعلام المضلِّل والتعدِّي على كل المقدَّسات التي صدع بها الأنبياء والرسل، وهذا دَيْدَن الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أي (**سيبقى الصراع بين الحق وبين ما يضاده إلى أن تقوم القيامة**)، هذه سُنَّة من سُنَن الله تعالى في الخلق والكون، تشير إليها الآيات التي وردت في مسألة الابتلاء قال الله تعالى: ﴿الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت:٢)، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: ((ولو أن الحق خلص من لبس الباطل لانقطعت عنه ألسن المعاندين ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى))[1]، فالابتلاء مبدأٌ عام وغاية في الأهمية.

ومن هاتين المقدمتين يتضح أن البحث في السُنّة يعمق ترابط المسلمين فيما بينهم، من خلال الحوار الموضوعي القائم على الدليل، الذي يوصل إلى السُنّة الصحيحة، التي يجب اتباعها،لأنها الحق،الذي يُهتدى به.

الثالثة: التخصص والبحث في السنة

ينبغي أن نلتفت إلى مسألة في غاية الأهمية، هي أن بعض الأبحاث بالرغم من وضوحها في الظاهر إلا أنها تبقى ليست شُرعة لكل وارد، لأن الوصول إلى كُنْهِها وسَبْر حقيقتها والإحاطة بكل

---

[1]- نهج البلاغة –خطب الإمام علي (ع)- ج١ ص٩٩.

حيثياتها يحتاج إلى التخصص، ولا يمكن للإنسان غير المتخصص أن يصل إلى عمق محتوى السُنّة، وأن يفهم حقيقة كُنْهها، وهذا مُشاهد في كل علم من العلوم، وإذا كان الأمر كذلك، فإن فهم الكتاب والسُنَّة يحتاج إلى تخصص، ولذا فإن الثقافة العامة لا تكفي لجعل المثقف على دراية وإحاطة بفهم ما يريده الله من آي القرآن الكريم، ولا تكفي أيضاً لفهم ما يريده النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم والأئمة من أهل البيت عليهم السلام مما جاء عنهم ومنهم من الروايات، وقد أشارت مجموعة من الأحاديث إلى ذلك، نشير إلى بعضها، منها ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: ((نضَّر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها، وحفظها وبلَّغها من لم يسمعها، فرُبَّ حامل فقهٍ غير فقيه، ورُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه))[1]، أي أنه يمكن للإنسان أن يسمع الكلام، لكنه لا يدرك المراد منه، ويظن أنه يعرف الحق ولكنه بمنأى عنه بمراتب، لذا بيّن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: أنّ له جزءاً من الدراية والفهم، ولكنه لو بلّغ هذا الحديث إلى غيره سيفهم غيره ما هو أفضل وأحسن، والنبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يدعو له بنضارة الوجه والحُسن، وورد عن الأئمة عليهم السلام: لا يكون الفقيه فقيهاً حتى يفهم لَحْنَ كلامنا[2]، أي (لا يصل الإنسان إلى مستوى العمق الفقهي الذي يُؤَهله إلى الإحاطة المرتضاة منهم عليهم السلام، حتى يفهم لحن كلامهم)، ونشير هنا إلى مسألة هامة، هي أنّ الأحاديث ليست على مستوى واحد من الوضوح، إذ فيها الخاص والعام والمطلق والمقيد، بل في بعض الأحاديث أن السُنَّة لها ناسخ ومنسوخ، ويصدق ذلك قوله تعالى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة:١٠٦)، يعني إذا كان للقرآن ناسخ ومنسوخ فبعض ما جاء من الأحاديث الذي يفسر المنسوخ يغاير ما جاء من الأحاديث، الذي يفسر الناسخ، ولهذا تجد علماءنا ومراجعنا يمكثون في الحوزات العلمية ما يقرب من سبعين سنة من البحث في هذه التخصصات ليصل بعضهم إلى الفهم السديد والعمق الذي يوصل إلى الأقرب في فهم أحكام الشارع المقدس، هذه مقدمة لها ربط بما أُريد أن أُنبه عليه في سلسلة من الحلقات والكلمات التي هي إضاءة إن شاء الله لبعض الأبحاث العميقة في السُنّة.

البحث الأول: تعريف السُنَّة .

---

[1]- وسائل الشيعة للحر العاملي ج٢٧ ص٨٩.

[2]- عن أبي عبيدة الحذاء قال : قال لي أبو جعفر عليه السلام :، يا أبا عبيدة إنا لا نعد الرجل فقيها حتى يعرف لحن القول، وهو قول الله : (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ))(وسائل الشيعة للحر العاملي ج١٦ ص٢٠٢—٢٠٣)

السُنَّة: هي قول المعصوم أو فعله أو تقريره .

فأما قول المعصوم : فهو أن يتحدث النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم، أو الإمام من أهل البيت، فينقل الرواة الثقاة قوله إلى غيرهم، بنقل معتبر تتوافر فيه الضوابط الشرعية.

وأما **فعله**: فهو كل ما يصدر منه فيما يرتبط بالأحكام وغيرها، كالوضوء مثلاً، ثم ينقله الرواة.

وأما **تقريره**: فهو سكوته عن فعل من الأفعال صدر من بعض الناس، واطلع عليه ولم ينه عنه، وهذا التصرف يعبر عن قبوله ورضاه عما حدث.

البحث الثاني: منع تدوين السُنَّة .

إنّ من المسلَّمات التي لا يعتريها الشك، كون السُنَّة في الرتبة الثانية أهميةً بعد القرآن الكريم، والمنبع الزُلال الذي يستقي المسلم منه كل ما يرتبط بدينه ودنياه، ولذا وجب الحرص والمحافظة على السُنَّة، وأول خطوة يجب القيام بها في هذا المجال، هو كتابتها وتسجيلها، حتى لا تصلها أيدي العابثين والمحرفين .

ومن هنا أُبْتُلِيَت الأمة الإسلامية – بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله – بعقبات كأداء في كتابة السُنَّة، وذلك نتيجة لتصدي بعض الصحابة لمنع تدوين السُنَّة، على أساس أنّ تدوينها يوجب خلطها بالقرآن، وركَّزوا على مسألة حَسْبُنَا كتاب الله، فمنعوا من تدوين السُنَّة.

ولهذا لا يوجد في الطوائف الإسلامية طائفة من المسلمين تدعي أنها كتبت السُنَّة مباشرة عن النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وعن أهل البيت عليهم السلام إلَّا أتباع أهل البيت، الذين كانت طريقتهم هذه اقتفاءً واتباعاً للأئمة المعصومين عليهم السلام، وعلى رأسهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الذي نقرأ في عشرات الروايات التي تُفسر قوله تعالى ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٢)، أن النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، سأل الله أن يجعل تلك الأُذن الواعية هي أُذن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، وبالرغم من ذلك كان يُدوِّن جميع ما يصدر عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ولم يكن عليه السلام وحده يُدوِّن، بل كان بعض الصحابة يُدوِّنون، ولكنّه بعد حَظْرِ التدوين توقفوا، ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص الذي كان يُدوِّن ما يصدر عن النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فجاءه بعض الصَّحابة وقالوا له: تكتب كل شيء سَمِعْتَه من رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ورسول الله بشر، يتكلم في الغضب والرضا، (قال عبد الله) فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فأومأ

إلى فيه (يعني فمه) وقال : اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق))[1]، أي أنّ الذي يصدر من النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في حالة الرضا هو نفسه الذي يصدر منه في حالة الغضب، وهو الحق، ويشير إليه ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ((وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَ وَحْيٌ يُوحَى))(النجم:٣-٤). وهذا الحظر من تدوين السُنّة أثَّر في محتوى السُنَّة ومضمونها وتداولها بين المسلمين، ولذلك لم تكتب السُنَّة إلَّا بعد ما يقرب من قرن من وفاة النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عند أبناء العامَّة، ولذلك تجدون في مصادر المسلمين عامة أنّ هذا الحكم أو الحديث موجود في صحيفة علي عليه السلام، أي (دُوِّن بشكل مباشر عن النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، فإذاً السُنَّة التي لم تُدوَّن إلَّا بعد ما يقرب من قرن (مائة سنة)، كم نُسِيَ منها وكم أُضيف عليها وكم تلاعب بها المتلاعبون تبعاً للأغراض والمصالح الشخصية، ويكفينا أن البخاري يُصرح أنه انتخب صحيحه وهو مجموعة من الأحاديث المعدودة التي إذا حذفنا المكرر منها لا يبلغ إلَّا أربعة آلاف حديث، انتخبها من ستمائة ألف حديث، يعني إنّ البقية من هذا الكم الهائل من الأحاديث، قد تلاعب بها المتلاعبون، وأُضيف إليه من قِبَل أصحاب الظلمة والسلاطين، فاختلط الغث بالسمين، لذا كانت حاجتنا للأخصائي الذي يعي عمق السُنَّة، وهناك تفصيلات وحيثيات أُخر سأتعرض لها إن شاء الله في الأبحاث القادمة، لأُسلط الضوء على بعض من يدَّعي معرفة بالسُنَّة وهو أبعد ما يكون عنها.

القسم الثاني : اختلاف السُنّة بين مدرستي أهل البيت عليهم السلام والخلفاء.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(الحشر:٧) صدق الله العليُّ العظيم.

استعرضنا في البحث السابق معنى السُنَّة، وهي قول المعصوم وفعله وتقريره، وقد كلَّفنا الشارع عبر الآيات القرآنية والأحاديث الواردة عن النبي وأهل البيت عليهم السلام بإتباعها والعمل بها.

---

[1]- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج١ ص١٠٥.

ونبّه على عدة نقاط:

الأولى: انقسام الصحابة إلى اتجاهين .

الأول: كان لا يعبأ ولا يعتني بالمنع الصادر من الشيخين، بل يعتني بالتدوين، وكتابة كُل ما يصدر عن النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وعلى رأس هؤلاء الصحابة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ،كما أنَّ غير الإمام عليه السلام ،كان يُدون السُنَّة، ومنهم الصديقة الزهراء عليها السلام ، ومعاذ بن جبل، وأُبَي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وأبو سعيد الخدري، وأبو ذر الغفاري، وغيرهم.

الثَّاني: امتنع من تدوين السُنَّة ورأى أن ذلك يوجب اختلاطها بآي القرآن الكريم.

الثانية : تاريخ تدوين السُنَّة.

بدأ تدوين السُنَّة في مدرسة الخلفاء في عهد عمر بن عبدالعزيز، أي بعد أنّ مرَّ ما يقرب من قرن وبالتحديد أربعة وتسعون سنة على السُنَّة، كانت تُحفظ في الصدور وتُعرف في الأذهان (الأدمغة)، ومن المعلوم في الدراسات الحديثة أنّ ما يُحفظ – خصوصاً – إذا كان مقداره كماً هائلاً لا يستطاع حفظ معانيه الدقيقة لأنَّ النسيان كالطبيعة الثانية للإنسان. لذلك فإنه بعد مُضي مائة سنة ضاعت أو نسيت تفاصيل ودقائق من السُنَّة، كذلك هناك استغلال سيء لعدم وجود التدوين أشار إليه النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لما نُمِيَ إلى سمعه أنَّ بعض الناس يتعمدون الكذب عليه فقال: ((من كَذَبَ عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعدَهُ من النَّار))[1] أي أنه (ص) كان يُحذر من الكذب عليه وذلك يعني أنَّ الكذب بدأ بشكل تدريجي في زمنه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ثمَّ تنامى نموًّا مُطّرداً، ويمكن أن نعطي مثالاً على ذلك النمو المطّرد: فإنّ كتاب البخاري من الصحاح عند العامة إذا حذفنا مكرراته نجد أنَّ صحيحه لا يتجاوز أربعة آلاف حديث، فقد قال: إنَّه نقل الصحيح من أحاديث تربو على ستمائة ألف حديث، أي أنّ هناك كماً هائلاً من الأحاديث رأى البخاري أنَّها مكذوبة على النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، والكذب سمة بارزة ومتفشية لدى بعض أصحاب المصالح، ولا يختص ذلك بمدرسة الخلفاء بل تعداها إلى مدرسة الإمامية، ففيها محدثين من أصحاب المصالح يتعمدون الكذب على أئمة أهل البيت عليهم السلام، وحذَّر الأئمة عليهم السلام من اعتماد أحاديثهم.

---

[1]- وسائل الشيعة للحر العاملي ج١ ص١٥.

الأئمة يختارون من يحمل السُنّة الصحيحة :

أشـار الأئمة عليهم السـلام إلى أهمية الرجوع إلى الفقيه العالم المتقِن أي أنّ ما يصـدر عن أهل البيت عليهم السلام يؤخذ بطرق خاصة، ونشير هنا إلى حديثين يُجلّيان هذا المعنى:

الأول: يرتبط بأحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وهو محمد بن مسلم الثقفي الطائي الذي كان من كبار علماء العامة، ثم مَنَّ الله عليه بالهداية، فاتَّبع مذهب أهل البيت، وأصبح من المقتفين لآثارهم ومن الفقهاء الكبار العارفين بما صـدر عنهم عليهم السـلام، قال الإمام عليه السـلام: (بشّـر المخبتين بالجنّة: بُريد بن معاوية العجلي، وأبو بصـير بن ليث البختري المرادي، ومحمّد بن مسـلم، وزرارة، أربعة نجباء أُمناء الله على حلاله وحرامه، لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوّة واندرست)[1]، يوضح الإمام عليه السلام الدور الكبير لهؤلاء الرواة وأنه لولاهم لما وصلت السنة الصحيحة إلى الناس.

الثّاني: قول الإمام الباقر عليه السلام: (إنا لا نعد الرجل فقيها حتى يعرف لحن القول ، وهو قول الله : (ولتعرفنهم في لحن القول))[2] أي لا يصـل إلى عُمق هذا الكلام إلا المتخصص في فهم ما صدر عن أهل البيت عليهم السلام.

الثالثة: مسألة الاختلاف في الحديث والمحدثين في مدرسة الخلفاء .

في البدء نمهد للاختلاف في الحديث والمحدثين باقتضاب يسير في مدرسة الخلفاء بطرح بعض النماذج على ذلك:

الأول : ابن معين من أكابر الفقهاء والعلماء عند العامة، حَدَشَ هو وأحمد بن صالح في الإمام الشـافعي وقالا: هو ليس بثقة ، ضـعيف[3]. انظروا! بعض أكابر العامة، يخدشـون في إمام من أئمة المذاهب الإسلامية، ويسمونه بالضعف، وعدم الاعتبار في الحديث .

---

[1] – وسائل الشيعة للحر العاملي ج٢٧ ص١٤٢.

[2] – وسائل الشيعة للحر العاملي ج١٦ ص٢٠٢–٢٠٣.

[3] – هامش تهذيب الكمال للمزي ج٢٤ ص٣٨٠.

الثاني : ذكر الخطيب البغدادي أسماء الذين ردُّوا على الإمام أبي حنيفة[١]، وهم خمسة وثلاثون رجلاً من الأكابر ردُّوا على الإمام أبي حنيفة، ورأوا أنه من الضعفاء وغير المعتبرين، وهو من أئمة المذاهب الإسلامية، قال الرازي في رسالة ترجيح مذهب الشافعي: ما يظهر من أن البخاري عدَّ أبا حنيفة من الضعفاء .

الثالث : قال السبكي في طبقاته: أنَّ أبا علي الكرابيسي وهو من الأئمة الأكابر كان يقدح في الإمام أحمد، ويرى عدم اعتباره [٢]، وقال العراقي وهو من أكابر المحدثين وإمام في الحديث وهو شيخ لابن حجر: إنَّ ابن حنبل ومسنده أي (المحدِّث والحديث) مقدوح فيهما[٣] .

الرابع : ذكر الخطيب في تاريخه عدة أسماء خدشوا في الإمام مالك[٤]، وذكر هذا أيضاً في تهذيب الكمال[٥]، وكذلك في طبقات الشافعية[٦]، هذا بالنسبة لأبناء العامة.

الرابعة: الاختلاف في الحديث والمحدثين في مدرسة أهل البيت:

عندما نأتي إلى الاختلاف في الحديث والمحدثين في مدرسة أهل البيت، لابُدَّ أنْ ننظر إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي أنَّ الاتجاه السياسي آنذاك كان ضد مدرسة أهل البيت عليهم السلام، التي يمارس عليها الإرهاب بشتى صوره من التصفية الجسدية، والاعتقال التعسفي، وتكميم الأفواه، وعدم الإباحة بذكر ما يصدر عنهم عليهم السلام، بالإضافة إلى ممارسة الدسَّ والتزوير، فيما صدر من الأحاديث عنهم عليهم السلام، وسأذكر أنماطاً من الإرهاب:

الأول: ابن أبي عُمير هو من أصحاب الإجماع عندنا ويعمل بمراسيله أي الأحاديث التي لا يذكر سندا مُعَنْعَناً ، فلا يقول: روى فلان عن فلان عن....عن الإمام ، بل يذكر نص الحديث فقط، من دون ذكر رواة الحديث، لأنه كان يحفظ الأحاديث ونسيَ كثيراً من المسانيد، بسبب ما تعرض له من

١- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٣ ص٣٧٠.

٢- طبقات الشافعية للسبكي ج١ ص٢٥١.

٣- فيض الغدير للعراقي ج١ ص٢٦.

٤- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١ ص٢٢٤.

٥- تهذيب الكمال للمزي ج٢٤ ص٤١٥.

٦- طبقات الشافعية للسبكي ج١ ص١٢٩.

السجن والتعذيب لسنوات متعددة ، بل وصل الأمر أن قامت أُخته بدفن كُتبه وإجراء الماء عليها خوفاً من السلطات آنذاك، وهؤلاء لكونهم من حواري الأئمة عليهم السلام تعرضوا للتنكيل.

الثاني: كلفت السلطات بائعي الضمير بإغداق المال عليهم لاستعارة بعض الكتب الصادرة من الأئمة للدسّ والتحريف فيها، وقد ذكر ذلك الإمام الصادق عليه السلام، عندما قال: (لا تقبلوا علينا حديثا إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهدا من أحاديثنا المتقدمة ، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي ، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وآله)[1].

الثالث: أنَّ السلطات استغلت إمكانياتها الإعلامية في تضليل الناس، وحَرفِهم عن النهج القويم لأهل البيت عليهم السلام ومحاولة تشويه صورتهم أمام الرأي العام آنذاك.

الرابع: التصفية الجسدية.

الطرق التي مارسها الأئمة للحفاظ على الحواريين:

لقد سعى الأئمة عليهم السلام إلى الحفاظ على الحواريين من أصحابهم، ليتأتى نقل مآثرهم وفكرهم للأجيال اللاحقة بطرق عدة:

الأول: ذم الحواريين.

أي أنّ الإمام يمدح الراوي لخصوص الشيعة فيقول: لولا زُرارة بن أعْيُن ومحمد بن مسلم وفلان وفلان لمُحيت آثار النبوة، ومع ذلك يأتيه شخص آخر، فيسأله عن محمد بن مسلم أو عن زُرارة أو عن شخص آخر من الرواة، فيضطَّر الإمام، لذمِّه للحفاظ على شخصه، بل أنَّ الإمام في بعض الأحايين يلعن بعض الرواة ، كي لا يتعرضوا للتصفية الجسدية. ولذلك نجد في الروايات تفسيراً من الإمام للذم الصادر في حق بعض أصحابه، كما روي : ((إنما أعيبك دفاعا مني عنك ، فان الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدناه مكانه بإدخال الأذى فيمن نحبه ونقر به))[2].

---

[1]- بحار الأنوار للمجلسي ج٢ ص٢٥٠.

[2]- وسائل الشيعة للحر العاملي ج١١ ص٢٥٧-٢٥٨.

عن عبد الله بن زرارة قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام: (اقرأ مني على والدك السلام ، وقل : إنما أعيبك دفاعا مني عنك ، فان الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدناه مكانه بإدخال الأذى فيمن نحبه ونقر به - إلى أن

الثاني : استعمال التورية .

تعامل الأئمة عليهم السلام في بعض الأحايين بالتوْرِية ، بأن يقصد الإمام شيئاً ويفهم السامع أمراً آخر، أي على نحوٍ كنائي يفقهه المتمرس في فهم لحن الكلام، قال الإمام عليه السلام: (إنا لا نعد الرجل فقيها حتى يعرف لحن القول)[1]، أي يأتي الراوي فيحدثه الإمام بحديث، ويأتي راوٍ آخر ويبين له الإمام وجهاً آخر في نفس الحكم، ثم يأتي الثالث فيبين له وجهاً آخر، ثمَّ يُفسر الإمام ذلك، بقوله: (أنا تعمدت إلقاء الاختلاف بينكم للحفاظ عليكم)[2]، يتعمد الإمام (ع) الاختلاف في المسائل الفقهية للحفاظ على الشيعة من السلطة الغاشمة، حيث ترى السلطة أنَّ أتباع الإمام (ع) ليسوا على اتجاه واحد، أما إذا كانوا على اتجاه واحد فسوف يستأصلون شأفتهم، وفي ذلك الزمان لا توجد ديمقراطية وحرية صحافة، ومنظمات حقوق إنسان بل في زماننا رغم وجود نحو من الحرية إلاّ أنّ الكبت والإرهاب والتعدِّي على الحقوق خصوصاً الحقوق الخاصَّة بمدرسة أهل البيت (ع)، نظام سائد في كلِّ أنحاء العالم، لكونهم يعرفون أنَّ أهل البيت (ع) يجسِّدون الحق قولاً وفعلاً وسلوكاً، قال صلَّى الله عليه وآله: (إنِّي تارك فيكم الثِّقلين ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلُّوا أبدا)[3]، وقال صلَّى الله عليه وآله: (الحقُّ مع عليٍّ، وعليٌّ مع الحقِّ، يدور معه حيث ما دار)[4]، ولو جمعنا ما ورد في تبيان معاني الدّين ومفاهيم القرآن في مدرسة أهل البيت (ع) لتجاوز بعشرات المرات ما ورد في مدرسة الخلفاء، ومعنى ذلك أنّ كلامهم يشمل

قال – : وعليك بالصلاة الستة والأربعين ، وعليك بالحج أن تهل بالافراد ، وتنوي الفسخ إذا قدمت مكة فطفت وسعيت فسخت ما أهللت به ، وقبلت الحج عمرة ، وأحللت إلى يوم التروية ، ثم استأنف الاهلال بالحج مفردا إلى منى ، واشهد المنافع بعرفات والمزدلفة ، فكذلك حج رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهكذا أمر أصحابه أن يفعلوا أن يفسخوا ما أهلوا به ويقلبوا الحج عمرة ، وإنما أقام رسول الله صلى الله عليه وآله على إحرامه لسوق الذي ساق معه ، فإن السائق قارن ، والقارن لا يحل حتى يبلغ الهدي محله ، ومحله النحر بمنى ، فإذا بلغ أحل ، هذا الذي أمرناك به حج التمتع فألزم ذلك ولا يضيقن صدرك ، والذي أتاك به أبو بصير من صلاة إحدى وخمسين ، والاهلال بالتمتع بالعمرة إلى الحج ، وما أمرنا به من أن يهل بالتمتع فلذلك عندنا معان وتصاريف لذلك ما تسعنا وتسعكم ، ولا يخالف شئ من ذلك الحق ولا يضاده والحمد لله رب العالمين).

[1]– وسائل الشيعة للحر العاملي ج١٦ ص٢٠٣.

[2]– بحار الأنوار للمجلسي ج٢ ص٢٣٦–٢٣٧.

قال أبو جعفر عليه السلام لزرارة: (.. ولو اجتمعتم على أمر واحد لقصدكم الناس ولكان أقل لبقائنا وبقائكم).

[3]– وسائل الشيعة للحر العاملي ج٢٧ ص٣٤.

[4]– بحار الأنوار للمجلسي ج٢٨ ص٣٦٨.

جميع جوانب الحياة بحق وصدق، قال أبو جعفر عليه السلام لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: (شرقا وغربا فوالله لا تجدان علما صحيحا إلا شيئا خرج من عندنا أهل البيت)[1].

والآية التي صدّرنا بها الحديث: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر:٧) تبين في مطاويها أهمية التقيد الدقيق بالطريق إلى السُنَّة الذي أوضحه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: (أنا مدينة العلم وعلي بابها ، ومن أراد الحكمة فليأت الباب)[2] أي أنه طريق أهل البيت عليهم السلام.

القسم الثالث :أسباب منع تدوين السُنّة (الحلقة الأولى)

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر:٧) صدق الله العليُّ العظيم.

استعرضنا أهم ما تعرضت له السنة من عقبات ، مَنَعتْ من تدوينها وتمثل ذلك في السُلطة الرَّسمية آنذاك التي فَرضَتْ حظراً ومنعاً على تدوينها. وقد استعرض العلماء أراءً ونظريات متعددة في شرح وتبيان السبب الذي دعا الخلفاء لمنع التدوين . وسنشير إلى بعض الأسباب التي ذُكرت ، ونحاول مناقشتها باقتضابٍ وإجمالٍ، أهمها:

الأول : الخشية من وقوع الاختلاف بين الصَّحابة

ورد عن السيدة عائشة أنَّ أباها جمع الحديث ، وكان خمسمائة حديث ، فبات ليلته يتقلب كثيراً ، قالت السيدة عائشة : فغمني ذلك ، فقلت : أتتقلب لشكوىً أو لشيءٍ بلغك ؟ فلما أصبح الخليفة أي (أصبح أبوها) قال : أي بُنية ، هلمّ الأحاديث التي عندك (أمرها الخليفة أن تأتي بها بعد أنْ دونت وكتبت) ، وتقول السيدة عائشة : فجئته بها ، فدعا بنارٍ! فحرقها ، فقلت: لِمَ أحرقتها ؟ قال

---

[1]- وسائل الشيعة للحر العاملي ج٢١ ص٤٧٧.

[2]- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٩ ص٦٠٢.

: خشـــيتُ أنْ أموت وهي عندي ، فيكون فيها أحاديث عن رجلٍ قد اِئتمنته ووثقته ، ولم يكن كما حدثني ، فأكون قد نقلت ذلك.

وفي خبرٍ آخر أنه قال : إنكم تُحدثون عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله ، أحاديث تختلفون فيها ، والناس بعدكم أشد اختلافاً ، فلا تُحدثوا عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله شيئاً ، فمن سألكم ، فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله ، فاستحلّوا حلاله وحرّموا حرامه[1].

ومن خلال الحديثين ، يتبادر الســـؤال التالي : هل أنَّ خشـــية الاختلاف في فهم ظواهر الأحاديث الواردة عن النبي صلَّى الله عليه وآله ، مدعاة لحرق تلك الأحاديث النبوية ؟

الجواب: كلا ، لأنَّ الاختلاف سُـــنّة طبيعية ، كما ذُكر ذلك في القرآن ، والاختلاف في فهم الظواهر المبني على أُسس موضوعية وسليمة ، لا يدعو الإنسان إلى أنْ يمنع أو يحرق تلك الأحاديث الواردة عن النبي صـــلَّى الله عليه وآله، خصـــوصـــاً أنَّ الأحاديث هي العِدل الآخر للقرآن عند العامة، بموجب ما ينســـبونه للنبي صـــلَّى الله عليه وآله في قوله : ((كتاب الله وســـنتي))[2] ، ونحن وإن كنا لا نرى صـــحة الحديث ، إلاّ أنّ السُـــنَّة هي التي توضـــح وتبين ما ورد في القرآن الكريم ، وإذا أُحرقت الأحاديث كيف نعلم ما يُريده الله تعالى من آي القرآن الكريم ؟ بالخصوص أنَّ القرآن يحتاج إلى بيان، وبيانه من لدُن النبي صـــلَّى الله عليـــه وآلـــه ، قـــال تعـــالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) إذن بيان النبي صلَّى الله عليه وآله هو الموضح والمبين لما يُريده الله تعالى . وخشية الاختلاف التي وردت عن الخليفة ، والتي دعته إلى إحراق ما يربو على خمســـمائة حديث من الأحاديث الواردة عنه صـــلَّى الله عليه وآله ، تدعو الإنســـان إلى التأمل الجاد ، وتخطئة ما ورد من اجتهاد في مقابل النص ، والنبي (ص) لا يخطأ قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلاَ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (لنجم:٣-٤) وقال تعالى عن النبي : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ (الحشر:٧)، وأمره بالأخذ عنه لا يسوغ الاجتهاد

---

[1]- تذكرة الحُفَّاظ للذهبي ج١ ص١- ٥.

[2]- المستدرك للحاكم النيسابوري ج١ ص٩٣.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (انى قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض).

في إحراق ما ورد عنه لأجل خشية الاختلاف بين أصحابه أو بين الأجيال اللاحقة ، بالإضافة إلى أنَّ الآيتين السابقتين تجعل كلامه صلَّى الله عليه وآله بمنزلة سامية ، ومرتبة رفيعة ، لا يُتعدى عليها بالإحراق بالنار .

الثاني : الخشية من التشبه بأهل الكتاب :

ذكر بعض العلماء والمحدثين أنَّ الخليفة الثاني خشي أنَّ وجود الأحاديث في أيدي الناس ، يدعوهم إلى التشبه بأهل الكتاب والاقتداء باليهود والنصارى ويتبين من خلال قراءة حديثين:

الأول : عن عروة بن الزبير أنَّ عمر بن الخطاب أراد أنْ يكتب السنن ، فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وآله ، فأشاروا عليه ، أنْ يكتبها ، فطفق عمر يستخير الله في ذلك أوفيها شهراً ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : إني كنت أردت أنْ أكتب السنن ، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً ، فأكبُّوا عليها ، فتركوا كتاب الله تعالى ، وإني والله لا أُلبس كتاب الله بشيءٍ أبداً[1].

الثاني : أنّ عمر جمع الأحاديث ، وأمر الناس أن يأتوه بما لديهم من صُحف وأحاديث ، وظن الناس أنَّ الخليفة يُريد أنْ يُقوِّم الأحاديث ، لمنع الاختلاف بيننا على أمرٍ لا يكون فيه اختلاف ، فأتوْه بكتبهم ، فأحرقها بالنار ، ثم قال : أُمنية ! كأُمنية أهل الكتاب[2].

وفي حديث آخر أنه كتب إلى الأمصار (مختلف البقاع آنذاك) من كان عنده منها شيء (من أحاديث النبي صلَّى الله عليه وآله) فليمحه .

ونرى هنا أنَّ الخليفة خشي ثلاثة أمور :

الأول : اختلاط ما جاء من أحاديث بآي القرآن الكريم .

الثاني : أن يُترك القرآن، ويُشتغل بغيره .

الثالث : أنْ يكون الأمر كما كان بالنسبة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يشتغلون بالقصص حول ما أُنزل على موسى وعيسى ، ويتركون العمل بالتوراة والإنجيل .

وسوف نُسلط الضوء على الأمور الثلاثة :

---

[1]- تقييد العلم للبغدادي ص٤٩.

[2]- تقييد العلم للبغدادي ص٥٢.

أما الأول ، وهو الخشـــية من أن يلتبس ما جاء من أحاديث عن النبي صـــلَّى الله عليه وآله بآي القرآن الكريم ، فيرده قوله تعالى : ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(البقرة:١-٢) وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(الإسراء:٨٨) فلا يمكن أن يختلط القرآن بغيره ، وذلك لسببين هامين :

الأول : أنّ الله تعالى تكفَّل بحفظه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(الحجر:٩).

الثاني : أنَّ القرآن الكريم يختلف عن ما جاء من أحاديث عن النبي صـــلَّى الله عليه وآله في بلاغته الإعجازية ، فما جاء عنه وإنْ كان في غاية الفصـاحة والبلاغة ، لكنه لا يرقى إلى مستوى القرآن الكريم ، لذا لا نجد من يدَّعي بأنه لا يمكن أن يُعارض كلام النبي بما هو في رُتبته في الفصـــاحة ، وإنما أُدُّعي ذلك في حق القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُـورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُـهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(البقرة:٢٣-٢٤).

أما الأمر الثاني والثالث ، وهو خشـــية الخليفة أنّ يشـــتغل الناس بغير القرآن الكريم أو التشـــبه بأهل الكتاب في اشـــتغالهم بالقصـــص عما أُنزل إليهم، فمن الواضـــح من قوله تعالى : ﴿ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّـرَ مِنْهُ ﴾(المزمل:٢٠) أنه لا يأمرنا بالاشتغال بالقرآن وحده دون الاشتغال بالأمور الأخرى . بالإضافة إلى أنَّ السُـنَّة هي عِدل القرآن عند العامة ، وهي التي تُوضـحه وتشـرح ما جاء من أحكام ومفاهيم وآداب وأخلاق فيه، وأيضـاً أنّ كُتب اليهود والنصـارى والقصـص التي يسـطرونها محرفة ، لا يقبلها عاقل ، بينما القرآن والسُنّة الصحيحة هما المصدران الأولان للتشريع اللذان يحويان ، المنهاج الكامل للمسلم لإيصاله إلى السعادة الأبدية ، مع ثبوت كونهما غير محرفين بالأدلة والبراهين الدامغة .

الثالث : إنّ كثيراً من الصحابة لا يُحْسِنون القراءة والكتابة .

وقد يُذكر سبب من أسباب منع التدوين تعرض له بعض المحدثين، كابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) ، وابن حجر في (هُدى الساري) ، هو أنَّ كثيراً من الصحابة لم يكونوا من المحسنين للقراءة

والكتابة ، أي أنَّ قِلة نادرة منهم تُحسن التدوين والكتابة، لكن ذلك لا يبرر منع التدوين وليت شِعري ، كيف يُبرر عالمان كبيران محدثان منع تدوين السُنَّة الشريفة بقلة من أصحاب النبي صلَّى الله عليه وآله الذين لديهم قُدرة على الكتابة ، خصوصاً إذا رجعنا إلى التاريخ ، فسنجد أنَّ ما ينوف على ثلاثين صحابياً ذُكروا فقط لتدوين القرآن ويُسَمُّونهم بكُتاب الوحي ، وذلك غيض من فيض ونزر يسير ، أما لو تتبعنا أكثر من ذلك فسنجد الكثير.

إننا نُؤمن أنَّ الكتابة لم تكن مُتفشية وأنَّ الجهل بالقراءة والكتابة كان سائداً حتى أنّ النبي صلَّى الله عليه وآله أَمَرَ بعض مَن يُحسن القراءة والكتابة من الأسرى أنْ تكون الفدية له بتعليم المسلمين القراءة والكتابة ، وقد تعلَّم كثير من المسلمين لهما.

وأخيراً ، إنّ الأسباب التي ذكرت لا تبرر موضوعياً المنع من التدوين ، ولعل هناك أسباب أُخرى تدعو الإنسان إلى مزيد من التمحيص والتأمل والتفكير الجاد لم تُذكر من المحدثين ، ونشير هنا في أحاديث وكلمات قادمة إلى بعض ما يُمكن أنْ يُذكر كمبرر في منع تدوين السُنَّة في زمنه صلَّى الله عليه وآله ، وتأجيل ذلك ما يقرب من قرن، وسنرى هل أنّ الأسباب ترقى إلى نحوٍ من الموضوعية أم لا؟

القسم الرابع : أسباب منع تدوين السُنّة (الحلقة الثانية).

قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر:٧) صدق الله العليُّ العظيم.

استعرضنا بعض الأسباب التي ذكرها المحدثون والكُتاب في منع تدوين السنة الشريفة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، بل في أثناء حياته صدر منع عن بعض الصحابة، وقد رد عليهم النبي صلى الله عليه وآله، وإليك بعضها الآخر:

الأول : استغناء العرب بحافظتهم القوية عن التدوين.

أي أنّ المنع من التدوين كان لأجل الحفاظ على ملكة الحفظ التي اشتهر بها العرب، فقد كانوا يحفظون المعلقات وغيرها من الأشعار، والحفظ هو العمدة لنقل العلم والمعرفة، ولهذا كان جمع معتد به

منهم من حفظة القرآن الكريم، ذكر هذا السبب بعض علماء العامة كأبي زهرة والشيخ عبدالغني، كما جاء في كتاب الحديث والمحدثون[1]، وأُيد كسبب من قبل الدكتور محمد عجاج الخطيب في كتابه[2].

ولنناقش السبب المذكور لنرى مدى صحته:

إن الخوف من زوال ملكة الحفظ التي كانت سائدة لدى العرب وموجودة عندهم لا يصل إلى حد أن يقوم الخليفة الثاني أو الأول بمنع تدوين الأحاديث الواردة عن المصطفى صلى الله عليه وآله لأنه يمكن الحفاظ على الملكة من خلال تدريب بعض الناس على الحفظ، فمن وجدت لديه الملكة منع من الكتابة، أما غيره فهي مباحة له، ويمكن أن نُذكر بمسألة مهمة هي أنّ ملكة الحفظ في مراحلها القوية والمتقدمة تعتمد على الكتابة والتقييد ، لأنّ الإنسان إذا أراد أن يحفظ لابد أن يراجع معلوماته، ويتوقف ذلك على وجود شيء مكتوب ومُقَرر، وتلك هي الطريقة السائدة والمعروفة، فكيف يقال : إنّ منع تدوين السنة كان لأجل الحفظ؟!

بالإضافة إلى أنّ الحفظ لم يكن لدى كل العرب أي أنّ هناك قسماً كبيراً من الناس بحاجة إلى الكتابة لضعف في ذاكرته وعدم القدرة على التركيز لحفظ ما كان، ويكفينا أنّ الخليفة الثاني من هذا القسم من الناس، فقد نقل الخطيب في رواية مالك ، والبيهقي في كتاب شُعب الإيمان ، والقرطبي في تفسيره بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمر قال: تعلَّم عمر سورة البقرة في اثنتي عشر سنة فلمّا ختمها نَحَرَ جزوراً. أي أنّ بعض الصحابة لم يكن على قدرة عالية من الحفظ ، بل كان بحاجة إلى إعادة التركيز والتكرار والمتابعة ليتأتى له ذلك، ونحن أيضاً كذلك الأولى بنا أن نُدَوّن السُنّة للحفاظ عليها ، ولا نعتمد على الذاكرة مهما كانت قوتها ، وعندما نقوم بدراسة تاريخية للأقوام السالفة، نجد أنّ الأمم الحضارية تعتمد التدوين والكتابة ، بل أنّ الملائكة الذين يعتبرهم الفلاسفة وجوداً نورياً ،(أي غير مشاب بعلائق المادة) وعلى هذا لا يقال عنهم ، أنهم يحفظون ، بل العلم هو ذاتهم ، لأنّ المجرد –كما قال الفلاسفة – الحفظ هو ذاته ، ومع ذلك فإنّ الله تعالى قال في مدحهم: ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ *يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(الانفطار:١١-١٢) وإذا كان الملائكة مدحهم الله تعالى بالكتابة فكيف نسمح لأنفسنا بتحريم كتابة السنة وتدوينها بحجة الحفاظ على الذاكرة القوية لدى العرب؟!

١- الحديث والمحدثون لأبي زهو ص١٢٣.

٢- السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب ص٣٣٣.

الثاني : نهي النبي صلى الله عليه وآله عن كتابة السنة.

ادعى بعض أنّ النبي صـــلى الله عليه وآله نهى عن كتابة الســـنة، ولذلك كان ما صـــدر عن الشـيخين وغيرهما من الصـحابة لأجل هذا المنع الوارد عنه صـلى الله عليه وآله، غير أنّ الأحاديث التي نسبت إلى النبي في منعه لكتابة السُنّة ضعيفة من ناحية السند، وتتنافى مع الأحاديث الكثيرة عنه صلى الله عليه وآله الآمرة بالكتابة للسُنّة ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال: قلتُ: يا رسول الله ، أسمع منك أحاديث أخاف أن أنساها، فتأذن لي أنْ أَكتُبها ؟ قال :نعم[1].

وهذا حديث صـحيح، وغيره كثير، بالإضـافة إلى أنّ الكتابة والتدوين للسُـنّة قام بها بعض كبار الصحابة كالإمام أمير المؤمنين (ع) وابن مسعود وعبدالله بن عمرو بن العاص، وغيرهم، ويعني ذلك أنه لو كان هناك نهي من النبي لما فعله هؤلاء الصـــحابة، بالطبع هناك من ادعى أنّ بعض الصـــحابة كان يدون بعض الأحاديث ثم يمحوها بعد ذلك ، وهو إن دل على شـــيء يدلل على تأثر هذا البعض بالجو الإعلامي الذي ســـاد تلك الحقبة الزمنية من خلال إشـــاعة بعض الأمور التي لا تتناســـب مع قدســـية الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله.

الثالث: منع التدوين احتياطاً في الدين.

ذكر بعض العلماء أنّ منع الشيخين وغيرهما من الصحابة لتدوين السنة كان للاحتياط في الدين ، إذ أنّ بعض الصحابة يختلفون فيما يروونه من الأحاديث لأنّ رواية الحديث كانت تعتمد تارة على نقله بالنص وأخرى بالمعنى ، وقد تضـارب المعنى المنقول الذي لا ينقل النص بالشـكل الدقيق، وخوفاً من هذا التضارب مُنع تدوين السنة.

إنّ هذه الحجة لا تصـمد أمام المناقشـة العلمية لأنّ الاحتياط في الدين لا يقتضـي منع تدوين السـنن والأحاديث الواردة عن المصـطفى صـلى الله عليه وآله ، بل على العكس من ذلك فإنّ الاحتياط للدين يقتضي الحفاظ والتدوين الدقيق لكل ما ورد عنه صلى الله عليه وآله ، ومن ثم بلورة ما ورد وعرضه على الموازين ، كما جاء عن أهل البيت (ع) في الأحاديث الواردة التي تشـــير إلى معرفتهم أنه ســـوف يُكذب عليهم، لكنهم أمروا النقلة الذين يريدون أن يأخذوا بأحاديثهم بعرضـــها على القرآن الكريم، وما وافقه يكون سليماً يؤخذ به، وما خالف القرآن والقواعد المقررة من لَدُن العلماء يضرب به عرض الحائط.

---

[1]- تدوين السنة الشريفة للسيد محمد رضا الجلالي ص٣٦٧.

الرابع: عدم تناسب الكتابة مع التطلع للفتوحات الإسلامية.

نقل بعض المستشرقين كشبرنجر وجولد تيبس هير أنّ كتابة السنة لا تتناسب مع التطلع للفتوحات الإسلامية بمعنى أنها تشغل عن ذلك الهدف، إلاّ أنّ هؤلاء المستشرقون عندما ينقلون تعليلاً نعلم جزماً بوجود أغراض خاصة لديهم وعندهم، يعللون بها من أجل الوصول إلى مآربهم ، وإليكم هذا التعليل الذي نقله شبرنجر وغيره من المستشرقين الذين تناولوا السُنّة والأسباب الداعية لمنع تدوين الخليفتين لها.

قال : **إنّ الفاروق عمر لم يهدف إلى تعليم العرب البدو فحسب، بل تمنّى أن يحافظ على شجاعتهم وإيمانهم الدينيّ القويّ ليجعلهم حكّاماً للعالم. والكتابة واتّساع المعرفة لا تتناسب مع الهدف الذي سعى من أجله** »[1] أي: لم يرَ أنّ منعه تدوين السُنّة بالنسبة للعرب هو منع لهم عن العلم ، بل أراد أن يحافظ على شجاعتهم وإيمانهم الديني القوي ، ليجعلهم حكاماً للعالم ، ومن المعلوم أنّ الكتابة واتساع المعرفة لا تتناسب مع الهدف الذي سعى عمر من أجل تحقيقه.

لكننا إذا أردنا أن نسلط الضوء على هذا التعليل سنجده كالسراب، إذْ من الواضح أنّ هذا المستشرق يريد أن يقول: إنّ انتشار راية الإسلام في أصقاع المعمورة لم يكن قائماً على أُسس علمية، وعلى مبدأ القناعة. وينطلق من قوله تعالى ﴿ لاَإِكْرَاهَفِي الدِّينِ ﴾ ولم يعتمد على الكتابة ونشر العلم، وإنما اعتمد على القوة والسيف ، إلاّ أنّ ذلك خطأٌ فادحٌ، وكلامٌ يجانب الصواب ، لأنّ انتشار الإسلام لم يعتمد على القوة والسيف فحسب ، بل كان يعتمد على مبدأ القناعة والرحمة والتسامح ، وإخراج الناس من رِقِ العبودية الذي كان سائداً آنذاك ، كما أنّ وجود الركائز التي تتناسب مع الفطرة الإنسانية في آي القرآن الكريم كفيلٌ بجعل البشرية عامة تهفو بقلوبٍ خافقةٍ إلى القناعة بصحة الإسلام ، وليس التعليل الركيك العليل الذي قاله شبرنجر وغيره من المستشرقين .

والمهم أننا لا نجد أنّ التعليلات التي ذكرت تصمد أمام الدليل وتبقى أمام البرهان والمناقشة العلمية والحق أنّ الأسباب غير قوية وكافية لمنع التدوين ، وسنذكر أسباباً أُخر ليتبين لنا أنّ منع تدوين السُنّة كان يرجع إلى أسباب سياسية غير سليمة وغير متفقة مع مبادئ الإسلام العامة.

---

[1] – تدوين السنّة الشريفة للسيد محمد رضا الجلالي ص٥٣٠.

القسم الخامس: أسباب منع تدوين السُنّة (الحلقة الثالثة).

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾(الحشر:٧) صدق الله العليُّ العظيم.

لازال البحث في الأسباب التي ذُكرت في منع تدوين ما صدر من أحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله، وقد استعرضنا جملةً من الأسباب التي لم تصمد أمام المناقشة العلمية الدقيقة، وسنورد بعض الأسباب الأخرى التي ذكرها علماء الطائفة المحقة لمنع التدوين:

الأول: المنع من انتشار فضائل أهل البيت عليهم السلام.

أي أنّ السبب في منع التدوين، يرجع إلى منع شيوع وانتشار الأحاديث الواردة في فضل أهل البيت عليهم السلام ، إذْ أنّ الإمام علي وأهل البيت عليهم السلام، وردت فيهم أحاديث كثيرة عن المصطفى صلى الله عليه وآله، توجب الميل القوي من لدُن أفراد الأمة الإسلامية نحوهم، فكانت مدرسة الصحابة تخشى أن يتجذر هذا الميل ، فيصبح عائقاً عن تحقيق مآربهم ، ومن أجل ذلك منعوا تدوين السُنّة. ونحن وإن كنا نؤيّد هذا الرأي في الجملة ، لكننا لا نراه السبب التام ، بل أسباباً أخرى أسهمت بدورها في منع تدوين الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله، خصوصاً أنّ بعض الصحابة بل أكابر الصحابة رووا جملة من الأحاديث الواردة في فضائلهم ومناقبهم (ع)، فقد وردت روايات عن سعد بن أبي وقاص ، وعمر بن الخطاب ، وعن غيرهما ، بل عن أبي بكر . إذاً السبب الرئيس في منع التدوين لا يرجع كُله إلى منع شيوع مناقبهم عليهم السلام، لكنه جزء من السبب أي أنّ إشاعة جملة من الأحاديث وإخفاء جملة أخرى منها له ميزان في منطق الواقع الاجتماعي آنذاك .

وهناك أمر غاية في الأهمية هو أنّ بعض الحقائق لشدة وضوحها يصعب إخفاءها مرة واحدة، فتُتّخذ أساليب متعددة لتحقيق ذلك، من جملتها، إبانة بعضٍ منها وإخفاء بعضها الآخر ليكون هذا المنهج مقدمة للوصول إلى نتيجة أخرى ، وهذا بالدقة ما حصل في منع تدوين الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وآله، وقد تَصور بعض الباحثين أنّ السبب لا يرجع إلى منع الفضائل الواردة عنه صلى الله

عليه وآله في أهل البيت عليهم السلام ، إذْ كيف يُعقل أن يمنع شخص من إشاعة الفضائل ، ثم يرويها بنفسه؟

لكننا أجبنا عن ذلك بما تقدم، ونوضح الأمر في ذلك بأنّ:

المنطق الواقعي من الوضوح بمكان لوجود حقائق لا يمكن أن يُكتَّم عليها مائة بالمائة ، فيضطر الإنسان العارف بالشؤون الاجتماعية أن يُفصح عن بعضها ، ويُكتِّم على بعضها الآخر ، ومن خلال هذا البيان يُتاح بذلك للهادف أن يصل إلى مآربه ، وأن يحقق مقاصده ، وهذا ما حصل بالنسبة للروايات الواردة في فضائل أهل البيت (ع)، وفي غير الفضائل لأنّ المسألة خُلط بعضها مع بعضها الآخر للوصول إلى بعض الأهداف التي كان بعض الصحابة يصبوا ويروم الوصول إليها.

الثاني : تصادم أحاديث النبي صلى الله عليه وآله مع توجهات بعض الصحابة .

من الأسباب التي ذُكرت في منع التدوين ، ما ورد من أن السنة النبوية تتنافى مع توجهات بعض الصحابة ، أي أن ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله يُمثل اجتهاداً منه ؛ قد يُصيب وقد يُخطئ لذا كان بعض الصحابة يروم التكتم على إشاعة الأحاديث الواردة عنه، لأنّ بعضها يختلف كلياً أو جزئياً عن المنهج الوارد في مدرسة الصحابة التي بُنيت أركانها ودُعِّمت قواعدها على اجتهاد الرأي القائم على المصالح والاستحسان ، وتحقيق بعض المقاصد التي يُفكر الإنسان بأنها هدف الشريعة أو من أحكامها، ولهذا بينت بعض الآيات في القرآن الكريم أنّ بعض الصحابة يُفكر بهذا المنهج في تعامله مع ما ورد من أحكام شرعية ، وآيات قرآنية ، ومن إيضاح لمفاهيم تتنافى مع طريقة التفكير القبلي والثقافي في الواقع العربي آنذاك، لذلك طلب بعض الصحابة من النبي صلى الله عليه وآله، أن يُبدِّل بعض الآيات، فردّ عليهم القرآن بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾(يونس:١٥) أي أن المسألة لا تعود إلى هذا التصور الخاطئ، الذي يقوم على تشخيص مصلحة مؤقتة ، وإنما هو حكم إلهي، له واقع الديمومة والاستمرار ، قال الإمام الصادق عليه السلام، في إيضاح ذلك: (حلال محمد حلال أبدا إلى يوم القيامة ، وحرامه حرام أبدا إلى يوم القيامة ، لا يكون غيره ولا يجئ غيره)[1] ومعنى ذلك أن المسألة ليست قائمة على نوع من الاجتهاد في تشخيص المصلحة المؤقتة.

١- الكافي للشيخ الكليني ج١ ص٥٨.

وعليه فإنّ قسماً من الناس أُبَّان عهد النبي صلى الله عليه وآله تصور أن تشخيصاته صلى الله عليه وآله لا ترجع إلى منطق الوحي ، ولا إلى حكم مُلزِم من قبل الله تعالى، خصوصاً في الأمور الدنيوية، كما يوضح ذلك ما ورد عنهم في قضية تأبير النخل ،وهي قضية مشهورة ، خلاصتها، أنّه صلى الله عليه وآله عندما جاء إلى المدينة المنورة ، ورأى أهلها يُنبِّتون النخيل (لأنّ الواقع الاقتصادي في المدينة المنورة يقوم على الزراعة وبنسبة أكبر يقوم على زراعة النخيل) سألهم النبي ص : لماذا تُؤبرون النخيل ؟ فقالوا له : يا رسول الله ، هكذا نفعل (أي: وجدنا الأمر هكذا يفعل آباؤنا وأجدادنا) ، فقال لهم صلى الله عليه وآله: إن الله تعالى إذا أراد لهذه النخيل أن تصل إلى نهايتها سوف تصل ، وفي تلك السنة لم يؤبروا نخيل المدينة ، فلما حان موسم حصاد التمر (صرام النخل كما نعبر في الإحساء) ، لم تصل التمور إلى نهايتها ، بل لم يكن هناك تمر ؛ انقلب إلى شيص كما يعرف ذلك المزارعون ، فسألهم النبي : لماذا كان التمر في هذه السنة بهذه الكيفية ؟ فقالوا له : ألم تأمرنا يا رسول الله ألا نؤبر النخل ؟ فقال لهم صلى الله عليه وآله : عودوا في السنة الآتية ، لأن هذا من شؤون الدنيا ، فإذا أمرتكم بشأن من شؤون الدنيا ، فأنتم أولى بشؤون الدنيا مني ، وأنا أولى بشؤون الدين منكم[1].

وهذا الواقع صوره صلى الله عليه وآله بمعزل عن الثقافة الموجودة والمتأصلة في المدينة المنورة ومكة المكرمة ، وأنه (ص) لا يعلم من الثقافة الدنيوية، الذي يؤهله لأبسط القضايا ، لذلك منعهم عما يتعلق بشأنهم الاقتصادي ، ومصدر دخلهم القومي آنذاك أي أنه صلى الله عليه وآله كان يجتهد ويخطئ في الأمور الدنيوية، بل أكثر من ذلك، كان بعض الصحابة يتصرف تصرفاً يُضاد ما ورد عنه صلى الله عليه وآله، لإدراكه أن المصلحة في خلاف ما يقوله النبي ، في مثل قوله صلى الله عليه وآله، الذي أعلنه مراراً وتكراراً : (من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، حُقن ماله ودمه وعرضه[2] أي : لا يجوز التعدي على ماله ، وعرضه ودمه، وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، بينما نجد تصرفات مضادة مائة بالمائة لأمره هذا ولغيره من الأوامر التي وردت عنه صلى الله عليه وآله، كما فعل أسامة بن زيد، عندما قتل مرداس

---

[1]- صحيح مسلم للنيسابوري ج٧ ص٩٥.

عن ثابت عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال: (لو لم تفعلوا لصلح) قال فخرج شيصا فمر بهم فقال: (ما لنخلكم قالوا قلت كذا وكذا قال أنتم اعلم بأمر دنياكم).

[2]- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٣ ص٩٦.

وقال النبي صلى الله عليه وآله : (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله فقد حقن ماله ودمه إلا بحقهما ، وحسابه على الله عز وجل).

بن نهيك في إحدى الغزوات ، وكان له غنم كثير، فعَلِمَ به أُسامة بن زيد ، فذهب إليه من جهة لا يشعر به مرداس ، وعندما أحس أن أسامة متجهاً إليه تشهد بالشهادتين، فقتله أسامة، وعندما رجع قال للنبي صلى الله عليه وآله : هو منافق تشهد بالشهادتين خوفاً من القتل، فقال صلى الله عليه وآله: وهل شققت بطنه أي هل علمت بواقعه؟

إنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يُؤصل منهجاً عاماً ، قائماً على احترام الإنسان وصيانة حقوقه إذا انصاع للقانون الإسلامي على ضَوْء ما يريده القرآن الكريم ، وما يريده النبي صلى الله عليه وآله، وليس ما يريده بعض الصحابة حسب نظرته الضيقة التي تخالف ما يراه القرآن الكريم ، والسُنّة، إذن القتل كان منهجاً يُؤصله بعض الصحابة ، ولا زال مستمراً إلى يوم الناس هذا وهو خلاف ماَ سنّهُ النبي صلى الله عليه وآله.

إنّ بعض الصحابة رأى بأنّ المصلحة تقتضي خلاف ما يؤصله النبي صلى الله عليه وآله، ولا أعلم كيف يتناسب ذلك مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر:٧) ومع قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب:٣٦)، وهناك آيات تأمر بالانصياع التام والكامل لما يقوله الرسول صلى الله عليه وآله، طبقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلاَ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم:٣-٤) أي كان بعض الصحابة يرى تأصيل منهج آخر قِبال ما أراده النبي (ص) أي أنّ البعض كان يؤصل في الواقع الإسلامي منهجاً ينسجم مع المصلحة، لذلك نجد أنّ بعضهم يخوض في غمار مناقشة حادة مع النبي صلى الله عليه وآله، في صُلح الحديبية ويصل به الحد إلى التشكيك في نبوته صلى الله عليه وآله، فيقول: ما شككت في رسالته كما شككت في ذلك، -يوم صُلح الحديبية- [1]، أي أنّ المسألة تعود إلى أنّ ما

---

[1]- صحيح ابن حبان لابن حبان ج١١ ص٢٢٤-٢٢٥.

قال عمر بن الخطاب والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت ألست رسول الله حق قال بلى قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذا قال إني رسول الله ولست أعصي ربي وهو ناصري قلت أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به قال بلى فخبرتك أنك تأتيه العام قال لا قال فإنك تأتيه فتطوف به قال فأتيت أبا بكر الصديق رضوان الله عليه فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا قال بلى قلت أو لسنا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذا قال أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه حتى تموت فوالله إنه على حق قلت أوليس كان يحدثنا أنا

يقوله صلى الله عليه وآله، لا ينسجم مع الرؤى والاجتهادات القائمة على مصالح ضيقة لا تتفق مع المنهج العام الذي كان يراه المصطفى صلى الله عليه وآله، بل تسير على منهج قائم على الاجتهاد وإدراك المصالح المؤقتة في قِبال المصالح الدائمة والمستمرة التي نعبر عنها بالحفاظ على حقوق الإنسان ، والحفاظ على المنهج الحضاري للشريعة الإسلامية ، وذلك جرَّ ويلات كثيرة في مقدمتها منع تدوين السنة، لأنهم كانوا يرون أنّ في تدوينها ما يُخالف الاجتهاد الذي يرونه.

وعليه فيتبين أنّ السببين الأول والثاني دفعا بعض الصحابة لمنع تدوين السُنّة، وإن كان السبب الثاني هو الأهم ، وكان في قِبال ذلك ما يؤكده الأئمة من أهل البيت بأن المنهج الذي يريده الله تعالى هو في الانصياع التام لأوامر النبي صلى الله عليه وآله، طبقاً لما تلوناه من آي مباركة وردت في القرآن الكريم ، وطبقاً لما ورد عنه من أحاديث في الرد على من أخذ بهذا المنهج وتنديد وشجب كقوله صلى الله عليه وآله: (فها أنا بين ظهرانيكم (معكم) فما لكم تضربون آي القرآن ببعضها الآخر ، وما لكم تردُّون ما ورد في القرآن الكريم بهذا الرد)[1]، وهذا تفسير لضرب بعض آي القرآن ببعضها ، أي أنه صلى الله عليه وآله بقوله: ما لكم تردُّون ما ورد في القرآن الكريم لهذا المنهج ، وهذا التصور الضيق القائم على إدراك بعض المصالح المؤقتة التي قد لا تتوافر إلا لبرهة زمنية ، بل قد يكون بعض الاجتهادات لا مصلحة فيها . والعجيب أنهم نظَّروا لهذا بقولهم : المجتهد إذا أصاب فله أجران ، وإذا أخطأ فله أجر واحد[2]، وبالتالي فُتح هذا المنهج على مصراعيه ، وكان المنهج يمثل اجتهاداً على أساس المصلحة ، وليس قائماً

سنأتي البيت ونطوف به قال بلى قال فأخبرك أنا نأتيه العام قلت لا قال فإنك آتيه وتطوف به قال عمر بن الخطاب فعملت في ذلك أعمالا يعني في نقض الصحيفة

[1]- مسند احمد لابن حنبل ج٢ ص١٩٥-١٩٦.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: ان نفرا كانوا جلوسا بباب النبي صلى الله عليه وآله سلم فقال: (بعضهم ألم يقل الله كذا وكذا وقال بعضهم ألم يقل الله كذا وكذا فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج كأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال بهذا أبى أمرتم أو بهذا بعثتم ان تضربوا كتاب الله بعضه ببعض إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا انكم لستم مما ههنا في شئ انظروا الذي أمرتم به فاعلموا به والذي نهيتم عنه فانتهوا).

[2]- مسند احمد لا بن حنبل ج٤ ص١٩٨.

عن عمرو بن العاص انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله سلم يقول: (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر).

على الموازين والأسس المستنبطة من آي القرآن ، والأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وآله ، والمهم أنّ هذا المنهج جرَّ على الأمة الإسلامية ويلات في مقدمتها منع تدوين السنة.

المطلب الثاني: العصمة.

القسم الأول: مفهوم العصمة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(آل عمران:١٠١) صدق الله العلي العظيم.

معاني العصمة:

الأول: المعنى اللغوي.

العصمة في اللغة المنع، والعاصم: المانع الحامي، ومعناها عدم الانفعال والتأثر بالغير، أي أنّ الغير لا يؤثر على المعتصم، لكونه له حصانة بالاصطلاح الحديث، والعصمة هي حصانة لعدم الانفعال بتأثير الغير، وقد أطلق الفقهاء هذا المعنى على الماء غير المنفعل بالنجاسة كالكثير والجاري بأنه معتصم، قائلين إنّ الماء إذا كان قليلاً تنجس بمجرد أن يلتقي بالنجاسة، أما المعتصم فلا ينفعل بملاقاة النجاسة إلاّ إذا تغير طعمه أو ريحه أو لونه أي أثّرت النجاسة فيه فغيرت واقعه.

الثاني: المعنى الاصطلاحي.

وله معنيان: عام وخاص.

الأول: العام.

العصمة بهذا المعنى مفهوم أخلاقي يراد به أنّ على المرء أن يلتفت إلى وجود قابلية للانحراف في داخله مهما بلغ مستواه، وعليه أن لا يأمن من الوقوع في الهلكة وأن يعتصم بالله وينقطع إليه تعالى ويراه حاضراً ناظراً لأفعاله وأقواله، وحركاته وسكناته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(ق:١٦) من اعتصم بالله تعالى أمن من السقوط في الهلكة، إذن تساوي العصمة الأمن من السقوط في السخط الإلهي، لوجود قابلية للانحراف لدى الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(الإنسان:٣) لكنه إذا اعتصم بالله تعالى أمن، وقد أشارت الروايات إلى هذا المعنى بتفصيل وبيان بأنّ على المرء أن يتقي الله تعالى، وأن يخافه تعالى لئلا تسلب منه نعمة التقوى ذلك

أنّ التقوى نعمة قد تسلب، ولا يستمر للمتقي الوازع الديني أما إذا انقطع بقلبه إلى الله تعالى فقد اعتصم وأمن، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: ‹‹إنما الناس مع الملوك والدنيا إلاّ من عصم الله››[1] أي أنّ الناس يميلون مع الأقوياء، ويقدسون القوة، وهم على دين ملوكهم، يراعون مصالحهم الدنيوية في الأعم الأغلب، ويتحرك بعضهم ليحرز مصالحه على حساب قيمه ودينه، إلاّ من اعتصم بالله تعالى، فهو وإنْ حدثت سيطرة وغلبة لبعض الزعماء أو الملوك والرؤساء لن يبيع أخراه بدنياه، بل يعتصم بالله تعالى ويلتجئ إليه، والمصالح حتى إذا كانت كبيرة ومغرية، لن تؤثر على المعتصم بالله تعالى، قال علي عليه السلام موضحاً ذلك: ‹‹الناس منقوصون مدخلون إلاّ من عصم الله››[2] أي أنّ من لمن يعتصم بالله تعالى فهو في نقص من دينه يلبس عليه الشيطان ويدخل إليه من طرق ليست بحسبانه، ذلك أنّ الشيطان له قدرات إغرائية كبيرة، ولا يأمن مكره إلاّ من اعتصم بالله تعالى، وقال عليه السلام: ‹‹من ألهم العصمة أمن الزلل››[3] أي من اعتصم بالله تعالى فهو في حرز من الزلات وأمن من الإغراءات، لأنه كالملائكة لا يتأثر بالشهوات ورغم أنّ الملائكة عقل بلا شهوة، ولا يغريهم الجانب الحيواني لكمال عقولهم وتجردها، بخلاف الإنسان فإنّ له جنبتان: إحداهما تشده إلى الأرض والأخرى ترفعه إلى الملكوت، فإذا التفت إلى الجانب المعنوي أبصر الهدى، وابتعد عن الغواية وإذا التفت إلى الجانب المادي انشد إلى الأرض واتبع هواه، قال الإمام عليه السلام في صفة الملائكة: ‹‹وعصمهم من ريب الشبهات فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته››[4] أي أنّ الملك لا يضل الطريق ولا يتبع الهوى لتجرده، ونظر الملائكة إلى الحق والصواب، بخلاف البشر فإنهم قد ينظرون إلى الجانب المادي فيشدهم إلى الأرض لكنهم إذا اعتصموا بالله تعالى أمنوا ولم يتأثروا بالشيطان، إذن البشر لهم قابلية لاقتراف الشهوات وفعل الزلات، وقد أكدت الروايات على أنّ الإنسان لا يأمن من اقتراف الحرام وفعل المعصية إلاّ إذا التجأ إلى الله تعالى، حينئذ يصبح في حصن وثيق، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (النساء:١٧٥) إذْ أنّ من طبيعة البشر الخلود إلى الأرض غير أنّ الله تعالى مكنهم باللجوء إليه تعالى أن يكونوا في حصنٍ منيعٍ

---

[1] – ميزان الحكمة للريشهري ج٣ ص١٩٩٦.

[2] – ميزان الحكمة للريشهري ج٣ ص١٩٩٦.

[3] – ميزان الحكمة للري شهري ج٣ ص١٩٩٦.

[4] – ميزان الحكمة للريشهري ج٣ ص١٩٩٦.

لدخولهم في رحمة منه، وبذلك يتحقق لهم الازدياد على الملائكة معنوياً، لتغلبهم على الشهوة وسيرهم على الصراط المستقيم، فأصبح لهم عصمة مكتسبة –اصطلاح علمي– تتأتى لبعض منهم لقابليته للرقي في درجات التكامل المعنوي، ويأمن مكر الشيطان رغم أنّ طبيعته قابلة للعصيان لكنه بالاعتصام تولى الله تعالى هدايته، ووفقه للعمل الصالح، وجنبه العثرات.

الثاني: المعنى الخاص.

وهو أنّ حكمة الله تعالى اقتضت أن تتحقق إفاضة رحمته على بعض الناس يعطيهم ما لا يعطي الآخرين، ويفضل بعضهم على بعض في الرتب، كتفضيل بعض الرسل على بعض، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (البقرة:٢٥٣) وقد أفصحت بعض الآيات والأحاديث عن هذا المعنى وهو العصمة الخاصة التي هي في الحقيقة اجتباء واصطفاء واستخلاص، وما يتناسب مع المعنى الأول هو المخلِص –بكسر اللام– وأما ما يتناسب مع المعنى الثاني فهو المخلَص –بفتحها– أي من استخلصه الله تعالى، وليس كل من أخلص لله تعالى استخلصه تعالى، بل بعض من أخلص لله تعالى وهو من لم يكن للشيطان عليه سبيلاً، قال تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (الحجر:٤٠)، المخلَصون هم الذين اجتباهم الله تعالى واصطفاهم، وتولاهم بهداية خاصة ولطف مخصوص يختلف عن لطفه لعامة خلقه، وذلك معنى العصمة الخاصة.

حقيقة العصمة بالمعنى الخاص

ولها جنبتان: تكوينية وتشريعية.

الأولى: العصمة التكوينية.

أشكل على القول بأنّ المعصوم إذا استخلصه الله تعالى تكويناً لن يستطيع أن يرتكب المعصية، بأنه كيف يكون مكلفاً ومثاباً؟

وأجاب عن ذلك العلماء: بأنّ الله تعالى يعطي كثيراً من النعم كالعقل والفطرة السليمة التي يستقذر بها الناس بعض الأشياء، ويرونها قبيحة أو حسنة، فالعاقل لن يأكل القاذورات لكونه يستقذرها بطبعه، وهو يقبح القبيح ويحسن الحسن، أي أنّ عقله يدرك ذلك إذا كان سوياً مستقيماً في فطرته، ولذا لن يأكل القذر لأنه معصوم عن أكل القاذورات بطبعه، رغم كونه قادراً على أكلها

إلاّ أنه يمتنع عنها وإنْ أغري بالأموال لتشخيصه تأثيرها على صحته وحياته، فلا يضحي بنفسه لذلك فهو معصوم تكويناً عن تناول القذر، مع كونه قادراً على تناوله.

الثاني: العصمة التشريعية.

ما تقدم جنبة تكوينية، وإلى جنبها تشريع ونهي من الله تعالى عن أكل القذر، رغم الامتناع عنه بالطبع.

العصمة من المعاصي

للمعصوم جنبتان: تكوينية وتشريعية، كلتاهما يلتفت إليها في امتناعه عن أكل القذر ولا يقال إنه لا يستطيع تناوله بل يمتنع باختياره وإن أغُري بالمنصب والمال لكونه سائراً في الصراط المستقيم على جادة الصواب، ومن المحال –طبعاً– أن يأكل رغم كونه متمكناً، غير أنه يستقذر ذلك فيمتنع عنه، والمعاصي كذلك عنوانها عدم السير على الصراط المستقيم أي الانحراف عن صراط العبودية وذلك قذارة معنوية يمتنع المعصوم عنها للجنبتين آنفتي الذكر.

عصمة الأنبياء والرسل

أوضحت بعض الآيات والروايات هذا المعنى، كما أوضح بعضها الآخر المعنى العام وهو السير على الصراط المستقيم –جادة الصواب المؤدية إلى الله– قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦) والسائرون على الصراط المستقيم بنحو دائم مخلَصون لديهم قدرة ذاتية تكوينية وهم الرسل والأنبياء والأوصياء، وهذه القدرة ليست لسائر الخلق، والروايات وإنْ كان جلها أوضح المعنى الأول إلاّ أنّ المعنى الثاني الذي يتناسب مع وظيفة الرسل والأنبياء والأوصياء عليهم السلام بُيّن بإيجاز.

التعرف على المعصوم

قال الإمام زين العابدين عليه السلام شارحاً المعنى الخاص: «الإمام منا لا يكون إلاّ معصوماً وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها، فلذلك لا يكون إلاّ منصوصاً» [١] .

---

[١] – بحار الأنوار للمجلسي ج٢٥ ص١٩٤.

استحالة اقتراف الذنب

قوله عليه السلام: ‹‹الإمام منا لا يكون إلاّ معصوماً›› أي لا يقترف حراماً ولا يميل عن طريق الصواب طرفة عين، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وآله: ‹‹علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار››[1].

معرفة المعصوم

قوله عليه السلام: ‹‹وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها، فلذلك لا يكون إلاّ منصوصاً›› أي لابد من النص على المعصوم كالنص الذي تقدم عن النبي صلى الله عليه وآله في الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وكحديث الثقلين الذي قرن فيه صلى الله عليه وآله أهل البيت عليهم السلام بالقرآن الكريم، وهناك نصوص أُخر على كل واحد من الأئمة عليهم السلام بعد تعيين النبي صلى الله عليه وآله لهم وتعيين كل سابق لخلفه السجاد ينص على الباقر، والباقر على الصادق، والصادق على الكاظم وهكذا إلى الإمام المهدي عليهم السلام.

تأهيل المعصوم بقدرات تميزه عن غيره

قد يكون المعصوم صغير السن، لذا استشكل بعض في ذلك قائلين كيف يكون إماماً مع صغر سنه؟

وجاء الجواب: بأنّ ذلك لا يضير فعيسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل كان في المهد صبياً قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾(مريم: ٣٠) والإمام الجواد عليه السلام حيّر العلماء مع صغر سنه، وأعطى عليه السلام تفصيلات كثيرة واحتمالات دللت على قدراته الغيبية عليه السلام وأنه يتمتع بمنحة إلهية، كعيسى عليه السلام حيث كان يمسح على الأكمه فيبرأ بإذن الله تعالى، ولا يستطيع ذلك أطباء العيون لأنّ العمى يرجع إلى خِلقته، وكذلك يُبرئ الأبرص الذي يعجز استشاريو الجلدية في يومنا هذا عن علاجه، بينما بمجرد أن يمسه عيسى عليه السلام يبرأ بأذن الله تعالى، والإمام عليه السلام كذلك.

حقيقة المعصوم

---

[1] – موسوعة الإمام علي عليه السلام للريشهري ص٢٣٧.

ثم أضاف عليه السلام بأنّ المعصوم هو المعتصم بحبل الله أي أنّ له اتصالاً وثيقاً مع الله تعالى يختلف به عن الآخرين، فيرى الله تعالى حاضراً وناظراً ويعرف حبل الله تعالى وهو القرآن، ويعي معنى الاعتصام به ذلك أنّ آي القرآن الكريم في قلبه، يجسدها سلوكاً، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ‹‹أنا القرآن الناطق››[1] إنّ بعض الناس يحفظ القرآن الكريم، وقد يصبح عالماً يشرح المعاني بتفصيلات دقيقة، لكنه مع الشيطان في قيامه وقعوده، لتعلق قلبه به، أما المعصوم عليه السلام فيجسد ما يريده الحق تعالى، وذلك معنى العصمة الذي أفاده الإمام السجاد عليه السلام، لذا فإنّ المعصوم والقرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة، كل منهما يهدي إلى الآخر، وذلك أحد معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩).

القسم الثاني: نصوص في العصمة الخاصة.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب) صدق الله العلي العظيم.

أقسام العصمة

بينا معنيين للعصمة: عام يساوق التقوى بمعناها الأعلى يستطيع به المرء أن يقي نفسه من الزلات، (العصمة المكتسبة)، وخاص هو منحة إلهية وعطاء من عند الله تعالى للمصطفين وهم الرسل والأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

العصمة في الروايات

---

[1] – موسوعة الإمام علي عليه السلام في التأريخ للريشهري ص٢٠٦.

وقد أسهبت الروايات في المعنى الأول لأهميته لكافة الناس، فقدمته زاداً معنوياً لهم، لإيصال من لديه استعداد إلى درجات عالية في تقوى الله، ومن اعتصم به تعالى وصل إلى درجة الأمن، ولن يكون للشيطان عليه سبيل بنحو ما، ذلك أنّ الهدف من إيجاد الإنسان في الحياة الدنيا هو الوصول إلى تلك المقامات العالية في عبودية الله تعالى.

أما المعنى الثاني فإنّ الروايات فيه أقل مما جاء في المعنى الأول غير أنها أبانت حيثيات متعددة، منها أنّ المعصوم مجتبى ومصطفى من عند الله تعالى

خصائص المعصوم

الأول: الخلو من العيوب.

الطهارة للمعصوم منذ ولادته إلى أن يختم له بالشهادة، والخلو من كل عيب وريب، ليس له عثرة ولا زلة، بحيث إذا نظر الناس إليه رأوا فيه تجسيداً للفضائل، لذا لم يثر أحد إشكالاً على شخصيات الأنبياء والرسل والأوصياء عليهم السلام، نعم من يصطاد في الماء العكر قد يأتي بكلام لا قيمة له ذلك أنّ المعصوم بريء مما يقال فيه، وعامة الناس يرون براءته كالشمس في رابعة النهار، لا يحتاج أن يدافع عنه، واتهامه سراب نعم اتهم قارون ، موسى عليه السلام بالزنى، فغضب موسى عليه السلام ، وأمر الأرض أن تبتعله بإذن الله، فابتلعته أي خُسفت به الأرض، إلاّ أنّ هذه حالة نادرة من الطغاة الذين وصلوا في عتوهم واستكبارهم إلى درجات عالية فتجرءوا على وسم الأنبياء بالرذائل، وقد حسمت السماء ذلك لأنّ الطهارة سمة بارزة لهم عليهم السلام لاصطفائهم واجتبائهم من عند الله تعالى[1].

الثاني: العلم.

العلم والإحاطة لدى المعصوم عليه السلام منحة من عند الله تعالى يتاح به الإطلاع على الآثار السيئة للذنوب والمعاصي وكل ما يترتب عليها في امتداد الزمن، ذلك أنّ الذنب له آثار في عالم الدنيا والآخرة، وإطلاع المعصوم الواسع إدراك لجميع ما يترتب على الذنب من آثار، وقد رتّب العلماء على ذلك ما تقدم في العصمة المكتسبة من أنّ السوي لا يقدم على أكل القاذورات حتى وإنْ أُغري بل يمتنع معتصماً لعلمه بالآثار السيئة، أما المعصوم عليه السلام فيدرك ما يترتب من آثار وبيلة وسيئة على الذنب بنحو أشمل لأنّ الذنب له قذارة معنوية أعظم من الطعام، لذا من المحال اقتراف المعصية منه عليه السلام،

---

[1] – راجع التبيان للطوسي ج٨ ص١٨٢.

أي استحالة طبيعية فهو قادر على الفعل لكنه يستقذر الذنب كاستقذار السوي لأكل الطعام القذر، والأنبياء والأوصياء عليهم السلام رغم وجود الأعداء لهم، لم يتهموا ببعض التهم لأنّ تأريخهم الناصع صيّر ذلك صعباً.

إنّ مخالفة التكاليف الإلهية ظاهرة بينة لدى غير المعصوم، أما هو فإنّ التقيد بأمر الله تعالى والسير في صراط العبودية أوضح من الشمس، وتلك حالة عامة أدركها جميع من نظر في سيرة الرسل والأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

أهل البيت عليهم السلام والقرآن عصمة مشتركة

يقرن حديث الثقلين عصمة أهل البيت عليهم السلام بعصمة القرآن، فهما معصومان.

المعصوم تجسيد للقرآن

عبّر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن المعصوم بالقرآن الناطق[١] أي من يجسد رؤى ومفاهيم القرآن الكريم في شخصه فهو قرآن يسير على الأرض.

امتناع التأثير على المعصوم

القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يستطيع أحد أن يؤثر عليه وكذلك المعصوم عليه السلام ، يمتنع تأثير غيره عليه، لاعتصامه بالله تعالى، فلا ينفعل بغيره، ولا يتأثر به بل يؤثر فيه برفع مستواه وتطهيره إذا اتصل به، والروايات بينت ذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام قال: ‹‹فأين تذهبون وأنّى تؤفكون والأعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة فأين يتاه بكم بل كيف تعمهون، وبينكم عترة نبيكم وهم أزمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن››[٢] يوضح الإمام عليه السلام أنّ الله تعالى أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأنّ على المسلم أن يصفهم بوصف القرآن.

المعصوم منبع صافي

١- موسوعة الإمام علي(ع) في التأريخ للريشهري ص٢٠٦.

٢- نهج البلاغة رقم الخطبة ٨٦.

إنّ الله تعالى اجتباهم واصطفاهم لحكمة وليس اعتباطاً وعبثاً بل لأنهم يقدمون زاداً معنوياً للناس لصدور العثرات والزلات منهم، وإذا اتصلوا بالمعصومين وشربوا من معينهم الإلهي نجوا، وقد أُكّد على أهمية أن يأخذ المرء فكره من معين صافٍ فيعمل بالمفاهيم والرؤى الحقة، ولا يأخذ من الماء الآسن غير النقي، قال الإمام علي عليه السلام: ‹‹وردوهم ورود الهيم العطاش›› إنّ النوق إذا عطشت أسرعت إلى الماء لترتوي، ويزداد سيرها نحوه إذا كانت في غاية العطش، والإنسان في الحياة الدنيا عليه أن يرتوي من المعين الزلال للمعصومين عليهم السلام.

العصمة منحة إلهية

ثم بيّن عليه السلام أنها منحة إلهية خاصة يختلف بها المعصوم عن غيره، وليست كالعصمة المكتسبة، وأنّ الاختلاف بينهما كبير فقال عليه السلام: ‹‹أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين صلى الله عليه وآله إنه يموت من مات منا وليس بميت›› أي أنّ الميت من الأنبياء والرسل والأوصياء أعلى درجة من الشهداء، وهم عليهم السلام أحياء عند ربهم يرزقون، وأردف عليه السلام، فقال: ‹‹ويبلى من بلي منا وليس ببال، فلا تقولوا بما لا تعرفون›› أي لا تتحدثون بهذا الشأن بما لم تحيطوا به علماً، فإنّ ذلك يحتاج إلى إطلاع واسع ودقيق، يكشف الإمام عليه السلام النقاب عن ذلك بتبيان اختلافهم في موتهم وحياتهم عن غيرهم، ورغم أنه يصعب الوصول إلى فهم ذلك إلاّ أنه لا ينبغي الإنكار ‹‹فإنّ أكثر الحق فيما تنكرون›› ولا ينبغي أن ينظر إلى هذا المعنى بنظرة سطحية، لا توصل إلى غور الحكمة وحقانية العلم ولا تتيح فهم كل ما له دخل في ذلك، فإنّ الأمر يحتاج إلى علم راسخ وإدراك عميق، ومن لم يكن كذلك فليعذر غيره، قال عليه السلام: ‹‹واعذروا من لا حجة لكم عليه››.

المعصوم في الروايات

أفصحت طائفة من الروايات عن المعنى الخاص لأهميته، كما بينت الكثير من الروايات العصمة بمعناها العام الذي يساوق المرتبة العالية من التقوى، وحضت الإنسان على الاعتصام بالله تعالى لكن الروايات التي جاءت لتبيان المعنى الخاص فيها جلاء ووضوح، قال الإمام الرضا عليه السلام: ‹‹الإمام المطهر من الذنوب والمبرئ عن العيوب والمخصوص بالعلم والموسوم بالحلم››[1] أي لا يستطيع أحد أن يعيب المعصوم بشيء، لأنّ إحاطته عليه السلام تامة لكونه المخصوص بالعلم، وهو على خلق عظيم لحلمه.

---

[1] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٠.

أهمية وجود المعصوم

لابد أن تتوافر هذه المواصفات في المعصوم عليه السلام لأنه ‹‹نظام الدين وعز المسلمين›› والإسلام بالمعصوم عليه السلام في حالة رقي، لكونه عليه السلام يورد الناس الموارد السليمة فيكونون في تقدم على الصعيدين المادي والمعنوي، لهذا حورب الأنبياء والأوصياء من أصحاب المطامع الذين تعلقت قلوبهم بالدنيا ورأوا أنّ مصالحهم في خطر، والإمام عليه السلام ‹‹غيظ المنافقين، وبوار الكافرين›› لأنه يُري الطريق الذي يوصل الناس إلى الحق، وأعداء الله تعالى من الإمام عليه السلام في تسافل، ومن اتبع الإسلام الحق في تعالٍ، قال الإمام الصادق عليه السلام: ‹‹الأنبياء وأوصياؤهم لا ذنوب لهم لأنهم معصومون ومطهرون››[1].

القسم الثالث: خصائص المعصوم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب) صدق الله العلي العظيم.

الأولى: التميز بالعصمة.

العصمة بمعناها الخاص هي منحةٌ من عند الله تعالى ولطفٌ مخصوص يرتبط بنظام الكون، ذلك أنّ الله تعالى خلق الخلق لإيصالهم إلى السعادة؛ وتتوقف سعادتهم على أمرين أساسيين:

الأول: إعطاء العقل كي يستطيع المرء أن يميز بين الأشياء ويشخص المصالح والمفاسد.

الثاني: هو الارتباط بعوالم الغيب والآخرة، ولا يستطيع العقل وحده بالرغم من عظمته وسعة إمكاناته أن يُدرك المصالح والمفاسد التي ترتبط بطاعة الله تعالى بكيفية مخصوصة والسير على نظام يؤدي بالإنسان إلى الصراط المستقيم، لذلك امتن الله تعالى على الإنسان بحجة ظاهرة هم الرسل والأنبياء والأوصياء عليهم السلام ولهم ميزات في شخصياتهم منها العصمة بأن يكون المعصوم هو القسطاس المستقيم الذي يري الأشياء بوضوح تام لا يرتاب في رؤيته، وليس هناك إيهام في تشخيص مساره بسبب عصمته عليه السلام لذا بعث الرسل والأنبياء، ونصب الأوصياء.

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٢٥ ص١٩٩.

وقد أورد العلماء برهاناً جميلاً يُقرب الفكرة هو أنّ الله تعالى أمر الناس بالطاعة المطلقة للأنبياء والأوصياء، قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (الحشر:٧) فطاعتهم من دون قيد، لا تحتاج إلى تأمل، لكونها الصواب، والآية الآنفة وحديث الثقلين –«أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين، قالوا يا رسول الله وما الثقلان؟ فقال: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[1] – فيهما دلالة مطلقة على وجوب الإتباع، لأنّ الكتاب والإمام معصومان، كل منهما يهدي إلى الآخر، لذا أوجب الله تعالى طاعتهما المطلقة.

الثاني: لا يشتبه ولا يخالف أمر الله تعالى.

إنّ الإمام عليه السلام لو أشتبه وأخطأ الطريق وأمر بخلاف ما يريده الله تعالى، لكان أمره يوجب مخالفة الله تعالى في حال خطئه، ومن المحال أن يأمر الله تعالى بالطاعة المطلقة للمعصوم، فيأمر المعصوم بخلاف ما يريده الله تعالى؛ لاستناد أمره إليه تعالى، وإذا أمر بخلاف الحق فقد أمر بإتباع الشيطان، ولو في حين، ولا يصدر ذلك من الحكيم.

الثالث: المعصوم له القدرة على إدراك الحقائق الإلهية.

هناك برهان يجلي لنا حقائق من جملتها أنّ الطاعة المطلقة تؤدي إلى السعادة في كل عوالم الوجود، ولا تختص بعالمنا المادي المحدود، الذي نسبته ضئيلة إلى عوالم الغيب التي سيئول إليها أمرنا، وهي الحياة الحقيقية للإنسان، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٦٤)، والسعادة في الدار الآخرة تتوقف على السير في صراط إلهي مخصوص، لا يتأتى إلاّ بوجود هادٍ من قبل الله تعالى وهو المعصوم الطاهر، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب:٣٣)، وقد بيّن الله تعالى ارتباط الكتاب به عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة:٧٩-٨٠)، أي أنّ حقيقة القرآن لا يصل إلى مغزاها، ولا يدرك غورها، ولا يعلم بحيثياتها المؤدية إلى السعادة إلاّ المعصوم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:٩) وذلك لكونه

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٣٧ ص١١٤.

تجسد في الرسول صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام ولن يفترقا، لذا لن يصل أحد إلى ما يريده الحق تعالى ويسعد في عوالم الغيب إلاّ بالكتاب والعترة.

الرابع: المعصوم منتخب من الله تعالى.

إنّ الروايات تفصح عن هذا المعنى، قال الإمام الصادق عليه السلام: ‹‹الإمام هو المنتجب المرتضى››[1] أي أنه انتخب من قبل الله تعالى ‹‹والهادي المنتجى›› أي يهدي إلى الصراط المستقيم المنجي، فيه نجاة كما جاء هذا المعنى في حديث السفينة ‹‹أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق››[2] من لا يركب يغرق ‹‹والقائم المترجى›› يقوم بأمر الله تعالى وقيوميته واستقامته لاصطفاء الله تعالى له.

اختيار الناس لا يحقق السعادة

إنّ اختيار الإنسان لا يشخص الأصلح، وقد أوضح ذلك القرآن عندما اختار موسى عليه السلام أربعين شخصاً من قومه للمناجاة، قال تعالى: ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ (النساء:١٥٣) رغم أنهم الأماثل غير أنهم ليسوا كذلك ومن ذلك نُدرك أن عقل الإنسان لا يصل إلى العلم بالأصلح.

الانتخاب الصحيح يرتبط بإدراك عوالم غيبية

يرتبط عالم المادة ارتباطاً وثيقاً بعوالم الغيب والحياة الأخرى التي لا زوال لها ولا اضمحلال، لذا كان الاصطفاء والاختيار من قبل الله تعالى، ‹‹اصطفاه الله تعالى بذلك واصطنعه على عينه في الذر حين ذرأه›› أي أنّ الإصطفاء في عالم الذر عالم الميثاق والأرواح قبل خلق العالم المادي، ولم يكن الاصطفاء مرتبطاً بعالم البرية حين برأه، أي: أن الاصطفاء تقدم على عالم المادة في عالم الوجود الظلي.

الخامس: تصرفات المعصوم حكيمة.

‹‹محبواً بالحكمة›› للمعصوم عليه السلام حكمة متقنة لا يخطأ في تصرفاته، لذا لا يقال في حقه لو فعل كذا لكان أجدى ولو اتخذ ذلك لكان أجدر؛ لأن تصرفاته عين الصواب لكونه محبواً بالحكمة في عالم الغيب، واختياره من الله تعالى لعلمه تعالى بأهليته لذلك كالرسل للرسالة قال تعالى: ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ

---

[1] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٤.

[2] – وسائل الالشيعة للحر العاملي ج٢٧ ص٣٤.

يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾(الأنعام:١٢٤)، والنزاهة والطهر للمعصومين يؤهلان للاصطفاء والاجتباء ‹‹وانتجبه لطهره، بقية من آدم عليه السلام وخيرة من ذرية نوح ومصطفى من إبراهيم وسلالة من إسماعيل وصفوة من عترة محمد صلى الله عليه وآله››

السادس: المعصوم محاط بلطف الله تعالى.

لقد أشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن ذلك لطف خاص للنبي صلى الله عليه وآله فقال: ‹‹ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم››[1] وذلك معنى قول الصادق عليه السلام: ‹‹لم يزل مرعياً بعين الله تعالى يحفظه ويكلؤه بستره››[2] فهو في حفظ خاص، لا يمكن للشياطين أن تُلبس عليه الأمور، أما غير المعصوم فقد تختلف الحقائق لديه، ويتغير رأيه لكون إدراكه غير تام، فيرى المصلحة في شيء ثم يتبين خلافه، وذلك مشاهد في العلماء والشخصيات الكبيرة يخطئون ويقرون بخطئهم، أما المعصوم فتشخيصه عين الصواب.

‹‹مطروداً عنه حبائل إبليس وجنوده›› لا يلبس عليه إبليس لكونه ‹‹مدفوعاً عنه وقوب الغواسق›› ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾(الفلق:٣) فلا يتخذ الشيطان إليه سبيلاً.

السابع: المعصوم يجسد الكمال.

لا يؤثر في المعصوم نفثٌ أو سحر، ولا يُسيطر عليه بقوىً غيبية إذْ لا يستطيع الشيطان أن يصل إليه ، والأنبياء والرسل كذلك، لذا نرد الأحاديث القائلة بأنّ النبي ص سُحر و أثّر السحر فيه قال تعالى: ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(يونس:٨١)، إن قدرة الحق تعالى يخضع لها كل شيء قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(البقرة:٢٠).

‹‹ونفوث كل فاسق، مصروفاً عنه قوارف السوء›› فهو مخلَص، لا يرتكب سوءً.

‹‹مبرءً من العاهات›› فلا عاهة في جسمه بل هو أكمل إنسان في خلقه، قال الشاعر في وصف النبي صلى الله عليه وآله : كأنك قد خلقت كما تشاء.

---

[1] – نهج البلاغة –خطب الإمام علي (ع)- ج٢ ص١٥٧.

[2] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٤.

لذلك يرغب الناس في الأكملين، ويميلون إليهم، لكونهم يجسدون الكمال ظاهراً وباطناً، والمعصوم عليه السلام مبرأ من العاهات، ليس بأعمى أو أصم أو أبكم، بل يتصف بالكمال فهو أشجع الناس وأكملهم وتتميز شخصيته منذ نعومة أظفاره عن الآخرين.

«محجوباً عن الآفات» أي لا تؤثر فيه آفة، فتفقده عقله، نعم هو بشر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (الكهف:١١٠) لكن الآفات التي تضر بمساره، وتنفر الناس عنه مبرأ هو منها، فيموت ويمرض غير أنه لا تؤثر آفة على عقله وفكره، يقتل بالسيف والسم، وفكره مصون، قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت:٤٢) فهو كالقرآن الكريم.

الثامن: المعصوم يجسد الاستقامة مدة عمره.

قال عليه السلام: «معصوماً من الزلات، مصوناً عن الفواحش كلها» لا يقترف المعصوم خطأ في حياته أبداً، وينظر الناس إليه أنه يُجسد الاستقامة من بدء حياته إلى نهايتها، ويرى لقاء الله تعالى فوزاً «فزت ورب الكعبة» بل يتمنى الموت «فوالله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل إلى محالب أمه»[1] لكون اتصاله الوثيق بالله تعالى في نهاية القوة والمتانة، لذا اختلف الأنبياء والرسل والأوصياء عن سائر الناس، فهم لا يغفلون عن الله تعالى طرفة عين، ويتذكرون الآخرة دائما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (ص:٤٦).

التاسع: المعصوم أكمل الخلق خُلقاً.

قال عليه السلام: «معروفاً بالحلم» الإمام عليه السلام حليم عفو، دائم الصفح والتجاوز، يعامل الناس بمكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤) ويطبق المعصوم ذلك بأعلى درجاته، لذا وصف الحق تعالى النبي صلى الله عليه وآله بالخلق العظيم ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، وإذا وصف الله تعالى شيئاً بالعظمة دلل ذلك على عظمته الواقعية لأنه إخبار عن الواقع.

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٢٩ ص١٤١.

قال عليه السلام: ‹‹والبر في يفاعه›› يعرف الناس المعصوم عليه السلام بالخير من نعومة أظفاره، لاتصافه بالسجايا الحميدة بأرقى ما يكون عليه الكمال الإنساني، فهو‹‹منسوباً إلى العفاف والعلم والفضل عند انتهائه››.

العاشر: المعصوم مستحضر المعارف.

للمعصوم عليه السلام دراية بالمعارف، فلا يُسأل فيعي عن جوابٍ لإحاطته بالمعارف الغيبية، واستحضاره لها، قال عليه السلام: ‹‹سلوني قبل أن تفقدوني››[1] إنّ الله تعالى يمده بالعلم من عنده ولا يستند إلى ذاته فيستقل عن الله ، قال الإمام الصادق عليه السلام: ‹‹إنا نُزاد في الليل والنهار ولولا أنا نُزاد لنفد ما عندنا››[2] فعلمه عليه السلام عطاء من الله تعالى، قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص:٣٩).

القسم الرابع: ميزات المعصوم العلمية.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٣) صدق الله العلي العظيم.

سعة علم الإمام

للمعصوم عليه السلام إحاطة علمية كبيرة يستمدها من الله تعالى، ولهذا يختلف علمه عليه السلام عن العلم الكسبي الذي يتلقاه الناس، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف:٦٥) أي أنه يرتبط بتعليم إلهي خاص، فعلمه وطهارته بالنحو المتقدم الذي أوضحناه، يتيحان له الإطلاع الواسع على كل ما يتعلق بحيثيات الأشياء جملة وتفصيلاً، ومنها الذنب بكل ما يتعلق به في عمود الزمن فيُدرك عليه السلام جميع ما يرتبط به من حيثيات.

١- نهج البلاغة –خطب الإمام علي (ع)- ج٢ ص١٣٠.

٢- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص٥٤.

علم الإمام عليه السلام في الراويات الشريفة

لقد جاءت الروايات موضحة وشارحة لهذا المعنى وأكدت على ارتباط عالمي التكوين والتشريع بالمعنيين المتقدمين.

وأفصحت موضحة بعض الحيثيات المتعلقة بهذا الأمر الذي يحتاج إلى تأصيل عقدي لنصل إلى غوره وندرك مغزاه بالإطلاع على الأدلة الموضحة له.

مقام المرجعية لأهل البيت (ع)

قال الإمام الصادق عليه السلام: ‹‹إنّ الله عز وجل أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا عن دينه››[1] أي أن المرء لا يستطيع معرفة حقائق الدين إلاّ بواسطة الهداة عليهم السلام، والقول بأنّ القرآن لا يحتاج إلى بيان مردود، ذلك أنّ مسائل كثيرة تحير فيها العلماء، ولم يستطيعوا الوصول إليها في القضاء والأحكام الشرعية، حتى قال بعضٌ: "لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن"[2] إشارة إلى هذا المعنى. أما المعصوم فيحيط علماً بحيثيات المسائل الشرعية بعلمه اللدني واطلاعه التام الكامل على آي القرآن، ومعرفته بما ينطبق من الآيات على المسائل.

دقة منهجية المعصوم

‹‹وأبلج بهم عن سبيل منهاجه››[3] يعرف المعصوم عليه السلام المناهج التطبيقية التي توصل إلى الغاية والمنتهى لكل مجتمع وفئة وشخص، فمن أراد أن يصل إلى الغايات، عليه أن يطبق ما يقوله المعصوم عليه السلام لاتصافه بالإتقان والإحكام والوضوح.

إحاطة المعصوم بجميع الشرائع

‹‹وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه››[4] علم المعصوم عليه السلام لدنّي، يكشف حقائق الأشياء ويبين الصواب، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف:٦٥) فهو عليه السلام يعلم بكل ما أنزله الله

---

[1] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

[2] – بحار الأنوار ج١٠٩ ص٣٦.

[3] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

[4] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

تعالى من شرائع سماوية لكونها حقيقة واحدة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران:١٩) غير أنّ الشريعة الإسلامية هي الأكمل، وشواهد إحاطة المعصوم عليه السلام بالوحي المنزل من السماء كثيرة ، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ‹‹أما والله لو ثنيت لي الوسادة لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيليهم وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل القرآن بقرآنهم››[١] أي أنّ المناهج التي جاءت من السماء يعلم بها تفصيلاً.

كيف ندرك معنى العصمة

‹‹فمن عرف من أمة محمد صلى الله عليه وآله واجب حق إمامه وجد طعم حلاوة إيمانه››[٢] أي أن من وصل إلى الفهم العميق للإمامة وجد طعم حلاوة الإيمان، ويحتاج ذلك إلى تزكية وعبادة، فإذا زكى المرءُ نفسه وفق للهداية وأدرك معنى الإمامة.

قال عليه السلام: ‹‹وعلم فضل طلاوة إسلامه››[٣] أي يعلم أنّ الإسلام هو الأكمل الأتم لارتباطه بالنبي صلى الله عليه وآله وبأهل البيت عليهم السلام.

قال عليه السلام: ‹‹لأنّ الله تبارك وتعالى نصب الإمامة علماً لخلقه››[٤] فمن أراد أن يهتدي عليه أن يقتدي بأهل البيت عليهم السلام، فهم معالم التوحيد وموضحوا رؤى ومفاهيم القرآن الكريم.

المعصوم منبع اليقين

‹‹علماً لخلقه وجعله حجة على أهل مواده وعالمه››[٥] كثيرٌ من الأشياء تحتاج إلى إيضاح وبيان ليصل المكلف إلى اليقين ولا يتم ذلك إلاّ بواسطة المعصوم عليه السلام، وقد اتضح هذا في محاورات الإمام الرضا عليه السلام وغيره من الأئمة عليهم السلام مع علماء العامة عندما احتج بعضهم بروايات بينت أنّ الله تعالى يُرى بالعين المجردة، فأجاب عليه السلام بأنها مكذوبة على رسول الله، لمعارضتها القرآن قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٠٣).

١- الأمالي للطوسي ص٥٢٣.

٢- الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

٣- الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

٤- الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

٥- الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

نورانية المعصوم

قال عليه السلام: ‹‹وألبسه الله تاج الوقار وغشاه من نور الجبار›› للإمام عليه السلام نورانية خاصة، ووقار يفرض نفسه، لذا عندما كان الإمام زين العابدين عليه السلام يطوف بالبيت انفرج له الناس وعندما سُئل هشام عنه قال: لا أعرفه فجاءه جواب الفرزدق ليظهر ذلك الوقار الخاص والهيبة بتأييد من الله يختلف به عليه السلام عن سائر الخلق.

اتصال المعصوم بالسماء

إن الإمام عليه السلام إذا نُظر له يُرى النور الإلهي الذي يغُشيه فهو عليه السلام ‹‹يمد بسبب إلى السماء لا ينقطع عنه مواده››[1] أي: له اتصال وثيق لكونه همزة وصل بين الأرض والسماء وله إلهام خاص من قبل الله تعالى، وليس هو الوحي الذي أنزل على الأنبياء فوحي النبوة ختم بمحمد ص، لكنه درجة عالية من الإلهام.

ذلك أنّ الوحي يطلق ويراد به الإعلام بخفاء كوحي الله تعالى للنحل ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(النحل:٦٨) ووحيه تعالى لأم موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾(القصص:٧) فالوحي إخبار بنحو خفي وسريع لا يطلّع عليه الناس، والقول: بأنّ المعصوم ملهم يراد به وجود إفاضة خاصة وعلم لدني يختلف به عليه السلام عن سائر الخلق، ودرجة الإلهام عنده عليه السلام هي الأتم لقربه من الله وانقطاعه إليه قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق:١٦) للناس نحو من الإلهام يهديهم إلى الرشد إذا توجهوا إلى الله تعالى، بل حتى لمن أعرض عنه تعالى، وكان الإلهام مصلحة له فإن الله تعالى سيلهمه؛ أي: سيكون له جزء بسيط من الاتصال بالغيب، إلا أنّ اتصال المعصوم أتم وأكمل يرى به ع الأمور بوضوح تام، وقد أشارت الروايات إلى ذلك بل أنّ الوضوح للمعصوم من آل محمد ص أكمل وأعظم مما لدى الأنبياء والرسل؛ لأنّ الشريعة الإسلامية أكمل وأتم من الشرائع السماوية الأخرى، وقد أعطى الله تعالى المعصومين ع ذلك بسبب متصل به تعالى قال عليه السلام: ‹‹لا ينقطع عنه مواده››[2].

---

[1] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

[2] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

المعصوم همزة الوصل بين الأرض والسماء

قال عليه السلام: ‹‹ولا ينال ما عند الله إلاّ بجهة أسبابه››[1] تبيان بأن الله يريد أن يصل إليه الخلق، بطرق مرتضاة منه، والأدلاء على تلكم الطرق هم الأنبياء والأوصياء، أما غيرهم فدلالته غير تامة. لذا كان المعصوم عليه السلام السبب المتصل بين الأرض والسماء، ومن اتصل به عليه السلام بلغ الرتب العظيمة لإطلاعه التام على آي القرآن الكريم، ولا يُنال ما عند الله تعالى إلاّ بجهة أسبابه، ومحمد وآله هم الطرق الموصلة إلى الله، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣) والقرآن الكريم والعترة هما صراط الحق، كما بيّن ذلك النبي صلى الله عليه وآله.

بالمعصوم ع تقبل الأعمال

قال عليه السلام: ‹‹ولا يقبل الله أعمال العباد إلاّ بمعرفته››[2] للحديث المتفق عليه أن ‹‹من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية››[3] أي: كأنه لم يسلم، والإمام ليس هو من يتولى السلطة التنفيذية فحسب كرئيس الجمهورية لأن الأمر ليس بهذا النحو، بل لأنه يرتبط بمنهاج يوصل الخلق إلى الحق لا يقبل الله تعالى أفعال العباد إلاّ بمعرفته ‹‹فهو عالم بما يرد عليه من ملتبسات الدجى ومعميات السنن ومشتبهات الفتن››[4] يوضح الإشكالية بعلم ناصع ووضوح تام، وقد حدثنا التاريخ بأن من أتى الأئمة عليهم السلام وجد الأمور بينة بينما تحير العلماء في مسائل كثيرة كقطع يد السارق وميراث من غرق في البحر وفهم حقيقة التوحيد وتفسير الأمر بين الأمرين ومعاني آي القرآن، فبيّن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام اللبس إذْ عجز غيرهم عليهم السلام عن الوصول إلى الفهم السليم.

تعيين المعصوم لا يتم بانتخاب الناس

الإمام عليه السلام ‹‹عالم بما يرد عليه من ملتبسات الدجى ومعميات السنن، ومشتبهات الفتن››[5] لكونه عليه السلام أعلم الناس بالمناهج والطرق الموصلة إلى الله تعالى، فلا يلتبس عليه حكم ولا

---

[1] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣

[2] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣

[3] – بحار الأنوار للمجلسي ج٥١ص١٦٠

[4] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣

[5] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣

يدخل في فتنة اشتباهاً ولا تُعمّى عليه سنة لتأييد الله تعالى له لذا لا يُشخص بالانتخاب، لكونه يختص بإدارة شؤون الناس أما الأحكام الدينية والمناهج الموصلة إلى الله تعالى فلا دخل للانتخاب فيها، وقد شجب القرآن الكريم ذلك وأوضح أنه لا يوصل إلى الله تعالى، ولا نستطيع بالانتخاب أن نشخص الأصلح للنبوة، كما تصور ذلك بعض العرب، إما لكثرة الأموال والأولاد أو لموهبة خاصة كالقدرة على البيان التي كانت للوليد، لأن المسألة لا ترجع إلى ذلك لكونها غيبية مرتبطة بكل حيثيات عالم الوجود، قال عليه السلام: ‹‹فلم يزل الله تبارك وتعالى يختارهم لخلقه من ولد الحسين عليه السلام من عقب كل إمام يصطفيهم ويجتبيهم ويرضى بهم لخلقه ويرتضيهم، كلما مضى منهم إمام نصب لخلقه من ولد ذلك الإمام إماماً›› ولا يتوهمن أحد أنها بالوراثة بل بالاصطفاء كما كان ذلك في ذرية إبراهيم عليه السلام.

العصمة لا تورث

‹‹علماً بيناً وهادياً نيراً وإماماً قيما وحجة عالماً››[1] الإمام عليه السلام هو الهادي بعلمه والحجة بقيموميته على الخلق لذا لا تورث الإمامة، وإذا استشهد إمام أو مات في سبيل الله، لا ينقطع برنامجه بل يتولى من يخلفه الهداية إلى الله تعالى، لكونه مصطفىً ومجتبىً من عنده تعالى ‹‹أئمة من الله يهدون بالحق وبه يعدلون حجج الله ودعاته ورعاته على خلقه يدين بهديهم العباد››[2] أي: أن من أراد الله بدأ بهم ومن وحده قبل عنهم، ‹‹وتستهل بنورهم البلاد››[3] أي: تصبح مشرقة قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾(الزمر:٦٩) وقد أشارت الروايات بأن الإمام المهدي عليه السلام إذا خرج رأى الناس الطلعة البهية وأشرق بوجوده المعنوي على الخلق فيوضح السبل، ويرى الناس سعة عدل الله تعالى، ويتاح لهم أن يصلوا إلى ما يطمحون معنوياً ومادياً بسهولة ويسر ‹‹وينمو ببركتهم التلاد››[4] يتحقق على يديه الخير على جميع الأصعدة، نعم؛ لن يزول قانون الابتلاء غير أن الناس إذا ساروا على منهجه تحقق معنى والعاقبة للمتقين، وعُلم بأنه أكمل المناهج، في الاقتصاد والسياسة، والقانون؛ لأنه خليفة الحق تعالى.

منهاج المعصوم حياة للناس

---

[1] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

[2] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

[3] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

[4] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣.

الأوصياء عليهم السلام هداة الناس إلى الرشد والخير والبركة؛ لأن الله تعالى ‹‹جعلهم حياة للأنام››[1] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال:٢٤) وترتبط الحياة بالجانب المعنوي وليس بالمادي فحسب لذا قد يكون الإنسان حياً ماديا لكنه ميت لظلمته، قال تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ (الأنعام:١٢٢) قال عليه السلام ‹‹جعلهم الله تعالى حياة للأنام ومصابيح للظلام ومفاتيح للكلام، ودعائم للإسلام››[2] كلماتهم طيبة تهدي إلى الرشد، وتوصل إلى الخير، وهي النور ‹‹كلامكم نور››[3] ‹‹جرت بذلك فيهم مقادير الله على محتومها››[4] أي: أنه أمر حُسم، فلا يقال بأنه لو غُير لتغير بل – ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن – فلا يتغير ما يريده الله تعالى، لما نريده نحن كما تصور ذلك بعض العامة، فإن إرادة الله تعالى هي النافذة لذا قال ع بأنه أمر محتوم غير قابل للتغيير والإزالة؛ فإن إرادتنا حتى إذا لم تتفق مع إرادة الله تعالى فلن يتغير شيئٌ، والروايات توصل لما أوضحناه بنحو بيّن وتام.

القسم الخامس: الرتبة العلمية لأهل البيت عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (يونس:٣٥) صدق الله العلي العظيم.

سعة علم المعصوم عليه السلام

للمعصوم عليه السلام علم لدني وعصمة خاصة يختلف بها عن بقية الناس، لاجتبائه واصطفائه واستخلاصه من الله تعالى، وهو من المخلَصين الذين استخلصهم الله، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف:٦٥) لذا لا يعي في الجواب، بل يجيب مباشرة، وقد اشتهر عن مولانا أمير المؤمنين عليه

---

[1] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣

[2] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣

[3] – مستدرك الوسائل ح١٠ ص٤٢٠

[4] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٣

السلام: ‹‹سلوني قبل أن تفقدوني››[1] وليس ذلك خصيصة له عليه السلام بل هي ميزة لكل معصوم لا يقف في الإجابة بل يجيب بنحو دقيق ومفصل، وهناك أدلة مؤصلة لذلك لمن يعتمد الأدلة النقلية فحسب، ولا يؤمن إلاّ بالدليل النقلي الدال على المعتقد، أما إذا أستند الرأي إلى عالم أو فيلسوف دون تأييد من الروايات لم يؤمن به.

الأدلة على سعة علوم أهل البيت عليهم السلام

دلت الروايات بوضوح على صحة هذا المعتقد وتأصيله، ورغم أننا لا نحتاج إلى تأصيل كل مسألة بالروايات، غير أن سعة علم المعصوم دل عليها العقل والنقل، فقد أفصحت الروايات عن ثبوت ذلك للأئمة عليهم السلام، وبيّنت أنّ لهم علم واسع وإطلاع على حقائق الأشياء، وأنّ ذلك خصيصة وامتياز أفاضه الله تعالى عليهم، وليس ذلك قولاً للعلماء فحسب، بل امتياز أكدته الروايات.

سنستعرض بعضاً منها موضحين الحيثيات التي تشتمل عليها.

الأول: الله تعالى أطلعهم على علمه.

قال الإمام الباقر عليه السلام: ‹‹إنّ لله علماً خاصاً وعلماً عاماً فأما العلم الخاص فالعلم الذي لم يُطلع عليه ملائكته المقربين وأنبياءه المرسلين›› أي: أنّ له تعالى علم خاص به وحده، لم يطلع عليه الأنبياء والأوصياء والملائكة، ‹‹وأما علمه العام فإنه علمه الذي أطلع عليه ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين وقد وقع إلينا من رسول الله صلى الله عليه وآله››[2] بيّن الإمام الباقر عليه السلام وجود علمين لله تعالى: أحدهما يختص به لذاته، والآخر عام يعطيه الأنبياء والرسل والأوصياء.

الثاني: أهل البيت عليهم السلام ورثة علم الأنبياء.

إن الأوصياء ورثة الأنبياء، نقرأ في زيارة وارث ‹‹السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وراث نوح نبي الله، السلام عليك يا وراث موسى كليم الله السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله››[3] .

---

[1] – وسائل الشيعة للحر العاملي ج١٥ ص١٢٨.

[2] – بحار الأنوار للمجلسي ج٤ ص٨٥.

[3] – مستدرك الوسائل للنوري ج١٠ ص٣٠٠.

الثالث: علم أهل البيت عليهم السلام يفوق علم الأنبياء

قال الإمام الكاظم عليه السلام: ‹‹قد والله أوتينا ما أوتي سليمان، وما لم يؤتَ سليمان››[1] بيّن ع سعة علم أهل البيت عليهم السلام، وأنّ سعة علمهم لم يصل إليها بعض الأنبياء كسليمان عليه السلام، رغم أنّ الله تعالى سخر له الريح ينقل جنوده من مكان إلى آخر على بساطها، ويتصرف في الهواء بأمره بإذن الله تعالى، إنه من أنبياء الله العظام، آتاه الله ملكاً لم يُؤته أحداً من بعده، غير أن علم أهل البيت عليهم السلام أعظم؛ لأنهم أوصياء النبي محمد صلى الله عليه وآله وهو أعظم وأعلم من نبي الله سليمان عليه السلام؛ أي: أن رتبته صلى الله عليه وآله أعلى.

الرابع: الأئمة نفس النبي صلى الله عليه وآله.

بيّن القرآن الكريم أن لهم رتبته صلى الله عليه وآله قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران:٦١) الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو نفس النبي صلى الله عليه وآله، بمنطوق آية المباهلة، ولا أحد في رتبته صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين والأئمة من ولده عليهم السلام لهم هذه الرتبة؛ وقد فهم الفخر الرازي هذا المعنى في حق عليٍ عليه السلام من آية المباهلة.

ثم قال الإمام الكاظم عليه السلام: ‹‹قال الله تعالى في قصة سليمان ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص:٣٦) وقال عز وجل في قصة محمد صلى الله عليه وآله ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:٧)››[2] تبيان بأنّ مقام المصطفى صلى الله عليه وآله أعظم من مقام سليمان عليه السلام وخلفاؤه صلى الله عليه وآله في رتبته صلى الله عليه وآله قال أمير المؤمنين عليه السلام: ‹‹ألا إنّ العلم الذي هبط به آدم من السماء إلى الأرض وجميع ما فُضلت به النبيون إلى خاتم النبيين في عترة خاتم النبيين››[3] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣١) وتعلم آدم عليه السلام الأسماء له معنى

١- بحار الأنوار للمجلسي ج١٤ ص٨٦.

٢- بحار الأنوار للمجلسي ج١٤ ص٦٨.

٣- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص١٦٠.

أعمق من معرفة الألفاظ يُراد به رتبة وجودية له عليه السلام وليست لغيره من المخلوقات، هبط عليه السلام من السماء بهذه الرتبة، وعلمه وجميع علم النبيين الذي به فضلهم الله ورثه الأئمة عليهم السلام.

الخامس: اختصاص أهل البيت عليهم السلام بمقام المرجعية

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ‹‹سلوني قبل أن تفقدوني›› وقد رجع الناس إليه في الأمور ولم نجده عليه السلام رجع إلى غيره في مسألة، حتى قال بعضهم: ‹‹لا أبقاني الله لمعضلة لم يكن لها أبو الحسن››[1] فكان عليه السلام الأعلم الأفضل، ورتبته لم تكن لغيره.

قال الإمام الصادق عليه السلام: ‹‹إنّ لله علمين: علماً عنده لم يطلع عليه أحداً من خلقه، وعلماً نبذه إلى ملائكته ورسله، فما نبذه إلى ملائكته ورسله فقد انتهى إلينا››[2] أي أن العلم الذي أعطاه الله تعالى الملائكة والرسل ورثه آل محمد صلى الله عليه وآله.

خصائص علوم أهل البيت عليهم السلام

قال الإمام الباقر عليه السلام: ‹‹نحن خزنة علم الله››[3] أي: أطلعنا الله تعالى على علم لم يطلع الناس عليه.

الأول: هم الحجة في ظهورهم وفي غيبتهم بسعة علمهم.

قال علي عليه السلام في نهج البلاغة: ‹‹اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً›› أي: أن المعصوم تارة يتعامل مع الناس ظاهراً لهم، وأخرى يغيب خائفاً؛ كموسى عليه السلام عندما ذهب إلى مدين، وخوفه ليس على نفسه، بل على أمته، يخاف على المشروع الإلهي أن يوئد لأن الأنبياء والأوصياء هم أشجع الناس، فلا يخافون على أنفسهم، بل خوفهم على المشروع الإلهي، لقد خرج النبي ص من مكة خائفاً على مشروعه، ولم يخف إلا من الله تعالى، والأوصياء كذلك، إن موسى عليه السلام خاف كمحمد صلى الله عليه وآله عندما خرج من مكة خائفاً، وخوفهما على المشروع الإلهي، أي: أن موسى عليه السلام خاف على بني إسرائيل أن لا يصلوا إلى الله تعالى، ولم يخف على نفسه، لأنّ مقام الأنبياء، مقام الأنس بالموت، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : ‹‹لابن أبي

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٤٠ ص٢٢٧.

[2] – الكافي للكليني ج١ ص٢٥٥.

[3] – إعلام الورى بأعلام الهدى – الشيخ الطبرسي ج١ ص٥٠٨

طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه»[1] قال عليه السلام: «أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته وكم ذا وأين أولئك» يصف الإمام عليه السلام عظمة أهل البيت عليهم السلام، بأنهم. «أولئك والله الأقلون عدداً والأعظمون قدراً يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم» أي: أن الله تعالى يحفظ بهم الدين، وإذا انتقل الإمام إلى ربه خلفه إمام معصوم.

الثاني: لا مبهمات في علوم أهل البيت عليهم السلام

قوله عليه السلام: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة» أي: أنهم يرون ببصيرتهم حقائق الأشياء دون غطش ولا إبهام، ورأيهم محض الصواب.

الثالث: علوم أهل البيت عليهم السلام في أعلى درجات اليقين

قال عليه السلام: «وباشروا روح اليقين» إشارة إلى الآية، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:٢٤) فهم عليهم السلام في أعلى درجات اليقين.

الرابع: علومهم عليهم السلام غير قابلة للتغير والتبديل

«واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه»[2] لا يتصف بهذه الأوصاف غير المعصوم عليه السلام أي لا يصل إلى هذه الرتبة السنية إلا الأئمة عليهم السلام، ولا يقال إن ذلك غلو لأنهم عليهم السلام ورثوا الأنبياء السابقين الذين يعرفون كل اللغات حتى لغات الحيوانات؛ لذا تحدث سليمان عليه السلام مع الهدهد والنمل.

الخامس: علومهم عليهم السلام لدنّية وليست كسبية

إن الرسل والأنبياء والأوصياء لهم منحة من عند الله يختلفون بها عن الناس، حيث إن علم الناس كسبي، يتعلمون من الأستاذ، وتتغير آراؤهم لتغير علمهم، ولا يحدث ذلك للرسل والأنبياء والأوصياء، وشاهد ذلك أن بريهة عالم نصراني، جاء إلى هشام بن الحكم، وطلب أن يوصله إلى الإمام الصادق عليه السلام كي يتعرف على بعض الأمور، والتقيا في الطريق بالإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، فأخبر هشام

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٢٨ ص ٢٣٤.

[2] – نهج البلاغة – خطب الإمام علي (ع)- ج٤ ص٣٧.

الإمام عليه السلام عن بريهة، بأنه عالم نصراني له مسائل، وأراد الإمام عليه السلام أن يقربه إلى الإسلام، فقال له: "يا بريهة كيف علمك بكتابك – الإنجيل –؟ قال بريهة: أنا به عالم، فقال الإمام عليه السلام: فكيف ثقتك بتأويله؟ تأويله تفسيره، أي كشف القناع عنه، قال بريهة: ما أوثقني بعلمه، فابتدأ الإمام عليه السلام يقرأ الإنجيل بالأرامية التي أنزلت على عيسى عليه السلام، كما أنزل على عيسى، ولما سمع بريهة آيات الإنجيل تتلى كما أنزلت على عيسى عليه السلام، قال: إياك كنت أطلب منذ خمسين سنة، أي أبحث عن عالم يعرف الحقائق، ثم آمن بريهة[1].

اختصر الإمام عليه السلام الطريق لبريهة بتلاوة الإنجيل كما أنزل على عيسى عليه السلام، ويدلل هذا على وراثة واجتباء واستخلاص من عند الله تعالى، لذا جلس العلماء من اليهود والنصارى والمسلمين متواضعين للمعصوم عليه السلام، لعلو رتبته العلمية.

القسم السادس: منابع علوم المعصوم.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس:٣٥) صدق الله العلي العظيم.

حاجة الهداية لسعة العلم

﴿أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ ركّز القرآن الكريم على الهداية لأهميتها من ناحية ولتبيان مقام الهادي من ناحية أخرى، وأنّ من يتولى الهداية يختلف في ســـعة علمه، وقدراته، وتأييد الله تعالى له عن غيره.

سعة علوم أهل البيت عليهم السلام

---

[1]- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص١٨٠، عن هشام بن الحكم في حديث بريهة النصراني أنه جاء مع هشام حتى لقي موسى بن جعفر عليهما السلام فقال : (يا بريهة كيف علمك بكتابك ؟ قال : أنا عالم ، قال كيف ثقتك بتأويله ؟ قال : ما أوثقني بعلمي فيه ؟ قال : فابتدأني موسى بقراءة الإنجيل فقال بريهة : والمسيح لقد كان يقرأها هكذا ، وما قرأ هذه القراءة إلا المسيح ، ثم قال بريهة : إياك لقد كنت أطلب منذ خمسين سنة فأسلم على يديه).

وقد أشرنا فيما سبق إلى أنهم عليهم السلام أكدوا هذا المعنى، مبينين سعة علمهم، واختلافهم عن غيرهم ومعرفتهم بدقائق القرآن الكريم، وأن الله تعالى لم يطلع بعض الأنبياء كسليمان عليه السلام على ما أطلعهم عليه.

الإلهام

وقد أصلت الروايات منابع علومهم ومعارفهم، على أنحاء منها:

الإلهام، وهو أن يطلعهم الله تعالى على حيثيات المسائل، ويوصلهم إلى فهم غورها.

تحدثت طائفة من الروايات عن هذا المعنى، وبينت طائفة أخرى سعة إطلاعهم وعمق فهمهم القرآن الكريم قائلة إنه لم يتح لأحد من الناس أن يصل إلى فهم معاني القرآن كذلك، وأن هذا ليس ادعاءً فحسب، بل أكدته روايات كثيرة عنهم عليهم السلام.

إدراك الإمام عليه السلام الحقائق القرآنية

منها: ما جاء في تفسر قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾(يس:١٢) أنّ النبي صلى الله عليه وآله بيّن مصداقه الذي أحصى الله كل شيء فيه، وهو علي عليه السلام.

نعتقد أن القرآن الكريم تبيان لكل شيء، غير أنّ من يعي مضامينه ويعرف حقائقه هو المعصوم، أما غيره فيعرف ظواهره فقط، ولا يمكنه أن يصل إلى فهم المعاني العميقة للقرآن الكريم.

إذن هناك إطلاع واسع ومعرفة تامة بجميع بواطن وحقائق القرآن الكريم للمعصوم.

الإمام عليه السلام مدينة العلم

إنّ الله تعالى أعطى النبي صلى الله عليه وآله رتبة وجودية لا نفهمها، وأعطاها صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام، قال عليه السلام: ((علمني -رسول الله- ألف باب من العلم فتح لي كل باب ألفَ باب))[١] وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وآله: ((يا علي أنا مدينة العلم، وأنت بابها))[٢] ومن أراد أن يلج هذه المدينة من المعارف لابد أن يدخل من بابها، وهو علي وأبناؤه البررة عليهم السلام.

١- الإرشاد للمفيد ج١ ص٣٤.

٢- الأمالي للصدوق ص٦٥٥.

تأصيل سعة علم المعصوم عليه السلام

أوضحت الروايات التي أصلت منابع علم المعصوم أنه لا يُسأل فيعيَ في الإجابة، ودلت على سعة علمهم، وقد رواها بعض علماء العامة، كالحافظ القندوزي في ينابيع المودة، وما رواه مضمونه نفس المحتوى الذي يقول به أتباع أهل البيت عليهم السلام.

هيمنة النبي صلى الله عليه وآله على جميع الكتب السماوية

من تلكم الروايات ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في أصول الكافي للكليني رحمه الله، قال: قال الإمام عليه السلام لأبي بصير: {يا أبا محمد إن الله عز وجل لم يعط الأنبياء شيئاً إلا وقد أعطاه محمداً صلى الله عليه وآله}[1] أي أنّ كل ما أعطاه الأنبياء أعطاه النبي صلى الله عليه وآله لهيمنته بالقرآن على جميع كتب الأنبياء والرسل، ثم قال عليه السلام: ‹‹وعندنا الصحف التي قال الله عز وجل: (صحف إبراهيم وموسى)، قلت: جعلت فداك، هي الألواح؟ قال: نعم››.

العبودية المطلقة للمعصوم عليه السلام

قال الإمام الرضا عليه السلام: ‹‹وإن العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده، شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً، فلم يعيَ بعده بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيد، موفق مسدد، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار، يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده، وشاهده على خلقه، و ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٢١)››[2].

بدأ الإمام عليه السلام بمقام العبودية التامة –مقام لا يعصون الله تعالى ما أمرهم– للإشارة إلى أنّ المعصوم لم يصل هذه الرتبة إلا لعبوديته التامة والمطلقة، وهي مقدمة على مقام العصمة، وقد ذكرنا بأنّ هذا المقام مقدم على رتبة الرسالة، لذا نشهد لمحمد صلى الله عليه وآله بالعبودية، قبل شهادتنا له بالرسالة، لأنّ مقام عبوديته أرفع من مقام رسالته، والمعصوم كذلك، إنّ أعظم رتبة للإنسان هي العبودية المطلقة لله تعالى، وليس هناك من هو أعبد من رسول الله صلى الله عليه وآله.

إيداع العلم في قلب المعصوم عليه السلام

---

[1] – شرح أصول الكافي للمازندراني ج٥ ص٣٠٦.

[2] – الكافي للكليني ج١ ص٢٠٢-٢٠٣.

«إذا اختاره الله عز وجل .... شـــرح صـــدره لذلك، وأودع قلبه» أي أنّ الله تعالى يودع قلب المعصـــوم ينابيع الحكمة، ويلهمه، والرواية تؤكد ذلك، لذا لا يعي بجواب، لأن الله تعالى شـــرح صـــدره وأعطاه الدرجة العالية من الإلهام، فلا يحير في جواب ولا يحيد عن الصـــواب، فهو مؤيد موفق «أمن من الخطايا والزلل والعثار، يخصـه الله بذلك» أي يجعل ذلك خصـيصـة له دون الخلق، «ليكون حجته على عباده وشاهده على خلقه، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٢١)» والرواية واضحة.

أقسام علوم المعصوم عليه السلام

قال الإمام الكاظم عليه الســـلام: «مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه: ماض وغابر وحادث فأما الماضـي فمفسـر، وأما الغابر فمزبور وأما الحادث فقذف في القلوب، ونقر في الأسماع وهو أفضـل علمنا ولا نبي بعد نبينا»[1].

علمهم عليه السلام على ثلاثة أقسام:

الأول: النقر في الأسماع.

أعظم العلم هو النقر في الأسماع والقذف في القلوب، أي أنّ الله تعالى يفيض عليهم ومضات في قلوبهم، ونقراً في أسماعهم يسمعون به حقائق الأشياء.

قد يتصور بعضٌ أن ذلك وحي خاص بالأنبياء، لذا نفى الإمام عليه السلام ذلك، قائلاً: «ولا نبي بعد نبينا» أي ليس هناك نبوة، أما الإلهام كوحي فقد كان لأم موسـى، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (القصص:٧)، ولا يقترن بالنبوة دائماً، والأمر واضح لأنه لا نبي بعد المصطفى صلى الله عليه وآله.

قال الإمام الباقر عليه الســـلام: «إن من علم ما أوتينا تفســـير القرآن وأحكامه»[2] إنهم عليهم الســـلام يعلمون بحقيقة ما يريده الله تعالى في القرآن، وتفســـيرهم عليهم الســـلام له يختلف عن تفســـير غيرهم لأنه تبيان لما يريده الحق تعالى.

---

[1] – الكافي للكليني ج١ ص٢٦٤.

[2] – الكافي للكليني ج١ ص٢٢٩.

الثاني: الأحكام.

ثم قال عليه السلام: ‹‹والأحكام›› أي التي يريدها الله تعالى بمعنى أنّ تطبيق جميع الأحكام الإلهية على موضوعاتها من اختصاصهم عليهم السلام.

الثالث: علم المتغيرات.

ثم قال عليه السلام: ‹‹وعلم تغيير الزمان وحدثانه›› أي أنّ المعصوم عليه السلام يعلم بالحوادث التي تجري بتأييد من الله تعالى، لذا كان عيسى عليه السلام ينبئ بني إسرائيل بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ولذلك تأثير على الناس، فهم أسرع انقياداً للمعصوم عليه السلام إذا علموا بهذه الرتبة من العلم له.

الحاجة لعلوم المتغيرات

وقد يورد بعض بعدم حاجة المعصوم عليه السلام لعلم تغيير الزمان وحدثانه، ويلبس على الناس.

من هنا يحتاج من أراد فهم هذه المعاني إلى تزكية ذلك أنّ كثيراً من المعاني لا تستقر في القلب إلاّ بترك الذنوب والوصول إلى درجة من تقوى الله تعالى، فيعي من تزكى المعارف، أما من يذنب ويظلم الناس، فيحجبه الله تعالى عن فهمها، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾(البقرة:٢٨٢).

العلاقة بين المعارف العقدية والتقوى

هناك ارتباط وثيق بين المعارف العقدية وتقوى الله تعالى وطهارة النفس وتزكيتها، لذا قال الإمام الباقر عليه السلام: ‹‹إذا أراد الله بقوم خيراً أسمعهم›› أي من يرد الله تعالى تأييده يوصله إلى هذه الحقائق، أما من أعرض عنه تعالى، فإنه حتى إذا سمع سيولي معرضاً كأن لم يسمع، وهذه حقيقة إذْ أنّ هناك من يسمع آيات القرآن والأحاديث عن المعصومين لكنه يكذب بها ويرد عليها، قال الإمام عليه السلام: ‹‹ولو أسمع من لم يسمع لولى معرضاً كأن لم يسمع››.

الأهلية والقابلية لعلوم أهل البيت عليهم السلام

ثم أمسك عليه السلام هنيئة وقال: ‹‹ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا، والله المستعان›› لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى هذه الحقائق إلاّ بأهلية وقابلية، ولا تحصل إلاّ بتزكية، قال تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:٢).

القرآن جامع لكل شيء

أوضح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأنّ القرآن ‹‹فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة، وحكم ما بينكم وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون››[١] أي أنّ الأحكام التي يعمل بها الناس كلها موجودة في القرآن.

دور المعصوم في إيصال المعارف القرآنية

ثم قال عليه السلام: ‹‹فلو سألتموني عنه لعلمتكم›› إذْ أنه عليه السلام العارف بهذه الحقائق القادر على الإفصاح عنها وإيصالها إلى من له أهلية، أما غيره فإذا ذُكر بآية قال كأني أسمع بها أول مرة، والفرق شاسع وجوهري بينهما.

قال الإمام الصادق عليه السلام: ‹‹كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وفصل ما بينكم، ونحن نعلمه››[٢] أي أنّ من يعلم كتاب الله بهذه المعرفة الدقيقة هم الأئمة عليهم السلام، وقد بينوا بأنهم العارفون بكتاب الله تعالى فإما أن يكونوا قد كذبوا على الله تعالى، معاذ الله أو أنهم صادقون لأنّ النبي صلى الله عليه وآله أخبر بأنهم لن يفترقوا مع الكتاب في حديث الثقلين، فيتعين صدقهم الذي دللت عليه مواقفهم عندما تحدثوا عن معاني القرآن الكريم.

قال موسى بن جعفر عليهما السلام عندما سأله أحد الرواة: أكل شيء في كتاب الله وسنة نبيه؟ أي هل كل شيء موجود في الكتاب والسنة؟ ويراد بالسنة هنا الأحاديث المعتبرة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله، وليس كل ما روي من الأحاديث لأنه صلى الله عليه وآله قال: ‹‹قد كثرت عليّ الكذابة››[٣].

١- الكافي للكليني ج١ ص٦١.

٢- الكافي للكليني ج١ ص٦١.

٣- الكافي للكليني ج١ ص٦٢.

أجاب الإمام عليه السلام عن السؤال: «بل كل شيء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله»[1] إلاّ أنّ من يحيط بهذه المعارف علماً هو من لا يفترق عن الكتاب، قال صلى الله عليه وآله: «أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين، قالوا يا رسول الله وما الثقلان؟ فقال: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[2].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، وما فيه حرف إلا وله حد، ولكل حد مطلع» ثم سأله سائل: ما يعني بقوله لها ظهر وبطن؟ فقال عليه السلام: «ظهره وبطنه تأويله» أي أنّ المقصود بظهر وبطن القرآن تأويله وتفسيره، «منه ما مضى، ومنه ما لم يأتِ بعد، يجري كما يجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران:٧) نحن نعلمه»[3] أي نحن العالمين بحقائق القرآن الكريم، والروايات كثيرة في هذا المعنى، وما أوردناه كافٍ لتأصيله.

استغناء أهل البيت عليهم السلام عن علوم الناس

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس»[4] أي أنّ لديهم علوماً ومعارفَ لا يحتاجون إلى الناس، «وإن الناس ليحتاجون إلينا» أي يتحيرون فيرجعون إليهم عليهم السلام.

معارفهم من النبي صلى الله عليه وآله

ثم قال عليه السلام: «وإن عندنا كتاباً إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام، صحيفة فيها كل حلال وحرام، وإنكم لتأتون بالأمر فنعرف إذا أخذتم به، ونعرف إذا تركتموه» وقد صدّق الواقع ادعاؤهم عليهم السلام.

وأجاب الصادق عليه السلام عن مبلغ ميراث العلم الذي عندهم؟ أجوامع هو من العلم؟ أم فيه تفسير كل شيء من هذه الأمور التي يتكلم الناس فيها، من الطلاق والفرائض؟ فقال عليه السلام: «إن علياً

١- شرح أصول الكافي للمازندراني ج٢ ص٣٠٣.

٢- بحار الأنوار للمجلسي ج٣٧ ص١١٤.

٣- بحار الأنوار للمجلسي ج٨٩ ص٩٤.

٤- الكافي للكليني ج١ ص٢٤٢.

عليه السلام كتب العلم كله، القضاء والفرائض، فلو ظهر أمرنا فلم يكن شيء إلا وفيه سنة نمضيها»[1]

أي أنّ كل حكم لرسول الله هناك آية من الكتاب دالة على معناه، ونحن نمضيه.

أهل البيت عليهم السلام مرجعية العالم

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إن ههنا لعلماً جماً، لو أصبت له حملة»[2] يشير عليه السلام إلى علمه الواسع الذي لا يستطيع أن يتحمله غيره.

قال عليه السلام: «علمني -رسول الله- ألف باب من العلم فتح لي كل باب ألفَ باب»[3] وفيه دلالة واضحة على سعة علمهم.

قال الإمام الرضا عليه السلام إنّ النبي صلى الله عليه وآله، قال: «يا علي أنا مدينة العلم، وأنت الباب، كذب من زعم أنه يصل إلى المدينة إلا من الباب»[4] فلا أحد يلج إلى معارف رسول الله صلى الله عليه وآله، ويفهم حقائق التوحيد والعدل الإلهي إلا بالأخذ عن أهل البيت عليهم السلام.

وقد روى الحافظ القندوزي في ينابيع المودة عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما صرت بين يدي ربي، كلمني وناجاني، فما علمت شيئاً إلا علمته علياً، فهو باب علمي»[5] هذه الرواية رواها العامة، وهي دليل على ذلك أي أنّ الله تعالى أعطى رسوله صلى الله عليه وآله معارفاً وعلوماً علمها لعلي عليه السلام، ومن بعده الأئمة عليهم السلام من ولده.

الإمام أحصى الله تعالى فيه كل شيء

وعن الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سُئل عن قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾(يس:١٢) أهو التوراة أو الإنجيل أو القرآن؟ قال النبي صلى الله عليه وآله: لا، فأقبل

١- بحار الأنوار للمجلسي ج٥٤ ص٣٣٤.

٢- بحار الأنوار للمجلسي ج١ ص١٨٨.

٣- الإرشاد للمفيد ج١ ص٣٤

٤- بحار الأنوار للمجلسي ج٤٠ ص٢٠٦.

٥- ينابيع المودة للقندوزي ج١ ص٢١٤.

إليه الإمام أمير المؤمنين، فقال صلى الله عليه وآله: ‹‹هو هذا إنه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كل شيء››[1] تبيان للمصداق الذي يعرف حقائق القرآن الكريم، والروايات غاية في الوضوح.

القسم السابع: التأصيل القرآني لعلم الغيب.

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة:٣٩٤٥) صدق الله العلي العظيم.

قدرات المعصوم العلمية

للمعصوم عليه السلام قدرات علمية كبيرة، وتأييد إلهي وذلك ليكون حجة على الخلق، ولكي تصبح عصمته بمكان من الوضوح، حيث لا يمتري فيها من يرى الدلائل والبينات الدالة عليها إلاّ إذا كان من الجاحدين.

وضوح الأدلة على سعة علم المعصوم

البينات الدالة على حجية الرسل والأنبياء والأوصياء كالشمس في رابعة النهار، ومع ذلك فقد يشكك في الواضحات؛ كالأدلة الدالة على وجود الحق تعالى، إذ أن بإمكان من يشكك أن يشكك في المعلومة القطعية، لذا كان الفلاسفة السوفسطائيون يقيمون أدلة لبطلان الحقائق الواضحة، والأمر في وجود الله وفي رتبة الرسل والأنبياء والأوصياء كذلك، فرغم الدلائل الدالة على سعة علمهم وعصمتهم غير أن هناك من ينكر ذلك.

شمولية العصمة

قد يثبت بعضهم العصمة بنحو محدود، بقصرها في تلقي الوحي فقط، مع أن الأدلة دالة يقيناً على أن الرسل والأنبياء والأوصياء لا يخطئون في تطبيق الحكم الشرعي، ولا يشتبهون في معرفة أي مفردة خاصة، وما قيل من أنّهم عليهم السلام معصومون في تلقي الوحي فقط و يخطئون في تطبيقه ليس بسديد.

---

[1] – موسوعة الإمام علي عليه السلام للريشهري ص٦٥.

القدرات الغيبية للمعصوم

إنّ العصمة منحة إلهية وإفاضة من لدن الحق تعالى، تقترن بالعلم الواسع، لذا يتعجب من يسمع المعصوم يتحدث ويرى قدراته الواسعة، التي يُعرف بها أنه يختلف عن الآخرين، خصوصاً عندما يتحدث عمّا وراء عالم المادة.

أقسام الغيب

للرسل والأنبياء والأوصياء بعض علم الغيب، والغيب في الاصطلاح هو ما غاب عن الحواس، أي ما لا يدرك بواسطة الحواس، فهو غيب، وقد وُسع الاصطلاح ليشمل كل ما لا يستطاع أن يدرك بواسطة المعلومات المتاحة لسائر الناس عبر الأدلة العلمية غير المحسوسة والمتاحة للجميع، فما عدا ذلك علم بالغيب.

لقد تكرر علم الغيب في القرآن، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾(البقرة:٢-٣) وجُعل هنا الضابطة في تحقق الإيمان والرّقي فيه، الإيمان بالغيب.

الأول: غيب لا يدرك.

إن الغيب تارة يكون مطلقاً لا يتاح لأحد أن يصل إلى إدراكه حتى الرسل والأنبياء والأوصياء لا يستطيعون ذلك، فهو غيب مطلق، وقد دلت دلائل من العقل والنقل على أن ذات الحق تعالى غيب مطلق لا يتاح لأحد أن يصل إلى معرفته، لأنّ اكتناه الذات إحاطة بها، ولا يكون ذلك إلاّ للممكنات، أما الذات المقدسة لله تعالى فلا يحاط بها علماً، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾(طه:١١٠) لأنّ الإحاطة تستلزم حدوداً، والله تعالى لا حدّ له، وعلمنا المحدود لا يُدرك إلاّ محدوداً، إذ أن قدراتنا محدودة، والإحاطة بالذات المقدسة لو أمكنت لكانت ذاته تعالى محدودة ممكنة.

إنّ ذات الحق تعالى واجبة الوجود لا يمكن أن يُدرك كنهها، بأي نحو من الأنحاء، وما يتاح العلم به هو أنّ الذات موجودة بوجود ليس كمثله شيء –ليس بجسم وليس له صورة إنسان أو مخلوق من المخلوقات– فنستدل بآثاره على وجوده، أو به على ذاته – معرفة الصديقين– وقد قيل إنها لا تتاح إلاّ لنمط خاص هم الرسل والأنبياء والأوصياء قال الإمام عليه السلام: ‹‹بك عرفتك وأنت دللتني عليك، ولولا أنت لم

أدرِ ما أنت››[1] أما إدراك الذات بالاكتناه فمحال على الجميع، وقد جاء في الأثر (أنا والنملة في معرفة الذات على حد سواء) أي: أنّ أقل الموجودات رتبة يتساوى في عدم معرفة كنه الذات مع أفضل الخلق رتبة.

الثاني: إدراك الغيب المشروط.

وهناك غيب آخر أطلع الله تعالى بعض خلقه عليه، أوضحته آيات القرآن الكريم، ويُفهم ذلك بضم بعضها إلى بعضها الآخر؛ إذْ أنّ بعضها ينفي علم الغيب عن غير الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل:٦٥)، وبعضها تفسر ذلك مبينة أنّ الله تعالى أطلع بعض عباده على الغيب، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا*إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن:٢٦-٢٧) أي: أنّ الله تعالى أظهر بعض عباده على جزء من الغيب، وهم الرسل والأنبياء والأوصياء عليهم السلام فإنّ لهم إطلاع واسع على جزء من الغيب ليس بالاستقلال أي من لدن ذواتهم دون مدد من الله تعالى، بل هو منحة من عنده تعالى؛ لأنّه تعالى دلل بهم على وجوده، وحقانية شرعه ومعرفته الحقة، قال الإمام الصادق عليه السلام: ‹‹بنا عرف الله، وبنا عبد الله، نحن الأدلاء على الله تعالى ولولانا ما عبد الله››[2] أي: أنهم الصراط الأقوم والدليل الواضح الذي لا انحراف فيه في إيصال من سلكه إلى الله تعالى.

المعصوم طريق لمعرفة الغيب

لا تتاح المعرفة الصحيحة إلاّ عبر طريق الرسل والأنبياء والأوصياء، وما عداه لا يوصل إلى المعرفة التي يريدها الله تعالى، إذ أن المعرفة التي يريدها الله تعالى لا تكون إلاّ بنحو مخصوص، أشار إليه الحق قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ*إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات:١٥٩-١٦٠) أي أنّ صفات الله التي يرتضيها لنفسه هي الأوصاف التي يصفه بها من استخلصهم لنفسه، ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات:١٦٠).

خصائص الغيب

١- بحار الأنوار للمجلسي ج٩٥ ص٨٢.

٢- مستدرك سفينة البحار للشاهرودي ج٨ ص٣٢٩.

الأولى: سعة العوالم الغيبية

العالم المادي ـ عالم الشهود ـ لا نحيط علماً بكل حيثياته، والعلم في تقدم مطّرد وكلما بحث الإنسان توصل إلى نتائج مذهلة في عالم الشهادة، أما عالم الغيب فهو أوسع من عالم الشهود لمحدوديته، فهو نقطة في محيط، لأن ما وراء عالم المادة أوسع بكثير من عالم الشهود، ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً.

الثانية: الوحي واسطة كشف الغيب

ولا يتاح للإنسان أن يصل إلى الله إلاّ بهمزة وصل تربط عالمه المحسوس ـ عالم الشهود ـ بالعالم اللامحسوس كعالم الآخرة، لأن الآخرة غيب لنا، لا نعرف منها إلا ما نسمعه بواسطة الوحي، كحديث ‹‹وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر››[1] وقد أكد الله تعالى على أهمية الإيمان بالآخرة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة:٤).

الثالثة: الغيب مصحح للإيمان.

لابد للمؤمن أن يكون على يقين بعالم الغيب وإلاّ لن يكون مؤمناً، ولا يختص الغيب هنا بالمطلق ـ الذات المقدسة للحق تعالى ـ بل يشمل عالم الآخرة وما فيه من تفصيلات كالصراط والميزان إذ أنه غيب لا نحيط به علماً، أما الرسل والأنبياء والأوصياء فيعلمون به، وقد أثبت لهم القرآن ذلك.

الرابعة: الغيب دليل إثبات صحة الرسالة.

علم الغيب للرسل والأنبياء عليهم السلام تأييد من الله لإثبات رسالتهم، قال تعالى: ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ (آل عمران:٤٩)، ينبئ عيسى عليه السلام أصحاب البيوت بأمور غائبة عن الحواس، ليكون أبلغ في الحجة، والنبي صلى الله عليه وآله لما غلب الفرس الروم أخبر بانتصار الروم وغلبتهم بعد حين كما في سورة الروم ﴿ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (الروم:٣)، وهذا أمر غيبي، لا تدلل عليه المعطيات، وهناك مئات من إخبارات الرسول صلى الله عليه وآله والوصي عليه السلام تحققت بعد حين.

الخامسة: الغيب لا يخضع للتخمينات.

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٨١ ص١٢٥.

وليس ذلك استشرافاً للمستقبل، لأن استشراف المستقبل بالتحليلات، والأمر هنا ليس كذلك، إذْ لا معطيات ولا دلائل حاضرة، غير أنّ الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أخبروا بتحول الأمور، جاء عن الإمام علي عليه السلام إخبارات كثيرة منها ما قاله لرشيد الهجري ولميثم التمار، فقد أخبرهما بموتهما على كيفية خاصة، وحاول أعداء الله أن يغيروا ذلك، ولم يستطيعوا لأنّ الوصي عليه السلام يتحدث عن معادلات غيبية تتم بهذه الكيفية، فكانت اخباراته دالة على عصمته، وهي ليست منه استقلالاً بل منحة وإفاضة أفاضها الله تعالى عليه، وعلم الإمام الواسع لا نستطيع أن نبرزه بالألفاظ ولا أن نصل إلى حقيقته، وكلما أوغل العالم وسبر غور الأدلة وصل إلى إدراك شمة منه.

إثبات علم المعصوم الغيب

أوضحت بعض الآيات القرآنية اختصاص علم الغيب بالله، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:٧٣).

إثبات الشيء لا ينفي ما عداه

إنّ وصفه تعالى في الآية بأنه عالم الغيب، لا ينفي علم الغيب عمّا عداه، ذلك أنّ الله تعالى يطلع الرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام على جزء من الغيب، غير أنهم لا يعلمون ذلك استقلالاً دون اتصالٍ به تعالى.

الواقع يثبت علم المعصوم بالغيب

لذا قال عيسى عليه السلام: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:٤٩) وما ثبت لعيسى عليه السلام ثبت لموسى وللخليل عليهما السلام ولمحمد صلى الله عليه وآله، لكنهم لا استقلال لهم عن الله تعالى، بل الطاعة المطلقة والعبودية أوصلتهم إلى هذا المقام الشامخ فأفاض الله تعالى ذلك عليهم لطاعتهم وعبوديتهم.

المعصوم يعلم الغيب من غير استقلال

تصف الآيات القرآنية الله تعالى بعالم الغيب، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ﴾ (الزمر:٤٦) وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ

تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة:٣٣) وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩)، وقد تمسك بعضٌ بها غير أنّ الآيات إذا شرحت اتضح المعنى الحقيقي منها، وعلينا أن نفهم أنّ التمسك بهذا المعنى دون ضم الآيات إلى مثيلاتها غير صحيح، والمراد بالنفي هو نفي الاستقلال، أي أنّ غيره تعالى لا يعلم استقلالاً وإنما بإفاضة ومنحة منه تعالى.

القرآن يثبت علم المعصوم بالغيب

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ (الأعراف:١٨٨).

النبي يعلم بالأحداث قبل وقوعها

وهناك آيات أوضحت ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤) أي: أنّ النبي صلى الله عليه وآله أنزل الله تعالى عليه الآيات نجوماً متفرقة، غير أنه أطلعه عليها في عالم آخر متقدم على عالم الشهود وأراد منه أن لا يعجل بإظهار ما أطلعه عليه في عوالم الغيب بل يسير على وفق نظام عالم الشهود، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ (آل عمران:٤٤) أي أنها أمور غيبية لا يحيط بها غيرك، نحن علمناك إياها.

الله يفيض على النبي بعلم الغيب

وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (الجن:٢٦-٢٧) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (التكوير:٢٣-٢٤) أي: أنّ الله تعالى أطلعه على الغيب ولا بخل في ساحة جوده تعالى وهو صلى الله عليه وآله يفيض مما أطلعه الله تعالى عليه بحسب القابليات، والاستعداد للخلق، لأنّ الناس لا تتحمل كل ما أطلعه الله تعالى عليه، إذْ لا يصل أحد إلى رتبته صلى الله عليه وآله.

الاستدلال بالآيات على علم المعصوم

ولا ينبغي أن نتمسك ببعض الآيات مفردين لها دون ضمها إلى بعضها الآخر الذي يفصح ببيان لا لبس فيه بأنّ النبي صلى الله عليه وآله والأنبياء يعلمون جزءً من الغيب بتعليم الله تعالى لهم، وأنّه صلى الله عليه وآله أكمل الخلق رتبة، والأعظم على الإطلاق، كما دلت على ذلك الروايات المعتبرة.

اختصاص المعصوم بفقه ما وراء المادة

القول بأنّ ما ننسبه إلى المصطفى صلى الله عليه وآله وإلى الأنبياء والأئمة ينفيه القرآن ليس بسديد بل أنّ القرآن يؤصله، والآيات لابد أن تفهم بمعنى أنّ القدرة المطلقة له تعالى، وقدرة الخلق ترجع إليه، والعلم والنعمة منه تعالى، والرسل والأنبياء والأوصياء عليهم السلام يعلمون بإفاضة ومنحة لم يشرك معهم غيرهم فيها، لأنهم نخبة البشر لا يصل غيرهم إلى درجتهم، فهم يفقهون معارف ما وراء عالم المادة.

الإمام والعالم النصراني

لعل الرواية المتقدمة التي تحدثت عن لقاء بريهة – من كبار علماء النصارى – بالإمام الكاظم عليه السلام حيث أراد الإمام عليه السلام أن يوصله إلى الحق فاختصر له الطريق وتحدث معه بالأرامية – اللغة التي أنزل بها الإنجيل – رغم أن الإمام ع كان صغيراً في سنه، فكيف احاط علماً بالكتب السماوية السابقة وباللغات التي أُنزلت بها؟! والأعظم من ذلك حديثهم عليهم السلام مع الحيوانات، وقد أصّل القرآن الكريم ذلك في حق سليمان عليه السلام عندما تحدث مع الهدهد و النمل وهم عليهم السلام أعظم منه عليه السلام.

تأصيل علم المعصوم بالغيب

هذه المعارف الغيبية دلل عليها القرآن بوضوح، ولولا ذلك لقيل إنها خرافة أو غلو فيهم، وقد جاءت الروايات متواترة معنىً لتدلل على هذه الرتبة لهم عليهم السلام.

القسم الثامن: علم الغيب وحجية المعصوم.

الإمامة وعلم الغيب

إنّ الله تعالى يطلع الرسل والأنبياء والأوصياء على بعض الغيب، تأييداً لهم لإثبات مقامهم وإبانة الحجة التي يدلون بها للغير، لتكون في مرتبة عالية من الوضوح والبيان، والروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام تؤصل ذلك، وهي متواترة معنىً، وقد أشار بعضها بأنّه لا معنى للقول بإمامة من لم يطلعه الله تعالى على جزء من الغيب كي تتضح به الحجة ويتجلى به البرهان، وذكرنا بعض الروايات في ذلك.

لا استقلالية في علم الغيب

ونضيف هنا بعض الروايات موضحين بعض الحيثيات، قال الإمام الباقر عليه السلام عندما سأله رجل أتعلمون الغيب؟ قال عليه السلام: ‹‹يبسط لنا العلم فنعلم فيقبض عنا فلا نعلم››[1] أبان عليه السلام بأنّ ما لديهم عليه السلام من علم وإطلاع هو من عند الله تعالى، فيبسط لهم لإظهار حجتهم، ويقبض عنهم فلا يعلمون شيئاً، أي أنهم لا يعلمون إلاّ بإذن الله تعالى، وأنّ علمهم لا يرجع إلى ذواتهم بالاستقلال عن الله تعالى بل يعلمون منه تعالى، لذا قال عليه السلام: ‹‹يبسط لنا العلم فنعلم فيقبض عنا فلا نعلم›› وذلك معنى قوله تعالى: ﴿مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ (الكهف:٣٩)، ومعنى الحوقلة "لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم" أي أنّ القدرة مرجعها إلى الله تعالى.

علم الغيب إفاضة ربانية

وأوضح الإمام الباقر عليه السلام بأنهم عليهم السلام يطلعون على الغيب، فقال عليه السلام: ‹‹سر الله عز وجل أسره إلى جبرئيل وأسره جبرئيل إلى محمد صلى الله عليه وآله وأسره محمد صلى الله عليه وآله إلى من شاء الله››[2] أي أنّ الغيب هو سر من الأسرار، والحديث واضح لكن عمقه من الأسرار الإلهية، وقد أطلع الله تعالى جبرائيل عليه وأطلع جبرائيل المصطفى صلى الله عليه وآله وأطلع المصطفى صلى الله عليه وآله الأوصياء عليهم السلام، أي أنّ تلقي الغيب إفاضة ربانية من الله تعالى للمصطفى صلى الله عليه وآله، وللأوصياء من بعده صلى الله عليه وآله.

الله تعالى يكشف للمعصوم عالم الملكوت

---

[1] – الكافي للكليني ج١ ص٢٥٦.

[2] – الكافي للكليني ج١ ص٢٥٦.

وسأل آخر الإمام الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:٧٥) ما معنى إراءة ملكوت السماوات والأرض للخليل عليه السلام؟

الله تعالى يري إبراهيم عليه السلام الملكوت

زيادة الواو والتاء في "ملكوت" تدلل على أمرين:

الأول: السعة.

والثاني: العمق.

أي أنّ الله تعالى أطلع الخليل على عمق الملكوت، وأراه إياه ليصل إلى درجة عالية من اليقين حيث لا يتأثر بالنار لشدة يقينه عليه السلام، والمصطفى صلى الله عليه وآله له هذه الدرجة التي كانت للخليل عليه السلام، فما أطلع الله تعالى عليه خليله أطلع عليه حبيبه صلى الله عليه وآله.

الله تعالى يكشف الملكوت للنبي صلى الله عليه وآله

وأجاب الإمام الباقر عليه السلام عن معنى الإراءة، بأنّ الله تعالى أزال كل حجاب عن ملكوت السماوات والأرض، فـ«كشط له السماوات والأرض حتى رآها وما فيها وحتى رأى العرش ومن عليه، وفُعل ذلك برسول الله صلى الله عليه وآله»[١] أي أنّ ما أعطي الخليل أعطي المصطفى صلى الله عليه وآله.

الله تعالى يكشف الملكوت للائمة عليهم السلام

وفي رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:٧٥) قال عليه السلام: «كشفت له السماوات والأرض حتى رآها ورأى ما فيها والعرش ومن عليه، قال قلت: فأوتي محمد صلى الله عليه وآله مثل ما أوتي إبراهيم عليه السلام؟ قال عليه السلام: نعم، وصاحبكم هذا أيضاً»[٢] أي أنّ الله أعطى هذا المقام للحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وأعطاه للباقر وللصادق عليهما السلام، والرواية واضحة بأنّ الله تعالى كشف

١- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص١١٦.

٢- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص١١٥.

عن حقيقة ملكوت السماوات والأرض للخليل عليه السلام وللحبيب صلى الله عليه وآله وللأوصياء عليهم السلام من بعده.

ولما سُئل الإمام الصادق عليه السلام هل رأى محمد صلى الله عليه وآله ملكوت السماوات والأرض كما رأى إبراهيم؟ قال عليه السلام: ‹‹نعم وصاحبكم››[1] أي وأنا أرى ملكوت السماوات والأرض، يؤكد الأئمة عليهم السلام على أمر غاية في الأهمية، هو أن الاطلاع الواسع لهم على الأمور ليس بأمر ذاتي لا ينفك عنهم، بل نعمة من الله تعالى آتاهم إياها، وإفاضة ربانية امتن بها عليهم عليهم السلام، والله تعالى قادر على سلب العلم منهم عليهم السلام في أي لحظة، والإمام عليه السلام وإنْ كان في مقام إمامته عليه السلام في منتهى الخضوع والعبودية للحق تعالى، يتلقى الفيوضات من الله تعالى، غير أن الله إذا أراد أن يقطع المدد عنه في أي لحظة فله ذلك.

وعن أبي عبيدة المدائني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ‹‹إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك››[2] أي أنّ الإمام عليه السلام إذا أراد أن يطلع على شيء أتاح الله تعالى له ذلك، والرواية غاية في الوضوح.

علم الغيب وقابلية الناس

إنّ كثيراً من الناس لم تكن لديهم قابلية لمعرفة مقام الإمامة في زمان الأئمة عليهم السلام، وقد ذكر صاحب الجواهر رحمه الله بأنّ المسائل العقدية أعطاها الأئمة عليهم السلام للناس تدريجياً، لأنّ قابليات بعض الناس لم تصل إلى مستوى فهم المطالب العقدية ذات العمق كعلم الإمام بالغيب، والإمام عليه السلام كان يرفع المستوى العقدي للمؤمنين بنحو تدريجي.

تأهيل الناس عقدياً

أوضح الأئمة عليهم السلام هذه المطالب لمن له قابلية بنحو تدريجي، وكان أسلوبهم هو أنه كلما تأهل المؤمن إلى درجة أخذوا بيده إلى أخرى، وحرّموا ذكر بعض المطالب الموجبة لعدم الاستيعاب، وقالوا بأنّ من كسر مؤمناً فعليه جبره، أي أنّ على المرء أن يمهد لمن ليس له قابلية ليرتقي في درجته الإيمانية.

خطورة عرض العقائد لمن ليس له قابلية

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص١١٥.

[2] – بحار الأنوار للمجلسي ج١ ص٢٥٨.

أما إذا لم يرفع المستوى الإيماني وأعطيت المعلومة فقد يخرج من يتلقاها عن الإسلام، والروايات صرحت بأنّ من لا يعي هذه الأمور لا ينبغي أن تعرض عليه دون تمهيد، ولم يشرح الأئمة عليهم السلام الحقائق بمقربة ممن لا قابلية له، بل أنّ أسرار الأحكام تجنب الأئمة عليهم السلام إبانتها لمن لم يصل في قابليته إلى فهمها إذْ أنه قد يرجع عن الإسلام بنحو كلي.

والرواية التالية توضح ذلك، فعن سيف التمار قال كنا في الحجر –أي في حجر إسماعيل– بمقربة من الكعبة المشرفة، فقال الصادق عليه السلام: ‹‹علينا عين؟›› أي هل هناك من لا يستوعب الحقائق لأنّ هذه الأمور تخص النخبة، وهم من لديهم قابلية للاستيعاب، ولما أخبر الإمام عليه السلام بخلو المكان ممن لا قابلية له، قال عليه السلام: ‹‹ورب الكعبة ورب البنية –ثلاث مرات– لو كنت بين موسى والخضر عليهما السلام لأخبرتهما أني أعلم منهما››[1] توضح الرواية مقاماً ورتبة وجودية للمعصوم عليه السلام، وقد أشار بعض علماء العامة إلى ذلك في مقام أمير المؤمنين عليه السلام إذْ أنّ له عليه السلام مقام النبي صلى الله عليه وآله، والأوصياء ثبت لهم ذلك أيضاً.

خصائص علوم الأئمة عليهم السلام

وآية المباهلة وإنْ كانت في شأن أمير المؤمنين عليه السلام لكنها لا تختص به عليه السلام بل تشمل الأوصياء جميعاً، ورتبتهم عليهم السلام أعظم من موسى وعيسى والخليل عليهم السلام.

الإجابة الحاضرة

والروايات صريحة ومتواترة في هذا المعنى، وقول الإمام الصادق عليه السلام: ‹‹ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما›› لأنّ موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان، أما آل الرسول صلى الله عليه وآله فقد أعطوا علم ما كان وعلم المستقبل – ما هو كائن إلى قيام الساعة– وراثة من رسول صلى الله عليه وآله، قال علي عليه السلام: ‹‹علمني رسول الله ألف باب فتح لي كل باب ألف باب››(الإرشاد للمفيد ج١ ص٣٤) وقال عليه السلام: ‹‹سلوني قبل أن تفقدوني››[2] ولم نر أحداً من الأئمة عليهم السلام وقف في مسألة من المسائل، بل كان يجيب فوراً بتفصيلات دقيقة في معارف وعلوم شتى منها اللغات ومنها مخاطبة الحيوانات، ومعاجزهم عليهم السلام دللت على رتبة وجودية لهم عليهم السلام.

---

[1] – الكافي الكليني ج١ ص٢٦١.

[2] – وسائل الشيعة للحر العاملي ج١٥ ص١٢٨.

حقيقة الإيمان بعلم المعصوم بالغيب

وعن صفوان بن يحيى عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: ‹‹والله لقد أعطينا علم الأولين والآخرين›› فقال له رجل من أصحابه جعلت فداك أعندكم علم الغيب، -تعلمون المغيبات- فقال عليه السلام: ‹‹ويحك إني لأعلم ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء›› والرواية أفصح وأوضح، ثم قال عليه السلام: ‹‹ويحكم وسعوا صدوركم ولتبصر أعينكم ولتعي قلوبكم فنحن حجة الله تعالى في خلقه، ولن يسع ذلك إلاّ صدر كل مؤمن قوي قوته كقوة جبال تهامة›› [1].

الحاجة لصلابة الإيمان وتزكية النفس

لايصل إلى هذه المعرفة إلاّ صلد الإيمان شديد اليقين قد زكى نفسه وتجرد عن أهوائه في عبوديته لله تعالى، حينئذ يعي هذه المعارف.

الأئمة عليهم السلام هم عباد الله تعالى حقيقة

ولعل الحديث الوارد لدى الفريقين يمهد لهذا المعنى: قال الإمام الباقر عليه السلام: ‹‹ما يتقرب إلى عبد من عبادي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إلي بالنوافل، حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، لسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، وإن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته››[2] يبين الحديث شمة من المطلب إذْ أنّ الإنسان يرتقي في سلم العبودية درجة درجة حتى يصل إلى مكانة يستجيب الله تعالى دعاءه، ويصبح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ (الأنفال:١٧) أي أنّ فعله فعل الله تعالى، وهذا المعنى نفس ما نقوله في حق المعصوم، فهم عليهم السلام لا يعصون الله تعالى ما أمرهم، والله تعالى اجتباهم واصطفاهم واستخلصهم وأفاض عليهم من علمه فعلت درجتهم.

علم الغيب طريق إثبات الإمامة

١- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص٢٨.

٢- وسائل الشيعة للحر العاملي ج٤ ص٧٢.

أوضحت بعض الروايات ذلك «نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد»[١] وعن الإمام الصادق عليه السلام: «والله لو أردت أن أحصي لكم كل حصاة عليها لأخبرتكم»[٢] يخبر الإمام عليه السلام بسعة علمه، وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «إنّ الله أجل وأعظم من أن يحتج بعبد من عباده، ثم يخفي عنه شيئاً من أخبار السماء والأرض»[٣] وقد جاء هذا المعنى في حق عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران:٤٩) إنّ إخبار عيسى عليه السلام عما يأكله الناس وما يدخرونه لإبانة الحجة وأنّ ما يعلمه عليه السلام ليس استقلالاً بل بإذن من الله تعالى، والقرآن والروايات أكدا ذلك، ثم قال عليه السلام: «الله أحكم وأكرم من أن يفرض طاعة عبد يحجب عنه خبر السماء صباحاً ومساءً»[٤] أي أنّ الله تعالى أمر بطاعة أوليائه وليس من حكمته وكرمه أن يقطع العلم عنهم.

الإمام عليه السلام وعالم الملكوت

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض»[٥] أي أنّه عليه السلام مطلع على عالم الملكوت، وهناك شواهد كإخباره عليه السلام بما يجري على ميثم التمار، إنّ ابن زياد أراد أن يكذب إخبار الإمام عليه السلام، ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً، لأنّ الأمر من عند الله تعالى، قال ابن أبي الحديد: "ما أخبر علي به تحقق"[٦].

قال أحد الرواة دخلت مع الحصين ورجل آخر على أبي عبد الله، فاستخلى برجل، أي أنّ الإمام عليه السلام استخلى بمن له أهلية وقابلية ليرفع درجته ويشرح له مطلباً عقدياً يرتبط بمقام أهل البيت ورتبتهم عليهم السلام، فكان يقول ونحن نسمع، «أفترى الله يمن بعبد في بلاده ويحتج على عباده ثم يخفي عنه شيئاً من أمره»[٧] إنّ الإمام عليه السلام نعمة على الخلق، يمن بها الحق تعالى على عباده، ويحتج به

١- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٢ ص٤٠٦.

٢- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص٢٨.

٣- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص١١٠.

٤- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص١١٠.

٥- بحار الأنوار للمجلسي ج١٠ ص١٢٨.

٦- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١ ص٢٥٣.

٧- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص١١٠.

على بلاده فهل نتعقل أن يكون الحجة على الخلق يخفي الله تعالى المعارف والعلوم عنه، فإذا سُئل توقف عن الإجابة؟ إنّ ذلك لا يتناسب مع النعمة التي امتن الله تعالى بها على الخلق.

روى الإمام الباقر عليه السلام أنه لما سُئل علي عليه السلام عن علم المصطفى صلى الله عليه وآله قال عليه السلام مجيباً: ‹‹علم النبي علم جميع النبيين وعلم ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام الساعة، ثم قال: والذي نفسي بيده، إني لأعلم علم النبي صلى الله عليه وآله وعلم ما كان وعلم ما هو كائن فيما بيني وبين قيام الساعة››[1] وقد أفصح الإمام عليه السلام عن رتبته وأنه يعلم بتعليم النبي صلى الله عليه وآله علم ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام الساعة.

والمطلب غاية في وضوحه أُصِّل بأدلة من العقل والنقل، فلا يقال إنكم تنسبون لأئمتكم ما لم يتفوهوا به، وتغالون في درجتهم، لأنّ الروايات دالة على علو مقامهم ورفعة درجتهم.

القسم التاسع: العصمة ومدرسة أهل البيت عليهم السلام.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف:٢-٣) صدق الله العلي العظيم.

العصمة قبل الرسالة

هناك دلائل على عصمة المعصوم منذ نعومة أظفاره، يتميز بها عن غيره، وهي علامات فارقة، فقد عُرف النبي صلى الله عليه وآله بالصادق الأمين، أي عرف الناسُ اتصافه بالعفة والصدق والأمانة، والأمر كذلك في بقية الرسل والأنبياء والأوصياء عليهم السلام، فلا نجد رسولاً ولا نبياً ولا وصياً لوثت حياته المعاصي قبل رسالته ونبوته وتصديه للإمامة.

دلائل العصمة قبل الرسالة

كان تأريخهم عليهم السلام نقياً طاهراً دللت عليه شواهد التأريخ وآيات القرآن الكريم.

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص١١٠.

أولاً: القرآن الكريم.

النظر إلى الأنبياء في القرآن الكريم وجد طهارتهم أمراً مسلماً، لا يمتري فيه أحد.

ثانياً: الشواهد التاريخية على عدم اقتراف الذنب

ولعل التعبير الذي يورده العامة في حق علي عليه السلام "كرم الله وجهه" يفصح عن ذلك، فهو عليه السلام بالإضافة إلى أنه لم يسجد لصنم، لم يقترف معصية منذ نعومة أظفاره، ولو اقترف معصية لأبرزها الإعلام الأموي للتأثير على الهالة الكبيرة التي يراه الناس بها.

ثالثاً: تنافي المعصية مع الرسالة.

إن اقتراف المعاصي قبل النبوة يتنافى مع الغاية التي من أجلها أرسل الرسل إلى الخلق، إذْ أنّ أهم غاية هي التأثير لأقواله وأفعاله، فأقوالهم عليهم السلام تصدق أفعالهم، ولا فرق بين الأقوال والأفعال، بل إن التطابق تام والمصداقية واضحة لئلا ينتقض الهدف وتزول الغاية.

رابعاً: المعصية تنفر الناس.

إنّ الرسل والأنبياء والأوصياء عليهم السلام لو لم يتصفوا بذلك لم تؤثر موعظتهم في القلوب، أو يصبح تأثيرها باهتاً، لأنّ الناس لا يتأثرون بالأقوال لمن كان تأريخه السابق سيئاً، بل يسقطون التأريخ السابق على الحالي فيرتابون.

خامساً: كمال المعصوم مانع من ارتكاب المعصية.

ولا يختص ذلك بنا كأتباع لأهل البيت عليهم السلام، لأنّ القضية بدهية، إذ أنّ الناس يرون فارقاً كبيراً بين المتصف بالسداد منذ نعومة أظفاره وبين من ملئت حياته بالإثم والمعصية.

الفرق بين المعصوم وغيره

هناك فرق جوهري بين الاثنين في تأثير الكلام والأفعال، وقد أشار أحد علماء المعتزلة إلى ذلك، قال القاضي عبد الجبار: "إنّ النفوس لا تسكن إلى القبول ممن يخالف فعله قوله، سكونها إلى من كان منزهاً عن ذلك"[1] أي أنّ النفس تطمئن لمن لم يقترف المعصية في حياته، "فيجب أن لا يجوز في الأنبياء

---

[1] – مفاهيم القرآن للشيخ السبحاني ج٥ ص٧٤.

عليهم السلام إلاّ ما نقوله من أنهم منزهون عما يوجب العقاب والاستخفاف والخروج من ولاية الله تعالى إلى عداوته".

ثم قال: "ولو أنّ واعظاً انتصب يخوف من المعاصي وشاهده الناس مقدماً على مثلها لاستخف به وبوعظه".

أي أنّ من يقترف معصية ويحذر من ارتكابها لا قيمة لتحذيره، لأن التأثير يرتبط بالطهارة والنزاهة قبل بعثة ذلك الرسول ونبوة ذلك النبي، أي منذ ريعان الشباب الطهارة والنزاهة سمات بارزة في شخصيتهم عليهم السلام.

وقال أيضاً: "إنّ الواعظ والمذكر وإنْ غلب على ظنناً من حاله أنه مقلع تائب لما أظهره من أمارات التوبة والندامة حتى عرفنا من حاله الانهماك في الشرب والفجور من قبل، لم يؤثر وعظه عندنا كتأثير المستمر على النظافة والنزاهة في سائر أحواله".

لا ثمرة لتعليم الأنبياء بلا تزكية

وقد صرح القرآن الكريم بأنّ الغاية السامية لبعثة الأنبياء وإرسال الرسل، التعليم والتزكية للأمة، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(البقرة:١٢٩) أي أنّ وظيفة النبي صلى الله عليه وآله التعليم، لكنه لا يكفي وحده، بل لابد أن يقترن بالتزكية لرفع مستوى السمو والفضيلة للمتلقي، أما إذا كان النبي صلى الله عليه وآله يلقي العلم مجرداً عن التأثير لم تتحقق الغاية من بعثته.

أوائل حياة المعصوم.

نعم؛ هناك تزوير في شأن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام من لدن الأمويين، لكونهم يبغضون علياً عليه السلام، لذا قالوا بأنّه عليه السلام شرب الخمر، وتلك فرية كبيرة على شخصيته عليه السلام، لأنّ شرب الخمر عند الأسوياء من الناس حتى وإن كان من غير المسلمين وغير أصحاب الأديان يبتعد عنه لسمو العقل والنزاهة، لكن الأمويين افتروا على إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام للتقليل من شأنه عليه السلام.

واقعية أقوال المعصوم.

إنّ بعض الكتاب في العصر الحديث أشار إلى بعض المثالب في شخصيات أئمة أهل البيت عليهم السلام لأغراض سياسية محضة كالقول بأنّهم يظهرون لأتباعهم ولشيعتهم أموراً لايستطيعون إبرازها أمام الرأي العام، لأنّ الرأي العام على دراية، فيستطيع أن يرد ما أبرزه الأئمة عليهم السلام، إن هذا افتراء عليهم عليهم السلام، لكونهم بمحضر ومنظر من العموم، فكان منطقهم الصواب، ورأيهم السداد، ولم يصدر من إمام منهم عليهم السلام شيء كذبته الأحداث بل كانت أقوالهم مطابقة للواقع بدقة.

العصمة قبل التصدي للإمامة

وهناك دلائل وآيات بينات دللت على نقاء السيرة والعصمة لهم عليهم السلام، واشتهار ذلك في شخصياتهم قبل أن تشتهر بين الناس، فالمصطفى صلى الله عليه وآله والإمام أمير المؤمنين، بل كل إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام دلل تأريخه الناصع بدلالة غاية في الوضوح على سموه الخلقي، وطهارته ونقاء سيرته، لأمور:

الأول: اللطف الخاص بهم عليهم السلام.

الثاني: علمهم عليهم السلام بتأثير المعاصي.

الثالث: ارتباط قلوبهم عليهم السلام بالله تعالى وذكرها للآخرة.

وما قيل في حق أي منهم صادق على جميعهم، ففي إحدى الزيارات ورد عنهم عليهم السلام: ‹‹ولكم القلوب التي تولى الله رياضتها بالخوف والرجاء، وجعلها أوعية للشكر والثناء››[1].

المعصوم لا ينقطع عن الله تعالى

وقد أبرز القرآن الكريم ملازمة اقتران ذكر الآخرة بهم، وعدم انفكاك ذلك عنهم عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾(ص:٤٥-٤٦) وأنّ ذلك كالاصطفاء ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾(ص:٤٧) والأمر كذلك في شأن أهل البيت عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾(الإنسان:١٠) وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾(الأحزاب:٣٣) أي أنه اقترن ذكر

---

[1] – بحار الأنوار للمجلسي ج٩٩ ص١٦٤.

الدار الآخرة مع الاصطفاء، وأن كل حركة وسكون يرتبط بذلك، بخلاف غير المعصوم فليست الدار الآخرة هي الكعبة الحقيقية التي ينجذب إليها، أما المعصوم فإنه ينجذب كالمغناطيس إلى جهة الشمال، بل لا يلتفت إلى غير الله تعالى والدار الآخرة، وكل ما عدا الله تعالى والدار الآخرة لا يراه المعصوم، وقد أوضح الإمام أمير المؤمنين عليهم السلام ذلك عندما قال لابن عباس: ‹‹ما قيمة هذا النعل؟›› فقال ابن عباس: لا قيمة لها، قال عليه السلام: ‹‹والله لهي أحب إلي من امرتكم إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً››[1]، أي: أنّ ما يفعله المعصوم عليه السلام يتمحور في إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

العصمة في المدارس الأخرى

مدرسة أهل البيت عليهم السلام

إن العصمة سمة بارزة في الرسل والأنبياء والأوصياء، وذلك معتقد في مذهب أهل البيت عليهم السلام، أما عند غيرهم فلا بأس أن يقترف الرسول والنبي بعض الكبائر قبل بعثته ونبوته، وقد ركّز أهل البيت عليهم السلام في أحاديثهم بأن الإمام له ذوبان تام في الحق تعالى وليس له إرادة في قبال إرادته تعالى.

المدارس الأخرى

إن الفكر المستقى من غير مدرسة أهل البيت عليهم السلام يرى خلاف ذلك، والشرائع السماوية السابقة – اليهود والنصارى – ينسبون الذنوب والمعاصي إلى الأنبياء، والنصارى وإن نزهوا عيسى عليه السلام إلا أن إيمانهم بالتوراة يجعلهم لا ينزهون الأنبياء، وتقديس عيسى عليه السلام منهم لأنهم يرونه جزءً من ذات الحق تعالى، أما اليهود فتأريخهم مشحون بالافتراءات على أنبيائهم، ولايؤمنون بعصمتهم، بل يرون أنهم اقترفوا الزنا وشربوا الخمر وصدرت منهم الكبائر، والتوراة مليئة بالافتراءات على الرسل والأنبياء.

تميز مدرسة أهل البيت عليهم السلام في العصمة

إن العصمة بهذا النحو خصيصة بمن ينتمي لمذهب أهل البيت عليهم السلام، لوجود دلائل عليها منذ نعومة أظفار المعصوم إلى آخر لحظة من حياته، لا يقترف معصية، بل يجسد تأريخه النصاعة بأجلى صورها، وقول بعض المسلمين بجواز اقتراف الكبائر على النبي صلى الله عليه وآله قبل بعثته خطأ، وكذلك قول بعض بجواز اقتراف الصغائر بعد البعثة خطأ أيضاً، والصحيح ما يقوله أتباع أهل البيت عليهم السلام

---

[1] – نهج البلاغة –خطب الإمام علي (ع)- ج١ ص٨٠.

من أن الأنبياء والرسل والأوصياء لا تصدر منهم صغائر ولا كبائر، لا قبل البعثة ولا بعدها، إذ أن عصمتهم مطلقة في تلقي الوحي وتبليغه وتطبيقه، وعليها آيات ودلائل تفصح عن نزاهتهم، ولعل ما أوردناه عن علي عليه السلام في شأن المصطفى صلى الله عليه وآله من أنّ الله تعالى قرن به ملكاً من أعظم ملائكته منذ أن كان فطيماً دليل على أنه لم يصدر منه صلى الله عليه وآله شائبة أو عائبة تنقص قدره صلى الله عليه وآله وتدلل على انخفاض رتبته والأمر كذلك في الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

القسم العاشر: حيثيات الخطاب القرآني والعصمة.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(الأنعام:٦٨) صدق الله العلي العظيم.

كيفية فهم الآيات القرآنية

قد يستدل ببعض آيات القرآن الكريم على أنّ الرسل والأنبياء والأوصياء يقعون في الاشتباه، بل يرتكبون المعصية، والآيات تشير إلى ذلك، غير أنه ينبغي الالتفات إلى أنّ آيات القرآن الكريم لا ينبغي أن تفهم من ظهورها البدوي، بمعنى أنّ الظهور الذي يبدو لأول وهلة، لابد من التأمل في سياقه وضم بعض الآيات إلى بعضها الآخر، وبالتأمل والجمع بين الآيات يتجلى المعنى المراد بالآية.

الشيطان لا يتغلب على المعصوم

الآية التي أوردناها استظهر بعض منها أنّ النبي ص خاض في الباطل، وأن الشيطان قد أنساه ثم تذكر، ومعنى ذلك أنّ الشيطان يتغلب عليه ويوقعه في الإثم.

اشتراك المعصوم في توجه الخطاب

وينبغي هنا أن نلتفت إلى أنّ الخطابات القرآنية تفصح عن أنّ التكاليف الشرعية عامة تشمل النبي صلى الله عليه وآله والأمة، والنبي صلى الله عليه وآله مكلف من المكلفين، ولا يختص التكليف بالأمة دونه صلى الله عليه وآله، بل يوجه الخطاب بنحو عام يشمله صلى الله عليه وآله، وعليه فإنّ الأوامر والنواهي تعمه صلى الله عليه وآله، وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾(البقرة:٨٣) لا يختص بالأمة دونه، بل قد يوجه الخطاب إليه ويراد به الجميع، دون اختصاص به صلى الله عليه وآله، وهنا وُجه الخطاب

لكل مكلف من المكلفين بأنّ عليه إذا رأى من يخوض في آيات الله تعالى بالباطل أن يعرض عنه ويتجنب الخوض معه في ذلك، أما إذا نسي والتفت فعليه أن يبتعد، لئلا يكون من القوم الظالمين.

توجيه الخطاب للمعصوم لا يدل على المعصية

والآية لا يظهر منها أنّ النبي ص خاض في الباطل أو اقترف محظوراً، وإنما عموم الخطاب ليشمل الجميع، والتكليف على نحو العموم لا يدل على أنّ جميع المكلفين اقترفوا محظوراً.

ويتضح المعنى بالبيان التالي:

فإذا قيل كل من دخل المسجد ونسي التشهد عليه أن يسجد سجدتي السهو، فلا يدل على أنّ الجميع نسي التشهد، والخطاب القرآني له حيثيات لا يلتفت إليها إلا بضم بعض الآيات إلى بعضها الآخر، لأنّ الآيات يوضح بعضها بأنّ النبي صلى الله عليه وآله مصون من الوقوع في الخطأ ومؤيد بفضل الله تعالى، ولا يمكن أن يصدر منه الخطأ والضلال للتأييد الإلهي له صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء:١١٣).

تنزيه المعصوم عن الشرك

ومن الآيات التي استدل بها على إمكانية الوقوع في الشرك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الزمر:٦٥).

عموم الخطاب القرآني

الخطاب عام كالسابق، فمن أشرك بالله تعالى بأحد أقسام الشرك، وبأي ضرب من ضروبه سيحبط عمله، وتذهب أعماله الصالحة هباءً منثوراً لا قيمة لها، وليس معنى ذلك بأنّ النبي صلى الله عليه وآله قد يشرك بالله تعالى، معاذ الله من ذلك.

توجيه الخطاب للنبي لإبلاغ المكلفين

إنّ توجيه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله لإبلاغه إلى المكلفين لا يراد به بأنّه صلى الله عليه وآله قد يقترف محظوراً، نعم؛ من نظر نظرة ساذجة دون تأمل، قد يفهم ما يتنافى مع عصمته صلى الله عليه وآله، أما إذا تأمل وأمعن النظر في الآيات الأخر، اتضح له جلياً بأنه لا يراد بالآية أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد يقع في الشرك.

المعصوم لا يعتريه النسيان

ومن الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾(الكهف:٢٣-٢٤)، وهي على وزان الآيات السابقة.

استحالة وقوع النسيان للمعصوم

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾(الكهف:٢٤) الآية غير دالة على أن النبي صلى الله عليه وآله قد نسي، إذ من المحال أن ينسى ذكر الله تعالى أو أن يغفل عنه طرفة عين، وقد أوضحت الروايات بأنّ الخطاب موجه للأمة.

حيثيات الخطاب القرآني

إنّ توجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله لإبلاغه إلى المكلفين، وشموله له لا يدل على نسيانه صلى الله عليه وآله، لأن عموم الخطاب شيء واتصاف النبي صلى الله عليه وآله بالنسيان شيء آخر، والمثال السابق أوضح ذلك. كل من دخل المسجد ونسي التشهد عليه أن يسجد سجدتي السهو. فرغم أنّ الخطاب للجميع ولكنهم لا يتصفون به جميعاً، بل يصدر النسيان من بعضهم، والأمر هنا كذلك.

تفسير النسيان في حق المعصوم

أوضح القرآن الكريم بأنّ النبي صلى الله عليه وآله لا ينسى، قال تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ۞ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾(الأعلى:٦-٧) فلا يدل على أنه يتصف بالنسيان.

المعصوم أوضح دليل على الله تعالى

بل يشير إلى معنى عميق هو أنه لا ينسى لأنه أعظم دليل يدل على الحق تعالى، وهو الأكمل فلا ينسى.

الله تعالى مفيض النعم بدءً واستمراراً.

يفصح الاستثناء عن أنّ القدرة التي يتمتع بها أي فرد من الرسل والأنبياء والأوصياء وسائر الخلق هي إفاضة ونعمة من الله تعالى، وهي بنحو دائم ومستمر بمعنى أنّ الله تعالى يعطي النعمة بدئاً واستمراراً وهو تعالى قادر على سلبها من المعطى مهما كانت رتبته، لا فرق في ذلك بين نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا وصي من المعصومين، الكل في ذلك سواء لهيمنة قدرة الحق تعالى، وشمولها التام وعمومها الكامل.

لا استقلالية للمعصوم

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إيضاح وبيان لهذا المعنى أي أنه تعالى أعطى هذه الخصيصة وهي الذكر وعدم النسيان منة ونعمة، وله القدرة تعالى على سلبها في أي لحظة، وليست القدرة بيد الأنبياء والرسل والملائكة، بل ترجع كلها إليه تعالى فهو المعطي، وإنْ شاء سلب ما أعطى فله ذلك، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

الإحاطة والهيمنة المطلقة لله وحده

والاستثناء للتدليل على هذا المعنى وإيضاحه وكي يتبين ذلك بجلاء، ويتضح بمعرفة فإنّ كل من دخل الجنة خلد فيها، فلا يدخلها أحد، ويمكث مدة ثم يخرج منها، بل خلود دائم، وكذلك من كفر بالله تعالى خلد في النار، لا يخرج منها، المؤمنون الصادقون يدخلهم الله تعالى الجنة ويخلدون فيها مع وجود الاستثناء في القرآن الكريم للتدليل على الإحاطة التامة والهيمنة الكاملة والقدرة المطلقة لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾(هود:١٠٨) أي أنّ كل من سعد بتقوى الله تعالى بالطاعة وترك المعاصي سيدخل الجنة ماكثاً فيها لا يخرج منها، وقد جاء الاستثناء ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(هود:١٠٨) وليس معناه أنّ الله تعالى يخرج أهل الجنة منها، ليكون الاستثناء متنافٍ مع قوله تعالى ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ إذْ معنى "غير مجذوذ" غير مقطوع بل دائم مستمر، إذْ جذ الشيء قطعه، والاستثناء هنا لإيضاح أنّ الجنة التي يخلد فيها المؤمنون وينعم بها المخلصون، عطاء مستمر من الله تعالى، وله القدرة تعالى على إخراج أهلها منها، وذلك هو معنى الاستثناء في الآيات،

لرد ما زُعم من اليهود بأنّ يد الله تعالى مغلولة أي أنه تعالى إذا خلق شيئاً فهو غير قادر على تغييره، إنّ القرآن يؤكد بأنّ التصرف التام بنحو مطلق له تعالى، ومن أدخله الجنة قادر على إخراجه منها، لكن ذلك يتنافى مع حكمته تعالى، فلا يخرج من أُدخل فيها، مع استمرار قدرته تعالى على ذلك.

التحقيق في معنى نسيان المعصوم

الأمر الآخر هو أنّ بعض الآيات القرآنية أسندت السهو والنسيان والمعصية لبعض الأنبياء، ولابد أن نفهم المعنى المراد بنحو يتناسب مع المقام لأنّ تفصيل ذلك يحتاج إلى بحث مطول، وقد ألف بعض العلماء كتاباً في نفي سهو الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وعدم اقتراف معصية منهم عليهم السلام، والبحث واسع في هذا المجال غير أننا نختزله ليتناسب مع ما نحن فيه، ولرد من قال بأنكم ترون شيئاً يظهر من القرآن الكريم خلافه، لأنّ آيات القرآن تسند السهو والنسيان والمعصية إلى أنبياء الله تعالى.

الظهور البدوي لا يلتفت إليه

قبل الإجابة علينا أن نتذكر بأنّ معاني الآيات القرآنية لا تظهر إلاّ بالجمع بين بعضها وبعضها الآخر، أما ظهورها البدوي فلا يلتفت إليه، إذْ قد يراد باللفظ معنى آخر.

حسنات الأبرار سيئات المقربين

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾(طه:١١٥) إنّ آدم عليه السلام عهد الله تعالى إليه بأمر فنسي، ولم تكن عنده عزيمة وقوة إرادة، أي أنه عصى، والعصيان والنسيان وردا في القرآن الكريم منسوبان إليه، ولكي يتضح المعنى نبين قاعدة أخلاقية هي أنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهي واضحة في العرف، فإذا كان هناك عالم تقي في أعلى درجات التقوى، وفعل شيئاً لا يتناسب مع علمه وتقواه، نقول له –حتى أنت يصدر منك ذلك– أي لا يليق بعلمك وتقواك أن يصدر ذلك منك، وقولنا لا يليق بك أن تفعل كذا لا يدل على أنه فعل حراماً بل على عدم اللياقة وعدم استحسان اتصافه بذلك، أما إذا فعل الشيء غيره فلا بأس، ولا يقال له لا يليق بك، فما يفعله العالم التقي من أمر حسنة لغيره وسيئة له، –حسنات الأبرار سيئات المقربين– والشيء الذي يقرب غيره إلى الله تعالى لا يليق به لعلو درجته وشدة تقواه، والشخصيات القريبة من الله تعالى حسنات غيرهم سيئات لهم لأنّ اللائق بهم هو الأعظم الأكمل، لاختلاف مقامهم عن غيرهم.

ترك المعصوم للأولى

معصية آدم عليه السلام هي ترك أولى، كترك بعضٍ لصلاة الليل الذي قد لا يضير في حقه، لكنه سوء في حق العالم التقي، لا يناسبه ذلك، بل قد تكون كالفرائض له، أما سائر الناس فالأمر ليس كذلك، ولذا كان قيام الليل مفروضاً على النبي صلى الله عليه وآله قال تعالى: ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(المزمل:٢)، لأنّه المناسب لمقامه صلى الله عليه وآله.

معنى النسيان:

يأتي النسيان لغة بمعنى الترك ولا يراد به عزوب الصورة عن الذهن بل هو في حق آدم بمعنى الترك، أي أنه لم تصل إرادته إلى ما يناسب مقامه، فآدم عليه السلام لرفعة مقامه وعلو شأنه وعظيم منزلته نسي أي ترك، ولا يناسب ذلك علو رتبته، فعمل عليه السلام ما لا يليق بشخصيته، ولم يعصِ بالمعنى المتعارف لأنه خليفة الله وحجته وبديع القدرة كما جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام.

النسيان من غير المعصوم

أما النسيان في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾(الكهف:٦١) فهو بمعنى صحة النسبة إلى موسى لمعية الغلام، فإذا كان معك أحد في الطريق، وعهدت إليه بالمحافظة على شيء، ففرط فيه ثم سُئلت عنه، صح في الإجابة أن تنسب ذلك لك، فتقول: لقد فرطنا في الحفظ، والحال أنّ التفريط كان من غيرك، إلاّ أنّ النسبة تصح للمعية، والآية كذلك، فالغلام نسي الحوت، ولكنه مع موسى فجاز إسناد الخطاب إليهما لغة.

وهناك آيات على هذا السياق علينا أن نلتفت إلى معانيها.

القسم الحادي عشر: العصمة المطلقة في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾(النجم:٣)، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾(الحشر:٧) صدق الله العلي العظيم.

هل المعصوم يسهو؟

أوضحنا فيما تقدم بأنّ بعض الآيات قد تفسر بما يتنافى مع العصمة، غير أن التأمل في معانيها والجمع بينها وبين الآيات الأخرى يوصلنا إلى المعنى المراد منها، والنتيجة هي أن القرآن الكريم يثبت عصمة الرسل والأنبياء عليهم السلام بوضوح، نعم؛ هناك بعض الروايات دلت على أنّ النبي صلى الله عليه وآله سهى في صلاته، وقيل: إذا سهى في الصلاة ففي غيرها من باب أولى، لأنه متوجه إلى الله تعالى في الصلاة، ومع ذلك سهى، فسهوه في الأحكام الشرعية من باب أولى، وقد دلت عليه الروايات عند الفريقين.

الآراء في سهو المعصوم:

الأول: ثبوت سهو المعصوم

اتفق العامة على سهوه صلى الله عليه وآله اعتماداً على الروايات، غير أنّ أكثرها ضعيف سنداً، نعم هناك رواية صحيحة السند تقول بسهوه صلى الله عليه وآله علينا أن نفهم مغزاها.

الثاني: سهو المعصوم إسهاء.

يتضح فهم المعنى بمعرفة الفرق بين السهو والإسهاء، فالسهو من الشيطان إذا غفل الإنسان عن ذكر الله تعالى تسلط عليه الشيطان فأنساه.

أما الإسهاء فقد يكون من عند الله تعالى، أي يسهي الله تعالى شخصاً لمصلحة ترجع إليه أو لغيره، وعليه يكون الفرق بين السهو والإسهاء هو أن السهو من الشيطان والإسهاء قد يكون من عند الله تعالى، لذا ذهب بعض بأنّ النبي صلى الله عليه وآله أسهي من الله تعالى، ولم يسهو كسائر الناس لأنه لا يغفل عن ذكر الله تعالى فيسهو، وإنما أسهاه الله تعالى لمصلحة ترجع إلى تعليم الناس.

وقد حمل بعض علمائنا الرواية الصحيحة على الإسهاء من عند الله تعالى له صلى الله عليه وآله لمصلحة التعليم.

الثالث: لا تواتر يثبت السهو.

وينبغي قبل الإجابة أن نلتفت بأن نسبة الإسهاء للنبي ص تتوقف على ثبوت الروايات وحجيتها في العقائد.

والروايات في المقام لم تثبت، نعم ثبتت رواية واحدة أو اثنتان ولا يمكن إثبات مطلب عقدي بالاتكاء على رواية واحدة، فنسبة الإسهاء إلى النبي صلى الله عليه وآله لا تجوز وكذلك السهو من باب أولى، وقد أجمع علماؤنا بأنّ العقائد لا تثبت بروايات الآحاد، نعم؛ لو كانت الروايات متواترة أمكن حمل السهو على الإسهاء، غير أنّها لا تحمل على هذا المعنى لعدم تواترها، بل أنّ أكثرها ضعيفة، وضعف سندها كافٍ لردها، والقليل منها لا يعتمد عليه في إثبات مطلب عقدي بإجماع الطائفة.

إبطال وقوع الإسهاء من المعصوم

وعليه لا نستطيع القول بأنّ الله تعالى أسهى النبي صلى الله عليه وآله لأجل مصلحة التعليم لأنّ وظيفته صلى الله عليه وآله هي التعليم، فلا نحتاج إلى الاسهاء لإثبات أنه معلم، لأنّ الناس يتقبلون ذلك منه دون أن يقع في السهو أو الإسهاء.

أقوال العلماء في نفي الإسهاء

ذهب جل علمائنا إلى القول بنفي الإسهاء ولم يفسروا الرواية الصحيحة السند بحملها على الإسهاء، قال المفيد يرحمه الله:

"الحديث الذي روته الناصبة والمقلدة من الشيعة بأنّ النبي صلى الله عليه وآله سها في صلاته فسلم في ركعتين ناسياً فلما نبه على غلطه فيما صنع، أضاف إليها ركعتين ثم سجد سجدتي السهو، من أخبار الآحاد التي لا تثمر علماً ولا توجب عملاً" [1].

أي أنّ ذلك لا يكفي في العقائد، ولا يمكن أن يرتب أثراً عملياً عليه.

وأفتى الشيخ الطوسي بأنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يسجد سجدتي السهو، فقد روى رحمه الله "عن زرارة قال سألت أبا جعفر عليه السلام: هل سجد رسول الله صلى الله عليه وآله سجدتي السهو قط؟ فقال: لا ولا يسجدهما فقيه.

قال محمد بن الحسن: الذي أفتي به ما تضمنه هذا الخبر، فأما الأخبار التي قدمناها من أن النبي صلى الله عليه وآله سها فسجد فإنها موافقة للعامة وإنما ذكرناها لأن ما تتضمنه من الأحكام معمول بها على ما بيناه"[2].

---

[1] – عدم سهو النبي (ص) للمفيد ص٢٠.

[2] – تهذيب الأحكام للطوسي ج٢ ص٣٥٠-٣٥١.

وقال صاحب التجريد المحقق الطوسي: "ويجب في النبي صلى الله عليه وآله العصمة ليحصل الوثوق"[1] بمعنى أنه إذا كان يسهو ولو بالإسهاء، فلا يدري المكلف أنّ هذا إسهاء من عند الله أو سهو من النبي صلى الله عليه وآله، فلا يحصل الاطمئنان والوثوق بقوله صلى الله عليه وآله، وقال يرحمه الله: "ويجب كمال العقل والفطنة وقوة الرأي وعدم السهو"[2].

العصمة المطلقة في القرآن:

إننا لا نحتاج إلى أقوال العلماء لإثبات عدم السهو والإسهاء لوجود آيات واضحة في دلالتها على عصمتهم عليهم السلام المطلقة.

القرآن يثبت العصمة المطلقة

الآيات تفيد القطع واليقين في إثبات أنّ الرسل والأنبياء والأوصياء معصومون مطلقاً، إذْ لو لم يكونوا كذلك لتنافى مع الغرض الذي من أجله أعطاهم الله تعالى ذلك المقام.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ (النجم:٣) أي أنّ النبي صلى الله عليه وآله إذا نطق بشيء فلا ينطق به عن هوىً من نفسه بل أنّ الله تعالى جعله مصوناً عن الانحراف ليسير على الصراط المستقيم.

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٤) فتعليمه صلى الله عليه وآله من الله تعالى، ولقد جاء بعض المشركين وتحاور معه صلى الله عليه وآله في الأحكام كتبديل الصلاة، فردّ صلى الله عليه وآله بما ورد في القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ (يونس:١٥) أي لا يمكن أن يذهب يميناً وشمالاً بل يسير في الصراط المستقيم.

الحكمة تقتضي العصمة

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف:٩) وفي الآية بحثان:

---

[1] – كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للحلي (تحقيق الزنجاني) ص١٥٦.

[2] – كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للحلي (تحقيق الزنجاني) ص١٥٦.

الأول: أنّه صلى الله عليه وآله يتبع الوحي، ولا يمكن أن يسير على خلافه قيد أنملة.

الثاني: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ إشارة إلى المطلب الذي تقدم بأنّ الاستثناء يوضح أنّ ما لديهم من قدرات ورتب نعمة من الله تعالى ولا يستند أحد منهم عليهم السلام إلى ذاته مستقلاً، وقد أكّد القرآن بأنّ المنح الإلهية التي يعطيها الله تعالى الرسل والأنبياء من عند الله تعالى، وإنْ شاء سلبها، فله تعالى القدرة على سلبها في أي لحظة ولكنه لا يفعل ذلك لكونه يتنافى مع حكمته في إيصال الهدي والرشاد إلى العباد.

ولعل أحد يستدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ على أنه صلى الله عليه وآله لا يعلم، غير أنّ ذلك ليس بدليل بل إشارة إلى ما شرحناه، وهو أنّ النبي صلى الله عليه وآله يحيط بالقرآن قبل أن ينزل عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤) أي أنه صلى الله عليه وآله له إطلاع على آيات القرآن قبل أن تنزل عليه نجوماً متفرقة في أزمنة مختلفة، لأنّ القرآن أنزل عليه جملة واحدة في ليلة القدر، وله صلى الله عليه وآله الإحاطة التامة بمعانيه، ولكن الله تعالى ينهاه أن يتعجل بها.

العصمة في تطبيق الأحكام:

أما تطبيق الأحكام فإنه مهمة لرسول الله صلى الله عليه وآله والأنبياء عليهم السلام، لذا لم يخطئ صلى الله عليه وآله ولا يخطئون، والروايات دالة على أنّ السهو مردود بالقرآن الكريم بنحو قاطع لا يدع مجالاً لأحد أن يقول بأنّه صلى الله عليه وآله أخطأ في تطبيق حكم.

الخطأ في التطبيق يسلب المصداقية:

لأنّ ذلك يسلبه الوثوق، فيرى الناس بأنّ ما أخبر به لعله ليس هو ما أوحاه الله تعالى إليه، لذا لا يسهو في الأحكام ولا في تطبيقاتها ولا في تلقي الوحي، والله تعالى أمر المكلفين بأن يسلموا تسليماً لحكمه صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب:٣٦) فإذا حكم صلى الله عليه وآله بشيء لا يجوز رده، بل يجب التسليم لحكمه لأنّ رده يساوي عدم الإيمان، لذا شجب بعض الأنصار ما صدر من بعضهم عندما حكم الرسول ص بتقسيم الفيء بعد غزوة الطائف، وقال بعض: "أما رسول الله

لقد لقى قومه" أي أنه صلى الله عليه وآله آثارهم وحباهم على الأنصار، فتدارك قومه ذلك فيما بعد بأنّه غلام لم يفقه.

حكم المعصوم هو حكم الله تعالى

يرد القرآن الكريم جميع الأقوال ويثبت أنّ النبي صلى الله عليه وآله حكمه حكم الله تعالى، ولا ينبغي لمؤمن أن يتردد في حكمه صلى الله عليه وآله لأنّه حكم الله تعالى القاطع الذي لا ريب فيه، ولو كان صلى الله عليه وآله يشتبه أو يخطأ في الحكم أو في تطبيقه كما إذا أراد أن يقضي بين خصمين أو يأتي بعبادة أو معاملة على خلاف ما يريده الله تعالى فإنّ التشكيك سيمتد إلى تلقي الوحي فيقال لعله اشتبه، ولعل ما تلقاه ليس بوحي، لذا فإنّ الأحكام تؤخذ منه صلى الله عليه وآله بنحو الجزم والوثوق كما صدع القرآن بذلك.

الإيمان والعصمة:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:٣٣) أي أنه صلى الله عليه وآله لا يشتبه ولا يغلط وحكمه هو ما يريده الحق تعالى قطعاً ويقيناً.

لا إيمان لمن ينفي العصمة

إذن قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (النساء:٦٥) إفصاح بعدم إيمان من لم يعتقد في حقه صلى الله عليه وآله أنّ حكمه ص حكم الله تعالى.

ضرورة التسليم التام بالعصمة:

إنّ على المسلم أن لا يجد في نفسه حرجاً مما حكم به النبي ص ويسلم تسليماً، وإذا لم يرَ نفسه كذلك عليه أن يشكّ في إيمانه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء:٦٥) أي لا اعتراض على ما صدر من حكم عنه صلى الله عليه وآله.

عدم الاعتماد على ما لا يوجب اليقين:

نعم؛ بعض الآيات من المتشابه لكننا إذا أرجعناها إلى المحكم اتضحت بأجلى ما يكون من الوضوح، والحديث إذا ورد بسند صحيح لدينا ردّ للأجماع من علمائنا على أنّ العقائد لا تؤخذ بحديث الواحد، وأنّ حديث الواحد لا يغني علماً ولا يوجب عملاً، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:٧) فأفصح بأنّ النبي صلى الله عليه وآله إذا صدع بأمر ليس لأحد أن يتردد بل عليه أن يتبع ما قاله صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:٧) أي أنّ ما أوصله إليكم أو بلغكم به وجب أخذه، والأحاديث المخالفة وإنْ قال بها بعض لكنه اشتباه.

ضوابط الدليل المعتمد:

إنّ الميزان في قبول المعنى ليس صدوره من عالم بل انطباق القواعد عليه وإلاّ ردّ وإنْ كان موجوداً في الكتب المعتبرة لأنه قد يتنافى مع آيات القرآن الكريم، وقد يتنافى مع صريح العقل، وحمل الحديث هنا على الإسهاء من قبل الله تعالى لا ينسجم مع الأدلة القطعية.

الولاية لأهل البيت عليهم السلام

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة:٥٥) صدق الله العلي العظيم.

يطيب لي في هذه المناسبة العطرة والذكرى الميمونة لميلاد أمير المؤمنين عليه السلام أن أقف بين أيديكم مهنئاً ومباركاً بهذا المولود العظيم الذي يُمثل نبراساً يُضيء العالم الإسلامي.

لمولد الأئمة من أهل البيت عليهم السلام دلالات عظيمة وكبيرة، سنقف في هذه الذكرى العطرة حول تجلية مفهوم الولاية لعلي وآله عليهم السلام.

محاور الولاية لأهل البيت عليهم السلام.

لولاية أهل البيت عليهم السلام محاور ثلاثة:

المحور الأول: الولاية الكونية.

نعتقد أنّ للأئمة من أهل البيت عليهم السلام ربطٌ وثيق بالنظام الكوني القائم، وقد وردت روايات متعددة وكثيرة توضح هذا المعنى، ولعل حديث الكساء يُبلور لنا ارتباط النظام الكوني بالنبي صلى الله عليه وآله وبالأئمة من أهل البيت عليهم السلام ، ولكنني سوف أُشير بإيجاز إلى إيضاح هذا المعنى.

لا يخفى على أحدٍ أنّ الله تعالى خلق الخلق لأجل إيصالهم إلى السعادة التي لا تتأتى إلا عَبرَ معرفة الله والالتزام بالقانون الإلهي، وقد أشار الذكر الحكيم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات:٥٦-٥٨)، أي أنّ الله خلق الخلق ليعبدوه، لكن العبادة لا تتحقق دون معرفته تعالى، ومعرفته سبحانه تتأتى عَبرَ طريقين:

الأول: العقل.

الثاني: الوحي.

قال إمامنا الكاظم عليه السلام: ((يا هشام إن لله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة ، وأما الباطنة فالعقول))[١] لأنّ العقل وحده لا يستطيع أن يوصل الإنسان إلى إدراك عوالم الغيب، فكان الوحي هو الرافد الأساس، والركيزة التي تقوم عليها معارف الإنسان في تشكيله لمفاهيمه المرتبطة بعوالم الغيب، من هنا بعث الله تعالى الأنبياء والرسل، وهذا ما يشير إليه إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة و في غيره من كلماته الخالدة عندما قال: ((فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم منسي نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويثيروا لهم دفائن العقول ، ويروهم آيات المقدرة))[٢] أي أنّ وجود الأنبياء مع العقل يشكل الرافد الأساس الموصل للإنسان إلى المعرفة الكاملة، التي تُحقق له الاطمئنان، وبالتالي السير على جادة الصواب الموصلة إلى الله تعالى. ولاستمرارية هذا السير إلى الله في النظام الكوني جعل النبي صلى الله عليه وآله حفظة وأُمناء على الوحي وهم الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، كي يصل الإنسان أو بعض من الناس إلى المعرفة والسعادة، وتشير بعض الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام إلى ذلك: ((إنما خلقت الخلق ليربحوا علي ، ولم أخلقهم لأربح عليهم))[٣] أي ليحصلوا على ما يريدون منه، وليس له غرض من خلقهم فيستكمل بهم، لأنه الغني المطلق عنهم وعن خلقهم. ونرى في بعض الأدعية وصفاً لإمامنا المهدي عليه السلام: ((بيُمْنِه رُزق الورى))[٤] أي أنّ استمرار وديمومة النظام الكوني لهما ارتباط بوجود الإمام المهدي عجل الله فرجه، لكونه من أُمناء الوحي والحفظة الذين نصّ عليهم النبي صلى الله عليه وآله.

---

[١]- وسائل الشيعة للحر العاملي ج١٥ ص٢٠٧.

[٢]- ميزان الحكمة للريشهري ج٤ ص٣٠٠٨.

[٣]- جامع السعادات للنراقي ج١ ص٢٢٨.

[٤]- مفاتيح الجنان – دعاء العديله ، في كتاب: المزار للمفيد ص١١١: (وبكم ينزل الغيث).

إذاً اتضح لنا من هذا المحور ارتباط الولاية لأهل البيت عليهم السلام باستمرار وديمومة النظام الكوني. كما أننا نعتقد أنه لولا إرادة الله للإنسان أن يصل إلى معرفته، من خلال الالتزام بالقانون الإلهي، الذي يوصل إلى السعادة، لَمَا خلق الله الخلق. فإنّ الله تعالى خلق الخلق كي يصلوا إلى معرفته عبر الطريق المستقيم الذي أكد عليه القرآن: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام:١٥٣).

المحور الثاني: الولاية الإدارية والاجتماعية.

ويراد بذلك أنّ الأئمة من أهل البيت عليهم السلام يديرون الناس، لأن النظام الإداري معناه أنه إذا سِير في المجتمع على وفق الشريعة المقدسة زال الخطأ وتحقق الصواب واستقر الأمن، قالت الصديقة الزهراء عليها السلام: ((وإمامتنا أماناً من الفُرقة))[١] أي يتحقق الأمن التام والكامل بإمامة أهل البيت من الناحية الاجتماعية والسياسية، لكون الإمام هو الولي بمقتضى ما جاء من أحاديث في ولاية أهل البيت، إذ الإمام المعصوم هو القائد العام للمجتمع البشري وهو الذي يستطيع أن يُوصل السفينة بما فيها إلى شاطئ الأمان وساحل النجاة، ويضع كل شيء في مكانه المناسب له، بمقتضى النظام الكوني المنسجم مع إرادة الله تعالى، لا بمقتضى الهوى، ورد في أدعية شهر رجب ((لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك فتقها ورتقها بيدك، بدؤها منك وعودها إليك، أعضادٌ وأشهادٌ ومُناةٌ وأذوادٌ وحفظةٌ ورواد، فبهم ملأت سماءك وأرضك حتى ظهر أن لا إله إلا أنت))[٢] أي أنّ ظهور التوحيد المطلق لله تعالى يتحقق بالولاية التي يراد بها القيادة العامة للمجتمع البشري من لدُن المعصوم عليه السلام، وقد وردت أحاديث متعددة عن النبي صلى الله عليه وآله تُجلّي هذه الحقيقة، لعل حديث الغدير في مقدمة الأحاديث، التي تركز على الجانب الإداري والسياسي العام لرتبة المعصوم عليه السلام.

المحور الثالث: الولاية الثقافية والعلمية.

هذا محور هام، ينبغي أن نُفيض فيه قليلاً، كان النبي صلى الله عليه وآله يعلم بمجريات الأحداث، وبأنّ المستقبل يُخبّئ أموراً تجاه أهل البيت (عليهم السلام)، ويعلم أيضاً أنّ كثيراً من الناس لا يريدون الحق، وإنما يريدون الهوى، و ينطلقون من أنفسهم، و لا ينطلقون من منطلق الشارع المقدس، و

١- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٩ ص٢٣٣.

٢- مصباح المتهجد للطوسي ص٨٠٣.

هناك أحاديث متعددة عنه صلى الله عليه وآله توضح ذلك، حتى أنه صلى الله عليه وآله بكى عدة مرات عندما كان يُحدِّث بأحاديث في علي عليه السلام، وكأن الحديث يُبين جانباً، والبكاء يُبين جنبة أخرى ترتبط بالجانب العملي ومجريات الأحداث التي سوف تمُر على أهل البيت عليهم السلام في المستقبل، لكن النبي صلى الله عليه وآله كان يؤكد على المعنى الدقيق لولاية أهل البيت من خلال هذا المحور، الذي كثُرت فيه الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وآله في مصادرنا، بل في مصادر العامة أيضاً، لتبين مرجعية أهل البيت من الناحية الثقافية والعلمية والفكرية، وأن المعصوم عليه السلام نرجع إليه في كل استفهام يتعلق بالقرآن الكريم، وكذلك يقوم المعصوم بتحديد الموقف العملي تجاه أي مفردة من المفردات في الناحية العملية، التي نُبْتلى فيها مع الآخرين أو مع أنفسنا، في جميع المعاملات، وقد ركز صلى الله عليه وآله على هذا المحور أيَّما تركيز، من خلال عشرات الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وآله، وبين أهمية المرجعية لأهل البيت وضرورة الرجوع لعلي وآل علي في الأخذ بالأحكام، وبجميع ما يتعلق بشؤون الإنسان من الناحيتين الدينية والدنيوية، ولكوننا نعتقد أنّ الدين هو عقيدة ينبثق عنها نظام يتكفل بجميع ما يحتاجه الإنسان في دنياه وأُخراه، كانت الأحاديث تركز على المرجعية الثقافية والعلمية لعلي عليه السلام و تركز أيضاً على نفس الجانب في بقية الأئمة عليهم السلام إلى الإمام المهدي عليه السلام، لأنّ استمرار الإمامة لا ينقطع، وقد ورد في الحديث : ((كنت انا وعلي نورا بين يدي الله تعالى من قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر الف عام، فلما خلق الله تعالى آدم، سلك ذلك النور في صلبه فلم يزل الله تعالى ينقله من صلب إلى صلب حتى أقره في صلب عبد المطلب، فقسمه قسمين: قسما في صلب عبد الله، وقسما في صلب أبي طالب، فعلي مني وأنا منه، لحمه لحمي، ودمه دمي، فمن أحبه فبحبي أحبه، ومن أبغضه فببغضي أبغضه))[1]، وهذا يُبين قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤) وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر:٧)، إذاً كان النبي صلى الله عليه وآله يُوضح في الحديث السابق أنّ مقامه في عوالم الغيب كان مع علي، كما أنه في عالم الشهادة أيضاً مع علي عليه السلام، فأمرُ علي أمرُ محمد، وأمرُ محمدٍ أُمر علي، وذلك معنى قوله صلى الله عليه وآله في حديث آخر: ((علي مع الحق والحق مع علي، يدور معه حيثما دار))[2]، لأن الإمام عليه السلام يُجسد الحق

١- المناقب للخوارزمي ص١٤٥-١٤٦.

٢- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٣٨.

بكل أبعاده، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((إن فوق الصراط عقبة كؤودا طولها ثلاثة آلاف عام الف عام هبوط والف عام شوك وحسك وعقارب وحيات والف عام صعودا أنا أول من يقطع تلك العقبة وثاني من يقطع تلك العقبة علي بن أبي طالب))[1]، ومعنى ذلك أنّ الإنسان لا يمكن أن يجتاز الصراط إلا إذا صحت عباداته ومعاملاته، وكانت المفاهيم التي أخذها عن الإسلام واعتقد بها على طبق ما جاء في القرآن الكريم وسُنة المصطفى صلى الله عليه وآله، التي يُوضحها الإمام عليه السلام، قال صلى الله عليه وآله: ((إني خلقت أنا وأنت من طينة واحدة))[2]، و قال صلى الله عليه وآله: ((أنا وعلي من شجرة واحدة، والناس من شجر شتى))[3]، وقال صلى الله عليه وآله مشيرا إلى علي عليه السلام: ((إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا))[4] الخليفة بمعنى المرجعية، وليست الخلافة هي ذلك المنصب المؤقت الذي يستمر بضع سنوات ثم ينتهي، و يترتب على ذلك أنه عندما نريد فهم التوحيد الذي جاء في القرآن الكريم علينا أخذه من أحاديث علي عليه السلام، وهكذا عندما نريد فهم القضاء والقدر ومعنى كون الله تعالى عادلاً، فإن علينا أن ننظر في كلمات علي عليه السلام والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، لأنهم هم المرجعية الثقافية والفكرية المقصود من الخلافة.

خطر بُغض الإمام علي عليه السلام

ولم يكتف النبي صلى الله عليه وآله بهذا، بل أضاف شيئاً آخر يرتبط بالطرف المقابل الذي لا يوالي علياً ولا يأخذ بنهجه في الناحية الثقافية والعلمية، فعبّر صلى الله عليه وآله عن ذلك بقوله: ((يا علي من أبغضك فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله وأتعس الله جده وأدخله نار جهنم))[5]، أي أن من يبغض علياً ويعاديه فهو يبغض ويعادي الله تعالى، قال صلى الله عليه وآله: ((يا أيها الناس من كنت مولاه فهذا مولاه، والي الله من والاه ، وعادى الله من عاداه))[6].

إن الله تعالى لا يُبغض أحداً،بل يُحب الخير لخلقه. ومعنى معاداته تعالى كمكره في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال:٣٠)، وهو يُساوق عدم السير على وفق المنهاج

١- مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج٢ ص٦.

٢- بحار الأنوار للمجلسي ج٧ ص٢٣٨.

٣- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٤٠.

٤- ميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٣٧.

٥- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٧ ص٢٢١.

٦- وسائل الشيعة للحر العاملي ج٥ ص٥٨.

الإلهي، الذي جاء به المصطفى صلى الله عليه وآله ، وأكد عليه الرسل والأنبياء عبر تاريخهم الطويل. و من سار كذلك فهو لا يعتبر الإمام علياً عليه السلام يُمثل المرجعية له من الناحية الثقافية والعلمية، وبالتالي فهو لا يأخذ بما يريده الله تعالى منه، أي أنه يظهر الحق ويبطن الباطل قال صلى الله عليه وآله: ((إن آية المنافق بغض علي))[1]. والنفاق أن يُظهر الإنسان خلاف ما يُبطن. إن كثيراً من الناس لا يتوجه إلى هذا المعنى العميق، الذي أُوضح في الروايات من قبل المصطفى صلى الله عليه وآله في قوله: ((ومن فارق عليا فقد فارقه))[2]، فهل يستطيع أحدٌ أن يُفارق الله من الناحية التكوينية؟! مع كونه تعالى يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:٤)، والمقصود من المفارقة هنا ليس المفارقة التكوينية، بل المفارقة في المنهج الذي يريده الله، أي أنّ الله يريد شيئاً والإنسان يُريد شيئاً آخر لا يريده الله، وقد أوضحت هذا المعنى رواية قال صلى الله عليه وآله: ((من ظلم عليا مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوتي ونبوة الأنبياء قبلي))[3]. المقعد هنا يراد به المرجعية الفكرية التي تشمل الثقافة والعلم، ومعنى قوله صلى الله عليه وآله ((جحد نبوتي ونبوة الأنبياء قبلي)) مع أنه يُصدِّقها بلسانه، أي، إنه لا يسير على وفق المنهج الذي أمر به الباري تعالى.

و ختاماً لابد من التأكيد على أهمية المرجعية الثقافية والعلمية في ولاية أهل البيت، و أن لا نأخذ مفاهيمنا وأحكامنا إلا من علي وآل علي بمقتضى ما ورد في حديث الثقلين من عدم افتراق الكتاب عن السُّنة حتى يَرِدَا عليه صلى الله عليه وآله الحوض.

---

[1]- بحار الأنوار للمجلسي ج٩ ص٢١٤، وفي الأمالي للطوسي ص٦٠٥: عن أبي سعيد الخدري ، قال : كانت أمارة المنافقين بغض علي بن أبي طالب عليه السلام ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وآله في المسجد ذات يوم ، في نفر من المهاجرين والأنصار ، وكنت فيهم ، إذ أقبل علي عليه السلام فتخطى القوم حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وآله، وكان هناك مجلسه الذي يعرف به ، فسار رجل رجلا وكانا يرميان بالنفاق ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وآله ما أرادا ، فغضب غضبا شديدا حتى التمع وجهه ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يدخل عبد الجنة حتى يحبني ، ألا وكذب من زعم أنه يحبني وهو يبغض هذا ، وأخذ بكف علي عليه السلام ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية في شأنهما (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول) إلى آخر الآية .

[2]- مناقب الإمام أمير المؤمنين للكوفي ج٢ ص٥٤٢: قال صلى الله عليه وآله : أنا وعلي وفاطمة والحسن والحسين في الجنة وأن من فارقه فقد فارق الله ، ومن فارق عليا فقد فارقه.

[3]- شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني ج١ ص٢٧١.

الولاية والطاعة في البُعد العقدي

قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾(النساء:٥٩)، وقال تعالى أيضاً : ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾(النساء:٨٠) صدق الله العلي العظيم.

الولاية المطلقة لله تعالى :

من المفاهيم التي أكدت عليها الشريعة المقدسة مبدأ الحرية في التصرفات والسلطنة التامة للمكلف على أفعاله وأقواله وأمواله، ويعبر العلماء عن هذه الحرية والسلطنة بأنه ليس لأحدٍ حق على أحد، أي أنّ كل فرد من المجتمع يتساوى مع الآخر، وليس لأحد ولاية على أحد، ويُقرر هذا الحكم كحكم أولي بأدلة عقلية ونقلية، أي أنّ الناس سواسية، والولاية العامة المطلقة لله تعالى.

أولاً : الأدلة العقلية :

الأول : وجوب شكر المنعم.

وهو عمدة الأدلة التي يذكرها العلماء، ومعناه أنّ الإنسان يدرك بعقله إدراكاً قاطعاً أنه لم يكن، ثم وُجد في هذا العالم، فيتساءل من الموجد له؟ ثم يبدأ يفكر حتى يصل بتفكيره إلى إدراك وجود منعم خالق وبارئ له، أوجده في هذا العالم لحكمة وغاية سامية ، وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة، فيُدرك بعقله ضرورة شكر المنعم وتعظيمه، والذي يتحقق بطاعته.

الثاني : وجوب دفع الضرر المحتمل.

يُردف العلماء وجوب شكر المنعم بدليل آخر، هو أنّ الإنسان يدرك من خلال دعوات الأنبياء والرسل احتمال وجود عقاب وحساب في عوالم الغيب التي تنتظره بعد انتقاله من هذا العالم احتمالاً يعتد به العقلاء – أي معقولاً ومقبولاً – ووجود ذلك العذاب لا يتأتى له دفعه في تلكم العوالم الغيبية إلا من خلال السير على وفق قواعد وضوابط يؤمن بها توصله إلى معرفة الله كي يطيعه ويعمل بأوامره ، بذلك يدفع الضرر الذي احتمله عقله.

الأدلة النقلية :

وقد أضـــاف بعض العلماء أدلة نقلية على ذلك من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُـولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النســـاء:٥٩). وهناك روايات وردت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال، قال الرضا عليه السلام: ((ولا يُنال ولاية الله إلا بالطاعة))[١].

هذه الأدلة النقلية من آي القرآن الكريم وروايات أئمة أهل البيت عليهم الســـلام تُؤكد وجوب طاعة الله ورسـوله والأئمة عليهم السـلام، وهي أدلة إرشـادية تفصـح عن ما حكم به العقل من ضـرورة وجوب الطاعة لله تعالى.

طاعة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام:

تدل الأدلة التي تُؤكد على وجوب طاعة الله ووجوب طاعة النبي صـــلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام على أنّ طاعتهم منبثقة من طاعة الله، أي أنّ طاعة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السـلام ليسـت مسـاوية لطاعة الله في الرتبة، لأنّ الأصـل الأولي الذي حكم به العقل هو وجوب الطاعة لله تعالى، وهو تعالى أوجب علينا طاعة النبي صـــلى الله عليه وآله والأئمة عليهم الســـلام، فأصـــبحت طاعتهم واجبة ومنبثقة من طاعته تعالى.

ويُدلل ترتيب البحث من الناحية العقدية على أنّ وجوب طاعة الله حكم عقلي، ويثبت أنّ طاعة النبي صـلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السـلام حكم عقلي أيضـاً للارتباط بين طاعتهم وطاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُـولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ ﴾ (النســاء:٨٠)، أي أنّ طاعة النبي صـــلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام تنبثق من طاعة الله تعالى.

وجوب طاعة الفقهاء :

أكد النبي صـــلى الله عليه وآله كمبلغ عن الله تعالى ضـــرورة الالتزام بأوامر أهل البيت عليهم السـلام من خلال مئات الأحاديث المتواترة بالتواتر اللفظي لبعضـها والإجمالي أو المعنوي لبعضـها الآخر، وهي تُؤكد بما لا مجال للريب فيه ضرورة وجوب الطاعة للأئمة المعصومين عليهم السلام، وقد أكّد الأئمة عليهم السلام وجوب الطاعة للفقهاء وأنهم أمناء للرسل، قال الإمام علي عليه السلام: ((العلماء حُكّامٌ

١- وسائل الشيعة للحر العاملي ج١٦ ص١٨٥.

على الناس))[1]، وهذا التسلسل العقدي الذي يفرض وجوب طاعة النبي والأئمة (عليهم السلام) يلزم بطاعة الفقهاء الذين تتوافر فيهم مواصفات خاصة، وليس لكُل فقيه وصل إلى رتبة الاجتهاد.

هل يحق لنا التشكيك في مواقف الفقيه الجامع للشرائط؟

النتيجة التي نصل إليها من خلال تسلسل البحث هي وجوب الالتزام بأوامر الفقيه الجامع للشرائط، ولا يجوز التشكيك فيما يصدر عنه من مواقف تجاه القضايا العامة، وهذا ما حدث بالفعل تجاه سماحة السيد السيستاني (يحفظه الله)، إذْ شكك بعض الناس في مواقفه وفي القرارات التي أصدرها لضيق أفقهم أو قصور رؤيتهم للأحداث السياسية والتطورات التي يشهدها العالم، وتصور البعض بأنّ مستواه الثقافي أو العلمي يُتيح له أن يقف في وجه الفقيه الجامع للشرائط ويُشكك في مواقفه على أساس حرية التفكير والنقد، وذلك خطأ فادح، لأنّ حرية التفكير والنقد محفوظة لكل إنسان إذا لم تُؤدِ إلى الإساءة للآخرين أو توجب إهانة لعلماء الدين، مع العلم أنّ الكثير ممن اعترض على مواقف المرجعية أو الفقيه الجامع للشرائط لم يُعايش الساحة التي يتواجد فيها الفقيه، ولم يطلع على الخصوصيات المختلفة التي أدت إلى أن يتخذ الفقيه القرار أو الموقف من القضايا المصيرية، بالإضافة إلى أنّ الوقوف في وجه الفقيه الجامع للشرائط والمتصدي للقضايا العامة معناه الرد على الله والرسول والأئمة عليهم السلام، كما ورد في مقبولة عمر بن حنظلة، قال الصادق عليه السلام: ((انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فارضوا به حكما فإني قد جعلته عليكم حاكما فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنما بحكم الله قد استخف وعلينا رد والراد علينا الراد على الله وهو على حد الشرك بالله .))[2]، أي أنّ الإمام المعصوم جعل الولاية للفقيه في زمن الغيبة، والرد على المعصوم ردٌ على الله تعالى يكشف عن أن الراد لم يصل إلى مرتبة الإيمان الكامل والإذعان بالولاية المطلقة للمبدأ المتعال، ويترتب على الرد محاذير كبيرة وخطيرة أخرى.

نعم؛ المناقشة متاحة لكن الرد والوقوف وإثارة الإشكالات كل ذلك لا ينسجم مع الموقف الإيماني للمؤمن الذي سار في المسار السليم الصحيح، خصوصاً إذا كان الفقيه يمتلك المؤهلات القيادية فإنّ ذلك يجعل ما يصدر منه من رؤى مطابقاً للموازين الشرعية التي تصب في صالح الأمة.

خلفيات مواقف الأئمة عليهم السلام.

---

[1]- ميزان الحكمة للريشهري ج٣ ص٢٠٨٧.

[2]- الكافي للشيخ الكليني ج٧ ص٤١٢.

لكي تتضح الرؤية نذكر بعض الأمثلة التاريخية في زمن الأئمة عليهم السلام، فقد صدرت منهم مواقف أدت إلى كثيرٍ من الحوارات والمناقشات، حتى من لدن من يؤمن بولاية الأئمة عليهم السلام:

الأول : صدرت من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تصرفات متعددة، ندرك بعض ملابسات بعضها وما يحيط بها، ولا ندرك ملابسات بعضها الآخر، فقد عزل معاوية من الولاية على الشام، وأَقرّ بعض من لا تنطبق عليه الموازين في نظرنا الظاهر، كزياد بن أبيه والياً على الكوفة، ولا يمكن أن يقال: لماذا عزل أحدهما وأبقى الآخر، مع كونهما يشتركان في عدم انطباق الموازين وضوابط الأهلية والكفاءة عليهما؟ ذلك أنّ هناك ملابسات وحيثيات لا نحيط بها علماً، ودورنا كمؤمنين أن نُسلِّم بما صدر من تصرفات وأوامر من الإمام (عليه السلام)، إذ حتى الإنسان العادي يدرك أن بعض تصرفاته مع أولاده تختلف عن بعضها الآخر، فيقوم بعمل لبعض أبنائه لايقوم به لبعضهم الآخر؟ لوجود ظروف وخصائص لا يحيط بها الآخرون علماً.

الثاني: الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام معصومان، ونعرف من خلال السرد والتحليل التاريخي سبب نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وسبب إجراء الهدنة من الإمام الحسن عليه السلام، لكن بعض الناس الذين لا يدركون خلفية الموقفين قد يشككون في الأمر لضيق أفقهم أو لعدم إطلاعهم على ملابسات المواقف والظروف .

الثالث: الإمام العسكري عليه السلام نصَّب بعض الناس الذي هم في نظرنا أقل كفاءة من الآخرين، لكن هناك ملابسات وظروف تحيط بتصرف الإمام عليه السلام، أبانها وأوضحها من خلال الرؤى والأسس التي على أساسها نصّب ذلك الفرد ولم يُنصب الفرد الآخر.

إذاً الرأي السليم أن يُسلِّم الإنسان بصحة ما صدر من لدُن الأئمة عليهم السلام.

المرجعية هي التي تُحيط بخلفيات المواقف .

يحتاج الإنسان كي يُشخص لنفسه الوظيفة العملية، أن يحيط بحيثيات الموقف، ومن ثَمّ يُعطي رأياً أو يجعل لنفسه الحق في إظهار المناقشة، أما إذا لم يحط بحيثيات الموقف فلا يسوغ له أن يعترض على ذلك، بل يقال أكثر من ذلك، وهو أنه حتى إذا أدرك بعض الحيثيات ولم تُتح له الفرصة لمواكبة الحدث والموقف كما هو متاح للقائد الذي يرى ما لا يراه الآخرون، وبالتالي فإن موقفه الذي يشخصه من موقعه القيادي بملاحظة الحيثيات يختلف عن الموقع الذي يشخصه غيره، الذي قد ينظر لبعض الحيثيات دون بعضها الآخر، وكذا الأمر بالنسبة للفقهاء في العصور السالفة إلى عصرنا الراهن، فإنّ بعض المواقف

تُتخذ من قبل الفقيه الجامع للشرائط، كسماحة السيد السيستاني (يحفظه الله) على أُسس ومبادئ تنطبق عليها الموازين الشـــرعية، وبالتالي فإن إظهار ما يخالف الموقف الإيماني لا ينســـجم ولا يتلاءم مع الإيمان السليم المبني على ذلك الترتب الذي أوردناه بدء البحث.

الغدير مفهوم الإسلام الصحيح

قـال الله تعـالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُـولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَـالَتَهُ ﴾(المائدة:٦٧) صدق الله العلي العظيم.

ذكرى الغدير هي من أيام الله التي أَمَرَ تعالى بالاهتمام بها عَبْرَ التّذكير بها وإحيائها على الدوام. قال تعالى لموسى عليه السـلام: ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾(إبراهيم:٥)، ويوم الغدير يومٌ هامٌّ في حياة الأمّة الإسلاميّة، بل في حياة المجتمع الإنساني بشكلٍ عام، لما يشتمل عليه من إبلاغ العدل للإنسانيّة وتأكيد أهميّة التّطبيق الجاد للقانون الإلهي في حياة المجتمعات.

أهمية الإمامة في إكمال رسالة السّماء:

عقيدتنا في الإمامة أنّ النّبي صـــلى الله عليه وآله أكّد ومنذ الوهلة الأولى على إمامة مولانا أمير المؤمنين، وهناك أحاديث متعددة نقلها الفريقان تبيّن خلافة ووصـاية أمير المؤمنين صـلى الله عليه وآله ، منها: حديث الدار ، عندما أُمِر صـلى الله عليه وآله بإنذار عشـيرته الأقربين، فأنذرهم وقام صـلى الله عليه وآله فيهم قائلاً : ((مَنْ يؤازرني على هذا الأمر يكن أخي ووصـــيّ، ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي))، فقام إليه أمير المؤمنين عليه السلام من بينهم ، وهو أصغرهم يومئذ سناً فقال: ((أنا أؤازرك يا رسول الله)) فقال النبي صلى الله عليه وآله : ((اجلس فأنت أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي))[١]، حتى أنّ بعض أعمام النّبي صلى الله عليه وآله استهزأ بكلامه صلى الله عليه وآله وقال لأبي طالب عليه السـلام: قد أَمرَك أن تسـمع لابنك وتطيع[٢]. إذن الإمامة هي التّوأم الذي لا ينفصـل عن

١- الإرشاد للمفيد ج١ ص٧-٨.

٢- تاريخ الطبري للطبري ج٢ ص٦٣.

النّبوّة لمحمد صلى الله عليه وآله، وتُمثّل الدّيمومة والاستمرار للحفاظ على منجزات ومكتسبات الرّسالة والتّأكيد الجاد والسّليم لما يُريده الباري تعالى من عُمْقٍ وأصالةٍ لها، وقد أكّد المصطفى صلى الله عليه وآله على أهمّية الإمامة من نواحٍ متعددة. سأستعرض بعضاً منها لأهمّيته القصوى في الفكر الإسلامي:

١) النّاحية السّياسيّة.

أكّد عليها المصطفى صلى الله عليه وآله ، وأراد للأمّة الإسلاميّة أنْ تنقاد سياسياً لأهل البيت، لكونهم يمثّلون الذّروة والسّنام الأعلى، ومن بيده رأس الخيط في الأمور السّياسيّة والقيادة العامّة للدّولة الإسلاميّة، وهذا الإطار القيادي والسياسي يتجلى بوضوح في حديث الغدير الذي يمثّل استمرارية قيادة الأمة الربانية من خلال أهل البيت عليه السلام ، لذا نجده صلى الله عليه وآله – بعد أنْ نَزَل عليه الوحي بالآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ – وقف بين جموع المسلمين وقال: ((ألستم تعلمون أني أولى بكم من أنفسكم ؟))[١] تذكير منه صلى الله عليه وآله للولاية التي أكد عليها القرآن في قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب:٦) وأنّ الولاية بمعنى القيادة في الجانب السّياسي .

ترسيخ النّبي (ص) القيادة السّياسيّة في حياته.

كانت آثار قيادة النبي صلى الله عليه وآله للأمة واضحة في المواقف الحساسة والقرارات الحاسمة التي يتخذها ، فكان يُبرم الهُدْنة كما في صُلح الحُديبية، ويُعلن الحرب كما حدث في غزوة بدر عندما قال له بعض أصحابه : إنّ هذه قريش وخيلاءها أي أنها تتمتّع بالعِدّة والعدد والنّفوذ، ولسنا نستطيع أنْ نقاوم كبرياء قريش، فما كان منه صلى الله عليه وآله إلا أنْ قام وأعلن الحرب بناءً على المصالح العليا للإسلام التي يرتئيها[٢]. ولا يتنافى هذا مع استشارته لأصحابه في المواقف المصيرية ، من أجل أن يُؤسس مبدأ الشورى في حياتهم ، ولا يعني أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان دكتاتورياً – كما تصور بعض المغرضين – ذلك أنّ قراراته صائبة لكونه نبياً معصوماً يتلقى ما يقوم به من الله تعالى، والمسلمون مأمورون بالأخذ بما يقوله صلى الله عليه وآله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر:٧)، بالإضافة إلى أنّ قراراته مؤيدة من لدُن ذوي العقول الراجحة من أصحابه

١- ينابيع المودة لذوي القربى للقندوزي ج١ ص١١٩.

٢- بحار الأنوار للمجلسي ج١٩ص٢١٧.

المخلصين عندما يستشيرهم . ولذا، أذعنت الأمة الإسلامية لقيادته السياسية المطلقة التي لا يشاركه فيها غيره ، وقد أراد صلى الله عليه وآله أن يُذكّرهم بهذه المسألة المهمة عندما قال لهم : ((ألست أولى بكم من أنفسكم؟))[1] فأجابوا: اللّهم بلى. ومعنى الأولوية هو ما يرتبط بالجانب السّياسي، وكان حديث الغدير إعلان بالقيادة السّياسيّة المطلقة لعليٍّ عليه السلام كما كانت له صلى الله عليه وآله.

٢) القدوة لأهل البيت.

أكّد صلى الله عليه وآله هذا المبدأ ، وهو صلى الله عليه وآله الأسوة الحسنة لمن أراد أنْ يتكامل في أيّ جنبة من جوانب الحياة، سواءً كانت الجنبة ماديّة أو معنويّة، وعليٌّ عليه السلام وأهلُ البيت عليهم السلام يتمتعون بمبدأ القدوة الذي جسّده المصطفى صلى الله عليه وآله ، وأشار إليه صلى الله عليه وآله في كثيرٍ من الأحاديث من أنّ علياً هو القدوة من النّاحية الأخلاقيّة والاجتماعيّة ، فقال في بعض الأحاديث: ((عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع عليٍّ يدور حيثما دار))[2]، أي عندما يكون الأمر في الأخلاق، أو في التعامل الاجتماعي أو في الوصول إلى الكمال، فإنّ الإمام علي عليه السلام له قَدَمُ السبق في كُل ذلك بلا منازع ، وإذا كان الحق معه فلا يمكن أن يكون مع غيره المخالف له، وهذا التميز والاصطفاء والاختيار للإمام عليه السلام لم يكن عبثياً أو عشوائياً، وإنما يرجع ذلك إلى ما يتمتّع به هو وأهلِ البيت عليهم السلام من مؤهلات خاصة لم تتوافر في غيرهم، من أهمها ما بينه القرآن الكريم من طهارتهم عليهم السلام وأنهم لا يعتريهم شك ولا يطرأ إليهم ريب لأنهم يجسدون القداسة المطلقة ، وقد استعرض القرآن الكريم ذلك في آيتين تعضد إحداهما الأخرى:

الأولى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب:٣٣).

والثانية: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة:٧٧-٧٩)، أي لا يصل إلى تأويل القرآن وفهم أسراره إلا عليّ وآل عليّ الّذين نصّ عليهم المصطفى بأنّهم أهل البيت الّذين طهرهم الله تعالى من الرّجس.

---

[1]- ينابيع المودة لذوي القربى للقندوزي ج١ ص١١٩.

[2]- بحار الأنوار للمجلسي ج١٠ ص٤٣٢.

كما أنّ النّبي صلى الله عليه وآله بيّن الجانب العلمي في شخصيّة عليٍّ وآله، فقال : ((وهم خُزّاني على علمي من بعدك))[1] وقال الصّادق عليه السلام: ((نحن شجرة العلم، ونحن أهل بيت النّبي، وفي دارنا مهبط جبرائيل، ونحن خُزّان علم الله، ونحن معادن وحي الله، من تبعنا نجا ومن تخلّف عنّا هلك حقاً على الله عزّ وجلّ))[2] بل أنّ هذا الجانب بينه المصطفى (ص) في العشرات بل المئات من الأحاديث التي وردت في فضلهم عليهم السلام.

٣) المرجعيّة الدّينيّة لأهل البيت.

لكنّ الجنبتين الآنفتين لم يُؤكّد عليهما أهل البيت عليهم السلام كما أكدّوا على الجنبة الثّالثة لأهميّتها الفائقة والقصوى في حياة الأمّة، بمعنى أنّهم عليهم السلام يشكّلون المرجعية الدينيّة في الأمور الّتي يحتاجها المسلم في العبادات والمعاملات والرُؤَى والمفاهيم التي تُشكّل الجانب العقدي في شخصيّة المسلم، وهو ما تُشير إليه العشرات من الأحاديث التي كرّر النبي صلى الله عليه وآله بعضاً منها في غدير خُم ، بمعنى أنّه قرن هذه الجنبة مع الجنبة السّياسيّة التي أوْمأنا إليها آنفاً، كما أنه (ص) كرّر بعض الأحاديث في عرفة عندما وقف مع النّاس في حجّة الوداع.

حديث الثِّقلين مصداق المرجعيّة الدّينيّة:

لعلّ من أهمّ الأحاديث – والّتي هي فوق حدّ التّواتر كما يُشير العلماء –حديث الثِّقلين، قال صلى الله عليه وآله: ((إنّي تاركٌ فيكم الثِّقلين، ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي كتابَ الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض))[3]، الكتاب والعترة كلاهما يمثّل شرعيّة للآخر، إذِ القرآن الكريم لا يمكن أنْ يصل إليه المسلم عبر الفهم المتعدد الآتي من القراءات المختلفة، بل هناك مرجعيّة للقرآن بينها الإمام أمير المؤمنين عندما بعث ابن عبّاس في محاورة أصحاب معاوية في صِفّين، وقال ابن عباس: أأحتج عليهم بالقرآن الكريم؟ فقال الإمام عليه السلام : ((لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمَّالٌ ذو وجوه))[4]، بل احتجْ عليهم بما قاله النّبي صلى الله عليه وآله فيَّ وفي أهل بيتي بأنّنا المرجعيّة للقرآن الكريم، لأنهم القرآن الناطق الذي يُبيّن ما يُريده الله تعالى، وهو ما نجده واضحاً جلياً في

١- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص١٠٧.

٢- بحار الأنوار للمجلسي ج٢٦ ص٢٤٠.

٣- وسائل الشيعة للحر العاملي ج٢٧ ص٣٤.

٤- ميزان الحكمة للريشهري ج٣ ص٢٥٣٥.

كل رُؤَى ومفاهيم الإسلام، حيث لا نستطيع أنْ نرجع إلى ما يقوله غيرهم عليهم السلام في فهم حقيقة القرآن في صـــفات الله تعالى، أو في عدله، أو في القيامة واليوم الآخر، وفي كثير من الرُّؤَى والمفاهيم الّتي تُشكّل الجانب العقدي من شـخصـيّة المسـلم، أي في المرجعيّة الفقهيّة من ناحية العبادات والمعاملات ، فلا نستطيع أنْ نأخذ من غير أهل البيت عليهم السلام لأنّ قول غيرهم مشكوك الحجّية كما قال علماء الأصول، بينما قولهم عليهم السلام في تفسير وفهم آي القرآن الكريم مقطوع الحجّية بما نصّ عليه القرآن ونصّت عليه السُّنة المتواترة عن المصطفى صلى الله عليه وآله والّتي من أهمّها حديث الثِّقلين وما يمثّله من استمرار لفهم سليم وحقّ للقرآن الكريم، وقد بيّن المصطفى صلى الله عليه وآله في ذيل حديث الثِّقلين الأهمّية الفائقة فقال: ((وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض))[1]، فعليٌّ وأهل البيت توأم القرآن الكريم ، لا يفترقان في الدّنيا، ولا في عوالم الغيب في القيامة وعالم الآخرة ، لهذا فإنّ ذكرى الغدير هي ذكرى لكلّ هذه المحاور الّتي ألْمحنا إليها باقْتضابٍ شديدٍ تربط مرجعيّة أهل البيت بالقيادة السّياسيّة العامّة لهم والقدوة في شخصيّاتهم عليهم السلام.

الإمام عليه السلام مظهر الهداية للبشرية

قال الله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(التغابن:٨) صدق الله العلي العظيم.

وظائف الإمام عليه السلام :

للإمام المعصوم عليه السلام وظائف متعددة فهو حافظ للشريعة عن الزيغ والضلال وهو سبب متصل بين الأرض والسماء، ومن مراتبه ومقاماته التي يتصف بها الهداية الباطنية للخلق، ومعناها هو ما يدور بحثنا حوله.

الهداية الباطنية:

وهي تساوق التوفيق للخير في سلم الصعود التكاملي للإنسان في سيره إلى الله تعالى، فمن يريد أن يسلك طريقاً ويقطع مسافة ويواجه عقبات في طريق وصوله إلى غايته وهدفه يحتاج إلى هداية، وكي تتضح الفكرة نصورها بمثال من الواقع الذي نعيشه.

---

[1]- وسائل الشيعة للحر العاملي ج٢٧ ص٣٤.

فمن أراد أن يرتقي في سلمه الوظيفي، ويصل إلى أرفع المستويات، لابد له من تحصيل مجموعة من العوامل، منها: العلم والإتقان والإخلاص في العمل والخلق الكريم والتعامل الحسن مع رؤسائه وزملائه في العمل، وهذه الأمور تتطلب وعياً وفهماً ودراية وممارسة اجتماعية حتى يتأتى له تحصيل هذه العوامل، ليتاح له الوصول إلى غايته.

وكذلك الحال في الجانب الصحي، فإنّ الإنسان معرض لمجموعة من الابتلاءات الصحية، والحفاظ على صحته وسلامته يحتاج إلى اختيار صحيح للأكل الذي يتناسب مع وضعه الصحي واستشارة من أخصائيين واستشاريين في الطب ليتاح له أن يحافظ على صحته. والأمر كذلك في المجالات الأخرى، أما الجانب المعنوي فيعتبر من أهم المجالات التي يريد الإنسان أن يرتقي فيها للوصول إلى الله تعالى، وقد أبان القرآن الكريم أنّ الوصول إلى مرتبة الاطمئنان واليقين يترتب على دوام العبادة، قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾(الحجر:٩٩) أي لابد من السير في طريق العبودية إلى الله تعالى للوصول إلى مرتبة الاطمئنان واليقين.

طريق الوصول إلى اليقين:

يتم وصول الإنسان إلى اليقين من خلال طريقين:

الأول: الهداية الظاهرية.

وتتحقق بإرشاد الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام، فعندما يأخذ الإنسان بتوجيهاتهم ويسير على نهجهم فقد أخذ بالهداية الظاهرية.

الثاني: الهداية الباطنية.

وترتبط بالتوفيقات المعنوية التي تحصل للإنسان في حياته الدنيا، إذْ أنّه قد يسلك طريقاً معيناً ويوفق في ذلك بشكل لا إرادي ويشكر الله على ذلك لأنه لو لم يسلك هذا الطريق لما وصل إلى هدفه، ويسمى هذا بـ(التوفيق المعنوي)، أي أنّ الإنسان وإنْ لم يبذل جهداً في الوصول إلى ما أراد الوصول إليه لكن عوامل التوفيق رافقته وأدت به للوصول لهدفه وغايته.

افتراق عالم المادة عن عالم المعنى:

إن عالَم المعنى أوسع من عالم المادة، إلا أنّ كلا العالَمين يشتركان في وجود عقبات تختلف شدة وضعفاً في كل منهما، واجتياز الإنسان لهذه العقبات في المادة يحتاج إلى توفيق من الله، أما اجتيازها في

عالم المعنى فيحتاج إلى هداية خاصة ترتبط بالإمام المعصوم ونوعية العلاقة المعنوية به، ولدينا طائفة من الروايات تبين هذا المعنى بالإضافة إلى بعض آي القرآن الكريم التي فُسرت بهذا المعنى من أئمة أهل البيت (ع).

الهداية الباطنية عند المعصومين عليهم السلام:

من الآيات التي تبين خصوصية الارتباط بالمعصوم عليه السلام الآية التي بدأنا بها الحديث: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(التغابن:٨) وعندما نلحظ عجز الآية: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ نجدها تتحدث عن أنّ كل ما يصدر من عملٍ من الإنسان فإنّ الله محيط به، وبأسبابه والآثار المترتبة عليه في عالمي الدنيا والآخرة. وقد ذكر هذا المعنى الأئمة من أهل البيت عليهم السلام تفسيراً لهذه الآية المباركة: ففي أصول الكافي عن أبي خالد الكابلي قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل : " فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا " فقال : يا أبا خالد النور والله الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله إلى يوم القيامة ، وهم والله نور الله الذي أنزل ، وهم والله نور الله في السماوات وفي الأرض ، والله يا أبا خالد لنور الامام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار ، وهم والله ينورون قلوب المؤمنين ، ويحجب الله عز وجل نورهم عمن يشاء فتضللهم قلوبهم)[١].

أي يسددون خطاهم، ويفيضون عليهم الهداية الخاصة التي توصلهم إلى أعلى مراتب الاطمئنان واليقين.

ويظهر هذا لبعض الأولياء حتى في آخر عمره، وأتذكر قصة في هذا المجال، لأحد المراجع (رحمه الله) في قم المقدسة، فكان عند احتضاره يقول لأبنائه انظروا الحسن، انظروا الحسين، انظروا جدتي الزهراء، وبينما هو يشير إليهم قُبضت روحه.

وذلك لطف رباني خاص بهؤلاء الذين أيقنوا بالمعاني الحقيقية لإمامة الأئمة من أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقد قال الإمام الباقر عليه السلام بعد ذلك: (**ويحجب الله عز وجل نورهم عمن يشاء فتضللهم قلوبهم**)[٢] بمعنى لا يمكنهم الوصول لهذه المراتب من الاطمئنان والهداية للتوفيق المعنوي الخاص المرتبط بوجود المعصوم، وهناك رواية تخص الذين يسيرون في طريق التكامل المعنوي فتلتبس

---

١ – الكافي للكليني ج١ ص١٩٤.

٢ – الكافي للكليني ج١ ص١٩٤.

عليهم بعض الأمور في الناحية العقدية، قال فيها الإمام الصادق (ع): (من أحب أهل البيت وحقق حبنا في قلبه جرت ينابيع الحكمة على لسانه وجدد الايمان في قلبه)[1].

هذه هداية معنوية خاصة يفيضها الله تعالى، عبر عنها بعض العلماء بأنّ الأئمة عليهم السلام واسطة للفيض العام والفيض الخاص، وهو ما يحتاج إلى إيمان وإخلاص في حبهم عليهم السلام يساوق المودة في قوله تعالى: ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾(الشورى:٢٣) بمعنى الإتباع لهم عليهم السلام. قال الإمام الصادق عليه السلام: (فأوضح الله بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا عن دينه ، وأبلج بهم عن سبيل مناهجه وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه ، فمن عرف من أمة محمد صلى الله عليه وآله واجب حق إمامه وجد طعم حلاوة إيمانه ، وعلم فضل طلاوة إسلامه ، لان الله نصب الامام علما لخلقه ، وجعله حجة على أهل عالمه ، ألبسه الله تاج الوقار ، وغشاه من نور الجبار ، يمد بسبب إلى السماء لا ينقطع عنه مواده ، ولا ينال ما عند الله تبارك وتعالى إلا بجهة أسباب سبيله ، ولا يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفته . فهو عالم بما يرد عليه من ملتبسات الوحي ومعميات السنن ومشتبهات الفتن ولم يكن الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، وتكون الحجة من الله على العباد بالغة)[2].

والحمد لله رب العالمين.

---

[1] – أهل البيت في الكتاب والسنة للريشهري ص٤٢٢.

[2]– بحار الأنوار للمجلسي ج٢٥ ص١٤٦–١٤٧.

المصادر:

	المصدر	المؤلف	الطبعة	المطبعة	الناشر
١.	القرآن الكريم	---	--	--	---
٢.	وسائل الشيعة	الحر العاملي	الثانية		مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث
٣.	عوالي اللئالي	ابن أبي جمهور الأحسائي	الأولى	سيد الشهداء – قم	
٤.	مستدرك الوسائل	الميرزا النوري	الأولى	مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث	مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث
٥.	ينابيع المودة لذوي القربى	القندوزي	الأولى	دار الأسوة	دار الأسوة
٦.	كنز العمال	المتقي الهندي	١٤٠٩		
٧.	بحار الأنوار	العلامة المجلسي	الثانية		مؤسسة الوفاء – بيروت – لبنان
٨.	المستدرك	الحاكم النيسابوري			
٩.	ميزان الحكمة	الريشهري	الأولى	دار الحديث	دار الحديث
١٠.	أمالي الطوسي	الشيخ الطوسي	الأولى	دار الثقافة	دار الثقافة
١١.	الكافي	الشيخ الكليني	الخامسة	حيدري	دار الكتب الإسلامية – طهران
١٢.	مسند أحمد	الإمام احمد بن حنبل			دار صادر – بيروت – لبنان
١٣.	نهج البلاغة	خطب الإمام علي عليه السلام	الأولى	النهضة – قم	دار الذخائر – قم – ايران
١٤.	جامع السعادات	محمد مهدي النراقي		مطبعة النعمان – النجف الأشرف	دار النعمان للطباعة والنشر
١٥.	أمالي الصدوق	الشيخ الصدوق	الأولى		مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة

١٦.	التوحيد	الصدوق			منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة
١٧.	تهذيب الأحكام	الشيخ الطوسي	الثالثة	خورشيد	دار الكتب الإسلامية – طهران
١٨.	الإرشاد	الشيخ المفيد	الثانية		دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان
١٩.	الطلاسم	أبي ماضي			
٢٠.	ديوان المتنبي	أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي		دار بيروت	
٢١.	تاج العروس			دار الفكر – بيروت	دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت
٢٢.	صحيح البخاري	البخاري			دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
٢٣.	مسند أحمد	أحمد بن حنبل	--	--	دار صادر – بيروت – لبنان
٢٤.	في ظل أصول الإسلام	الشيخ جعفر السبحاني			مؤسسة إمام الصادق (ع) . قم
٢٥.	السنن الكبرى		الأولى		دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان
٢٦.	الصحاح	الجوهري			دار العلم للملايين – بيروت – لبنان
٢٧.	في ظلال التوحيد	الشيخ جعفر السبحاني			معاونية شؤون التعليم والبحوث الإسلامية في الحج
٢٨.	مجمع الفوائد	الهيثمي			
٢٩.	الاستيعاب	ابن عبد البر	الأولى	بيروت – دار الجيل	دار الجيل

٣٠.	سنن النسائي	النسائي	الأولى		دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان
٣١.	تفسير ابن كثير	ابن كثير			دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان
٣٢.	كتاب الشفاء	القاضي عياض			
٣٣.	الروح	لابن القيم			
٣٤.	صحيح ابن خزيمة	ابن خزيمة	الثانية		المكتب الإسلامي
٣٥.	كتاب الأم	محمد بن إدريس الشافعي	الثانية		دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
٣٦.	سنن الترمذي	الترمذي	الثانية		دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان
٣٧.	كتاب الاحتجاج	الطبرسي			
٣٨.	تهذيب الكمال	أبو الحجاج يوسف المزي			مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان
٣٩.	تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي	الأولى		دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان
٤٠.	طبقات الشافعية	السبكي			
٤١.	فيض الغدير	العراقي			
٤٢.	تذكرة الحفاظ	أبو عبد الله شمس الدين الذهبي			دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان
٤٣.	تقييد العلم	البغدادي			
٤٤.	الحديث والمحدثون	أبو زهو			
٤٥.	السنة قبل التدوين	محمد عجاج الخطيب			
٤٦.	تدوين السنة الشريفة	السيد محمد رضا الجلالي	الثانية	مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي	مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي

٤٧.	صحيح مسلم	مسلم النيسابوري			دار الفكر – بيروت – لبنان
٤٨.	صحيح ابن حبان	ابن حبان	الثانية		مؤسسة الرسالة
٤٩.	موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) في الكتاب والسنة والتاريخ	محمد الريشهري	الثانية	دار الحديث	دار الحديث للطباعة والنشر
٥٠.	التبيان	محمد بن الحسن الطوسي	الأولى	مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي	مكتب الإعلام الإسلامي
٥١.	إعلام الورى بأعلام الهدى	الشيخ الطبرسي	الأولى	ستارة – قم	مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث – قم المشرفة
٥٢.	شرح أصول الكافي	مولي محمد صالح المازندراني	الأولى	دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع	دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان
٥٣.	مستدرك سفينة البحار	الشيخ علي النمازي الشاهرودي			مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة
٥٤.	مفاهيم القرآن	الشيخ جعفر السبحاني			
٥٥.	عدم سهو النبي (ص)	الشيخ المفيد	الثانية		دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان
٥٦.	كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد (تحقيق الزنجاني)	العلامة الحلي	الرابعة	إسماعيليان –قم	انتشارات شكوري – قم
٥٧.	المزار	الشيخ المفيد	الثانية		دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان

٥٨.	مصباح المتهجد	الشيخ الطوسي	الأولى		مؤسسة فقه الشيعة – بيروت – لبنان
٥٩.	المناقب	الموفق الخوارزمي	الثانية	مؤسسة النشر الإسلامي	مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة
٦٠.	مناقب آل أبي طالب	ابن شهر آشوب		الحيدرية – النجف الأشرف	المكتبة الحيدرية – النجف الأشرف
٦١.	مناقب الإمام أمير المؤمنين (ع)	محمد بن سليمان الكوفي	الأولى	النهضة	مجمع إحياء الثقافة الإسلامية – قم المقدسة
٦٢.	شواهد التنزيل	الحاكم الحسكاني	الأولى		مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي– مجمع إحياء الثقافة
٦٣.	تاريخ الطبري	الطبري			مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت – لبنان
٦٤.	أهل البيت في الكتاب والسنة	محمد الريشهري	الثانية	دار الحديث	دار الحديث

الفهرس:

الفصل الأول: المعارف الإلهية

- **المطلب الأول: معرفة الله تعالى**

القسم الأول: الطرق الموصلة إلى معرفة الله تعالى.

القسم الثاني: الدليل العقلي على المعرفة.

القسم الثالث: الدليل الفطري على معرفة الله تعالى.

القسم الرابع: النظم وحساب الاحتمالات ومعرفة الله تعالى.

القسم الخامس: دور الدليل النقلي في إثبات المعرفة.

- **المطلب الثاني: دور الإيمان بالله في حياتنا**

القسم الأول: الإيمان زكيزة الرقابة الذاتية

الثاني: الإيمان عقيدة وسلوك

الثالث: الثمار العملية للإيمان على الفرد.

الرابع: ملامح الجانب العملي للإيمان.

الخامس: خصائص الإيمان

السادس: سمات الرفعة نحو الكمال

السابع: البعد الاجتماعي للسمات الإيمانية

الثامن: الإيمان والأمن الاجتماعي.

التاسع: ثقافة التعامل الأخوي في المجتمع الإسلامي

العاشر: سمات الإيمان سلوك المعرفة

- **المطلب الثالث: البعد العقدي للشرك في الإسلام**

القسم الأول: المائز بين المظهر العبادي التوحيدي والشركي.

الثاني: المظاهر العبادية بين الواقع التوحيدي والشركي.

الثالث: التقرب والتفويض بين التوحيد والشرك.

الرابع: برهان النظم بين إثبات التوحيد ونفي الشرك.

الخامس: الدعاء بين التوحيد والشرك.

السادس: الانسجام بين التوحيد والاستشفاع بالغير.

- **المطلب الرابع: التوسل في المنظور الإسلامي**

القسم الأول: مشروعية التوسل.

الثاني: مشروعية التوسل بالصالحين.

الثالث: حقيقة التوسل بالأولياء.

الرابع: التوسل في المذاهب الإسلامية.

الخامس: مشروعية التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله.

السادس: العلاقة بين الروح والجسد.

السابع: مفارقة الحياة لا تمنع التوسل.

الثامن: تفاعل الأموات مع الأحياء.

خاتمة

- بساطة المعتقد الإسلامي
- المعارف التوحيدية عند الزهراء عليها السلام
- معالم الشرك في صفات الله عند الإمام الرضا عليه السلام

الفصل الثاني: المعارف النبوية

- **المطلب الأول: السُنَّة الصحيحة**

القسم الأول: السُنّة بين مُقومات الحفظ وعقبات التدوين.

الثاني : اختلاف السُنّة بين مدرستي أهل البيت عليهم السلام والخلفاء.

الثالث :أسباب منع تدوين السُنّة (الحلقة الأولى)

الرابع : أسباب منع تدوين السُنّة (الحلقة الثانية).

الخامس: أسباب منع تدوين السُنّة (الحلقة الثالثة).

- **المطلب الثاني: العصمة**

الأول: مفهوم العصمة.

الثاني: نصوص في العصمة الخاصة.

الثالث: خصائص المعصوم.

الرابع: ميزات المعصوم العلمية.

الخامس: الرتبة العلمية لأهل البيت عليهم السلام.

السادس: منابع علوم المعصوم.

السابع: التأصيل القرآني لعلم الغيب.

الثامن: علم الغيب وحجية المعصوم.

التاسع: العصمة ومدرسة أهل البيت عليهم السلام.

العاشر: حيثيات الخطاب القرآني والعصمة.

الحادي عشر: العصمة المطلقة في القرآن الكريم.

الفصل الثالث: المعارف الولائية

- الولاية لأهل البيت عليهم السلام
- الولاية والطاعة في البُعد العقدي
- الغدير مفهوم الإسلام الصحيح

- الإمام عليه السلام مظهر الهداية للبشرية